

مُصطَفَى جَوَاد

سيدات البيت العباسي



١٩٥٠

دار الكتب

للإسكندرية والطباعة والنشر

بيروت - لبنان

في ٤ شباط سنة ١٩٥٠



مُصْطَفَى جَوَاد

Jawad, Mustafá

I . Same date as label of 1950
1950.3

J38

1950

سيدات الليل المعبياتي



١٩٥٠

٧٠٩
٢٠٩
٢٠٩

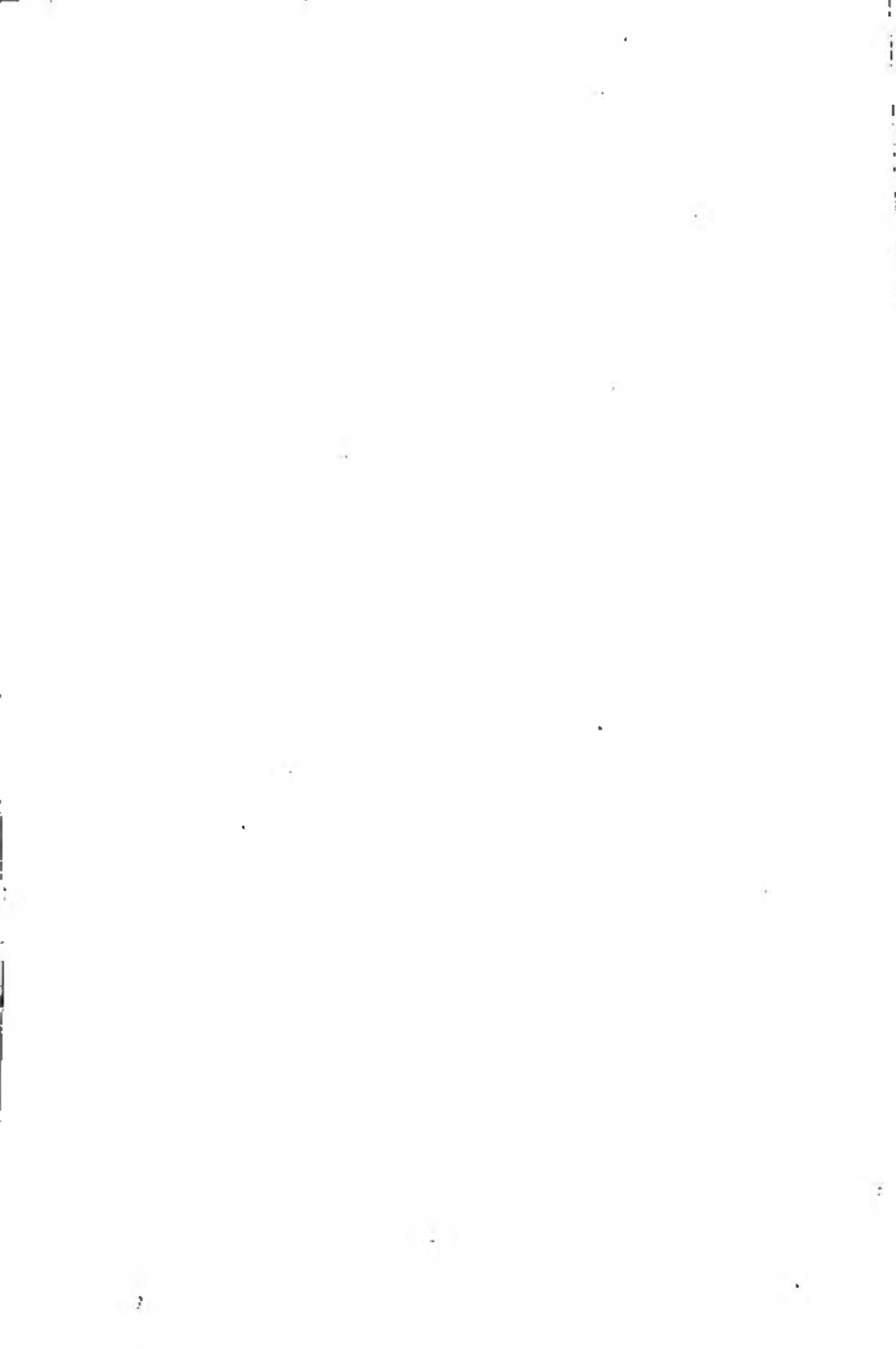
٧٩٢٩٣.

مقدمة

لم يزل تاريخ بني العباس منتجعاً خصباً لطريف الاخبار ، ومظنة رائقة لفنون الآداب ، ومراداً مؤنساً لمؤرخي التمدن والتقدم ، وسجلاً ضخماً للرسوم والاتييكيت والعلوم والانباء الطريفة والاقوال الحسنة ، والمقالات العجيبة ، والحوادث الرائعة والمحاضرات الممتعة ، والتراجم المؤنقة النافعة .

ومن طريف ما اضطمت عليه احناؤه وتضمنته اثناؤه ، تراجم سيدات من نساء الخلفاء وامهاتهم وذوات قرباهم ، تصني الافئدة لسامع اخبارهن ، وترواح النفوس الى معرفة آثارهن ، وتنصت الآذان لقاص ماثرهن ، ويستهبج بحبو التاريخ بقراءة سيرهن ، فان في كل ذلك ادباً عالياً واخلاقاً زكية زاهية ، واعمالاً جلية ، ومموى نفوس كرائم ، وكرامة طباع عظيمة ، وديانة متينة وتقوى رصينة ، وافعال بر واسع ، واحساناً متصلاً ، وفي ذلك ايضاً قدوة سامية لذوات النفوس العلية ، واسوة حسنة للمؤثرات الانسانية على انفسهن ، المفضلات الآخرة على الدنيا ، المستحبات التاريخ الازهر على التاريخ الاغبر .

المؤلف



أم سلمة المخزومية

زوجه أبي العباس السفاح أولى سيدات المهبط العباسي

هي أم سلمة بنت يعقوب بن سلمة بن عبد الله بن الوليد ابن المغيرة المخزومي ، من ذرية عبد الله المخزومي أخي خالد بن الوليد ، تزوجها أول مرة عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك بن مروان ، ثم مات عنها وبقيت أيمسا ، حتى تزوجها أبو شاكِر مسلمة بن هشام بن عبد الملك ، وكان مسلمة يشرب الخمر ولا يفيق من سكره ، ولا يهتم بأمور الدولة الأموية ، مع أن والده هشام بن عبد الملك كان يرشحه للخلافة بعده . ثم توفي والده سنة ١٢٥ هـ ، وولي الخلافة بعده الوليد الصغير ابن يزيد ابن عبد الملك ، فأرسل الوليد ابنه العباس لأحصاء ما في خزائن هشام بن عبد الملك وأبنائه وأخذ ما يأخذ من أموالهم ، فأحصاها واستقصاها ، سوى أموال مسلمة بن هشام زوج أم سلمة المخزومية فإن الوليد كان يرعى له أيادي بيضا ، ولكن أم سلمة لضجرتها من زوجها في استهتاره بالخمر كتبت إلى العباس بن الوليد كتابا تقول فيه : « إن مسلمة ما يفيق من الشراب ولا يهتم بشيء مما فيه إخوانه ولا بموت أبيه » ، وكانها شكته إليه وحرضته عليه . ولما أتى مسلمة بن هشام إلى العباس بن الوليد زائرا أتته

العباس ووجهه على الشراب وعاتبه وقال له : « كان أبوك
يوشحك للخلافة ونحن نرجوك ، فما هذا الذي بلغني عنك ؟ » فأنكر
مسألة ذلك ، وقال له : « من أخبرك بذلك ؟ قال : كتبت إليّ
به زوجتك أم سلمة . فطلتُها في ذلك المجلس . جرى كل ذلك
في دمشق ، وما حولها ، فخرجت أم سلمة بعد طلاقها إلى فلسطين
مع جواربها وحشمتها وأموالها وسكنت فيها ، وكانت بنو العباس
المطالبون بالخلافة يسكنون فيها ، فيناهي ذات يوم جالسة إذ
مرَّ بها أبو العباس عبد الله بن محمد السفاح ، وكان جميلاً وسيماً
كامل الشاب أبيض البشرة ، فحلي في عينيها ، فسألت عنه وأعلنت
بنفسه وأنه عزَّب ، فأرسلت إليه مولاتها تعرض عليه أن يتزوجها
وقالت لها : سلمي عليه وقولي له : هذه سبعةائة دينار أوجه بها
البيك . وكان لأم سلمة مال عظيم وجوهر وحشم ، وكانها علمت
فقره وأملاقه ، فاتته المولاة ، فأبلغته سلام سيدتها وأدت إليه
رسالتها ، فقال لها : قولي لسيدتك أنا بملق لا مال عندي ، ولو
كان عندي من المال ما أرضاؤك لك لفعلت ، فقالت المولاة :
هذه سبعةائة دينار بعثت بها سيدتي إليك لتصلح بها شأنك ،
فأخذت المال وأقبلت إلى أخي أم سلمة فخطبها إليه ، فزوجه إياها
على صداق مقداره خمسةائة دينار ، وأهدى إليها مائتي دينار ،
ودخل عليها من ليلة ذلك النهار الذي عقد فيه الأملاك ،
فوجدوها جالسة على منصة وكل عضو منها مكمل بالجوهر ، ثم
دعت بعض جواربها وغيوت ملابسها ولبست ثياباً مصبغة ،
وحظيت عنده وحلف لها أن لا يتزوج عليها ولا يتسرى (أي

لا يتخذ جارية مملوكة في محل مستور عنها ، كما كانت عادة الرجال الأثرياء) ، وغلبت عليه غلبة شديدة وملك أمره وقلبه ، حتى ما كان يقطع أمراً إلا بمشورتها واستئذنها ، ولا يستطيع زواجاً ولا تسرياً .

وكان دعاة بني العباس في تلك الأيام قد أحكموا أمورهم ووطدوا دعوتهم ، وكثر أعوانهم في إيران وفي العراق ، فاستدعوا أبا العباس السفاح من فلسطين إلى الكوفة ليبايعوه بالخلافة ، فانتقل إليها وبويع بها سنة ١٣٢ وعمره سبع وعشرون سنة ، ثم انتقل من الكوفة إلى الأنبار وبني عندها مدينة سماها الهاشمية ، وسكنها هو وأرباب دولته ، والأنبار مدينة كانت على نهر الفرات من الجانب الشرقي ، فوق الفلوجة ، وانتقلت العمارة منها إلى هاشمية السفاح وصارت تسمى الأنبار ، ثم زالت الأنبار الحديثة في القرن الحادي عشر للهجرة ، لأن أخبارها انقطعت في هذا القرن ، ولا تزال آثارها معروفة إلى اليوم .

ولما كان أبو العباس السفاح أول خلفاء بني العباس وكانت أم سلمة الخزومية زوجته ، تعدت أولى سيدات البلاط العباسي ، وقد لبثت مع زوجها السفاح في الهاشمية عاصمة الخلافة العباسية يومئذ مدة خلافته ، وكان مجلس السفاح من مفاخر مجالس الخلفاء ، فقد وهب الله تعالى - إلى جمال الصورة - كمال الخلق وحواب الرأي واستقامة السيرة وحسن التدبير ووافر الأدب ، حتى لقد ولي الخلافة قبل أخيه أبي جعفر المنصور ، مع أن المنصور كان أكبر منه سناً . وأخباره في الإحسان إلى بني الحسن العلويين

مشهورة . وكان من ندماء السفاح في الادب والأخبار خالد بن صفوان التميمي ، وبما نقل من أخباره الطريقة أنه دخل ذات يوم على السفاح فوجده وحده ، فجلس ثم قال :

« يا أمير المؤمنين ، إني فكرت في أمرك ، وسعة ملكك ، وقد ملكت نفسك امرأة واحدة ، فإن مرضت مرضت أنت ، وإن غابت غبت أنت وحرمت يا أمير المؤمنين نفسك التلذذ بالجوارى الطريقات ، ومعرفة أخبار حالاتهن ، والتسنع بما تشتهي منهن . فإن منهن يا أمير المؤمنين الطويلة التي تشتهي لجسها فهي الغيداء ، وإن منهن البضة البيضاء التي تحب لروعتها ، والسمراء اللعساء والصفراء العجزاء الذهبية من مولدات المدينة والطائف واليامة ، ذوات الألسن العذبة والجواب الحاضر ، تفق بمحادثتها وتلذذ بمخلوتها ، ومنهن المولدات البصريات والكوفيات ، ذوات القدود الممففة والواسط الخصرة والاصداغ المزرقفة والعيون المكحلة والثدي المحققة ، وأين أمير المؤمنين من بنات الاحرار والنظر الى ما عندهن وحسن الحديث منهن ؟ ولو رأيتهن ورأيت حسن زين وزينتهن لرأيت شيئاً حسناً . »

وانخذ خالد يتمطق بلسانه ويحيد وصف الجوارى ويطنب في محاسنهن بحلاوة لفظه وجودة وصفه ، فشوق أبا العباس السفاح إليهن ، ولما فرغ من كلامه قال له أبو العباس : ويحك يا خالد ، ما ملك مسامعي كلام أحسن من هذا ، فأعد علي كلامك فقد وقع مني موقعاً . فأعاد عليه خالد الكلام أحسن مما ابتداء ، ثم استأذنه في الانصراف فانصرف .

وبقي أبو العباس السفاح مفكراً فيما سمع منه مضوماً ،
 فدخلت عليه امرأته أم سلمة ، فلما رآته مطرفاً مفكراً مهموماً
 قالت له : إني أستغرب حالك يا أمير المؤمنين ، فهل حدث أمر
 تكرهه ، أو أذاك خبر فارتعت له ؟ قال : لم يكن من ذلك
 شيء . قالت : فما قصتك ؟ فجعل ينزوي عنها ، ويتقاضي من
 الجواب ، فلم تزل تستخبره حتى أخبرها بمقالة خالد بن صفوان
 التميمي . قالت : فما قلت لابن الفاعلة ؟ فقال السفاح : سبحان
 الله ينصحنني وتشتينه ؟! فخرجت من عنده مغضبة ، وأرسلت
 إلى خالد جماعة من الجند في أيديهم عصي غليظة وأمرتهم أن لا
 يتركوا منه عضواً صحيحاً . وحكى خالد عن نفسه قال :
 انصرفت من مجلس السفاح إلى منزلي ، وأنا مسرور بما رأيته منه
 وإعجابه بما ألقىته إليه ، ولم أشك في أنه سيبعث إليّ بصلته ،
 فلم ألبث طويلاً حتى رأيت جماعة من الجند ، وأنا قاعد على
 باب داري ، ولما رأيتهم قد أقبلوا نحوي أيقنت بالجائزة ، ثم
 وقفوا عليّ فسألوا عني ، فقلت : ها آنذا خالد بن صفوان ،
 فسبق إلي واحد منهم وأهوى إليّ بخشبة ، فوثبت ودخلت
 منزلي وأغلقت على نفسي الباب ، ومكثت أياماً ثلاثة على تلك
 الحال ، لا أخرج من منزلي ، ووقع في نفسي أن أم سلمة هي
 التي سلطت هؤلاء عليّ . وطلبتني أبو العباس السفاح طلباً شديداً ،
 فلم أشعر ذات يوم إلا يقوم قد هجموا عليّ وقالوا لي : أجب
 أمير المؤمنين . فأيقنت بالموت وقلت : إنا لله وإنا إليه راجعون ،
 لم أر دم شيخ أضيع من دمي . فركبت إلى دار السفاح

وليس عليّ لحم ولا دم من الخوف ، فلقبته منفرداً ، ورأيت في المجلس بيتاً عليه ستور رقيقة وسمعت حركة خلف الستور . وقد شعر خالد بن صفوان أن وراء الستور أم سلمة أو من تنقل لها الحديث ، قال خالد : فقال لي أبو العباس لم أرك منذ ثلاث ليالي . فقلت : كنت عيلاً يا أمير المؤمنين . قال : ويحك إنك وصفت لي في آخر دخلة من أمر النساء والجواري ما لم يسلك مسامي قط كلام أحسن منه ، فأعده علي ، قلت : نعم يا أمير المؤمنين أعلمتك أن العرب اشتقت اسم الضرة من الضرر ، وأن أحداً ما تزوج من النساء أكثر من واحدة إلا ضر وتنقص ، فقال : ويحك لم يكن هذا في الحديث ، قلت : بلى والله يا أمير المؤمنين ، وأخبرتكم أن الثلاث من النساء كأنثافي القدر يُغلي عليهن (والاثني المناصب) فقال أبو العباس : برئت من قرابتي من رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، إن كنت سمعت هذا منك في حديثك ، فقلت : وأخبرتكم أن الأربع من النساء شر مجموع لصاحبهن يشينه ويهرمه ويسقمه ، قال : والله ما سمعت هذا الكلام منك ولا من غيرك قبل هذا . قلت : بلى والله . فقال السفاح : ويلك تكذبني ؟ قلت : وتريد أن تقتلني يا أمير المؤمنين . قال : استمر في حديثك . قلت : وأخبرتكم أن أبكار الجواري كالرجال . قال خالد : فسمعت الضحك من وراء الستر . فقلت : نعم وأخبرتكم أن بني مخزوم رياحين قريش ، وأنت عندك ريحانة من الرياحين وأنت تطمع بعينك إلى حرائر النساء وغيرهن من الاماء ، فسمعت من وراء الستر

قائلة تقول : صدقت والله يا عماء وبرت ، بهذا حدثت أمير المؤمنين ولكنه بدّل وغير ونطق عن لسانك ، فقال السفاح : مالك ، قاتلك الله وأخزأك ، وفعل بك وفعل ؟ .. فتركته وخرجت منسلا وقد أيقنت بالحياة . وما شعرت إلا بوسل أم سلمة قد صاروا الي ومعهم عشرة آلاف درهم ونخت ثياب وبرذون .

وولد للسفاح من أم سلمة ابن وبنت هما محمد وريطة ، فالابن سماه بأمم أبيه والبنت سماها بأمم أمه وريطة بنت عبيد الله بن عبد المدان الحارثية ، وقيل رائطة ، وتوفي أبو العباس السفاح في آخر سنة ١٣٦ هـ بدينته عن إحدى وثلاثين سنة ، ودفن قرب الانبار وقد زال قبره وعفا .

وبما يؤثر من أخبارها أن أبا دلامة زند بن الجوف الشاعر الكوفي الاسود دخل عليها بعد وفاة أبي العباس فعزاها به وبكى وبكت معه ثم أنشدها قوله :

من يحمل في الصبر عنك فم يصكن

صبري عليك غداة بنت جحلا

يجدون أبدالاً به وأنا امرؤ

لو مت وجداً ما وجدت بديلا

إني سألت الناس بعدك كلهم

فوجدت أجود من سألت بجحلا

فقلت أم سلمة : لم أر أحداً أصيب به غيري وغيرك يا أبا دلامة . فقال : لست بسواء يرحمك الله ، لك منه ولد وما ولدت أنا منه ، فضحكك ، وقالت له : لو حدثت الشيطان

لاضحكه . ولم تكن منذ مات السفاح ضحكت إلا ذلك الوقت .

وتزوجت أم سلمة بعد السفاح زوجاً رابعاً هو عبدالله ابن عبد الحميد المخزومي ، وصار إليه مال عظيم وأصبح موسراً وكان يجزل عطايا الثمراء ثم إنها اتهمته بجارية لها فاحتجبت عنه ولم تعد إليه حتى مات . أما أم سلمة فاني لم أقف على تاريخ وفاتها ، على أنها كانت طويلة العمر كثيرة الأزواج .

الخيزران زوجة المهدي

وأُم هروم الرشيد

كانت هذه السيدة المستفيضة الاخبار ، المستغربة السيوة ، في اول امرها ، جارية مملوكة من مولدات اليمن . اشتراها محمد المهدي من غناس اي دلال يبيع الممالك . وقيل انها كانت قبل انتقالها الى عصمة الخليفة المهدي لرجل من قبيلة ثقف ، فقالت ذات يوم لمولاها الثقيفي : اني رايت في المنام كبت وكبت ، وكانت قد رأت الشمس والقمر يبرغان من جسدها ، فقال لها **الاست** من جوارى مثلي ، انت تلدين خليفتين ، فقدم بها مكة فباعها في الرقيق أي الممالك ، فاشتريت وعرضت على ابي جعفر المنصور ، فقال لها : من اين أنت ؟ قالت : مولدي مكة ومنشئي بجرش ، وجرش صقع من اصقاع اليمن ، قال : افلك احد ؟ قالت : ما لي احد إلا الله ، وما ولدت أمي غيري . فقال المنصور لاحد غلمانه : اذهب بها إلى المهدي وقل له : انها تصلح للولد . فأتى بها المهدي فوَقَمَت منه كل موقع . والرواية الاولى - اعني كون المهدي مشترياً لها - مؤيدة بما ذكره ابو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي في كتاب «الاذكياء» ، فقد ذكر فيه انه لما عرضت الخيزران على المهدي قال لها : والله

يا جارية انك لعلى غاية المنى ، ولكنك حشة الساقين (يعنى
دقيقة الساقين) فأجابته بجواب دل على ذكاء وفطنة فيها ،
فقال : اشتروها لي فاشتروها ، فحظيت عنده وولدت له موسى
المهدي وهرون الرشيد . وصارت أم خليفتين ، وتادر في التاويخ
ان تكون امرأة أم خليفتين فهي مثل ولادة أم الوليد
وسليمان ابني عبد الملك بن مروان .

ولما تمكنت عند المهدي ورأت ان في ابنها موسى وهرون
ما يعصها من كل تغير منه عليها باحت بالحقيقة وقالت له :
ان لي اهل بيت يجرش في السن ، فقال المهدي : ومن لك
من الاهل ؟ قالت : لي اختان ، اسم احدهما « اسماء » واسم
الآخرى « سلسل » ولي ام وأخوان ، فكتب المهدي باحضار
أهلها فأحضروا ، فتزوج اخوه جعفر بن المنصور « سلسل »
فولدت منه « زبيدة » المشهورة التي تزوجها هرون الرشيد ،
وبقيت اسماء عذراء يوهة حتى تزوجها المهدي بحيلة اختها على
الخيزران ، وذلك أنه لما عزم على هذا الامر قال للخيزران :
قد ولدت لي رجلين وقد بايعت لهما بالخلافة من بعدي ، وما احب
أن تبقي أمة أي مملوكة ، واحب ان اعتقك ثم تخرجين الى
مكة وتقدمين فأزوجك . قالت : الصواب رأيت يا أمير
المؤمنين ، فأعتقها وصارت حرة وخرجت الى مكة ، فانتهر
المهدي هذه الفرصة فتزوج اسماء ومهرها مليون درهم وذهب لها
مليون درهم أخرى ، ولما احسّ بقدم الخيزران من مكة خرج
لاستقبالها ، وكانت الأخبار يزواجه أختها قد بلغتها ، ويثنت منه

لان الشريعة قد حرمت الجمع بين الاختين كما هو معلوم ، فلما
 رآته قالت له : ما خبر اسماء وكم وهبت لها ؟ قال : من أسماء ؟
 قالت : امرأتك . قال : إن كانت أسماء امرأتي فهي طالق .
 فقالت الخيزران : طلقها حين علمت بقدمي . قال : أما إذا
 علمت فقد مهرتها الف الف درهم وهبت لها الف الف درهم ،
 ثم عقد المهدي على الخيزران وتزوجها . وأخبارها كما قلنا مستفيضة ،
 فمن ذلك ما ذكره الواقدي قال : دخلت يوماً على الخليفة
 المهدي فدخل الى دار الحرم ثم خرج متنكراً بملئاً غيضاً ، فلما
 جلس قلت : يا أمير المؤمنين خرجت على خلاف الحال التي
 دخلت عليها ! فقال : نعم ، دخلت على الخيزران ، فوثبت عليّ
 ومدت يدها إليّ ومزقت ثوبي وقالت لي : يا قشاش ، أي
 خير رأيت منك ؟ وأنا اشتريتها من نخاس ورأت مني ما رأت
 وعقدت لابنيها ولاية العهد . ويحك أفأنا قشاش ؟ قال الواقدي :
 فقلت : يا أمير المؤمنين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
 « إن النساء يقلبن الكرام ويغلبن اللثام » وقال : « خيركم
 خيركم لاهله وأنا خيركم لاهلي » وقال : « قد خلقت المرأة من
 ضلع عوجاء إن قومتها كسرناها » وحدثته في هذا الباب بكل
 ما حضرني ، فسكن غضبه وأسفر وجهه وأمر لي بألفي دينار
 وقال : أصلح بهذه من حالك ، فأخذتها وانصرفت ، فلما وصلت
 الى منزلي وأقاني رسول من الخيزران فقال لي : تقرأ عليك ستي
 السلام وتقول لك : يا عم قد سمعت جميع ما كلمت به أمير
 المؤمنين فأحسن الله جزاءك ، وهذه ألفا دينار إلا عشرة

دنانير بعثت بها اليك لاني لم أحب أن أساوي بين صلي وصلة
أمير المؤمنين . ووجهت إليّ بأثواب .

وهذا الخبر يدل على صرامتها وقوة قلبها وغلبتها على
المهدي ، وقد دام سلطانها عليه حتى وفاته سنة ١٦٩ هـ ،
وولاية ابنها موسى الهادي للخلافة ، ثم انها أرادت أن تستبد
بأمور الخلافة في عهد ابنها الهادي ، وتدخلت في كثير من الشؤون ،
فهي أولى سببات البلاط العباسي الثلاثي تحكم في الدولة ،
وزاوا في السياسة والولاية ، وقيل : إن الهادي لما صارت اليه
الخلافة نابذاها وناغرها لأنه رآها تفتت عليه في أمور (اي
تفعل من دون رأيه) ، وتسلك به مسلك أبيه المهدي من قبله
في الاستبداد بالامر والنهي ، فأرسل اليها ذات يوم يقول : لا تخرجي
من خفر الكفاية إلى بذاذة التبذل ، فانه ليس من قدر النساء
الاعتراض في أمر الملك ، وعليك بصلاتك وتسيحك وتبتلك ،
ولك بعد هذا طاعة مثلك فيما يجب لك ، وكانت كثيراً
ما تكلمه في الحوائج ، فكان يجيبها إلى كل ما تسأله قياماً
بحق الامومة وبراً بها ، حتى مضى لذلك أربعة أشهر من خلافته ،
وانثال الناس على بابها وطمعوا فيها ، فكانت المواكب تغدو إلى
حضرتها ، حتى لقد رسم أصحابها أن لا يقف أحد ببابها ركباً
دايته ، كائناً من كان بل يجب عليه النزول ، وكلمت ابنها يوماً
في امر لم يجد إلى اجابتها اليه من سبيل ، فاحتج بحجة ، فقالت
له : لا بد من اجابتي اليها . قال : لا أفعل . قالت : فاني
قد تضمنت هذه الحاجة لعبدالله بن مالك المالكي ، وهو من رجال

الدولة العباسية . فغضب موسى الهادي وقال : ويلى على ابن
 الفاعلة ، قد علمت أنه صاحبها ، والله لا قضيتها لك . قالت :
 إذن والله لا أسألك حاجة أبداً . فقال : إذن والله لا أبالي .
 وحمي وغضب ، فقامت مغضبة . فقال لها : مكانك تستوعي كلامي
 والله وإلا فأنا نفي من قرابتي من رسول الله - ص - لئن بلغني
 أنه وقف ببابك أحد من قوادى أو أحد من خاصتي أو خدعي
 لأضربن عنقه ولاقبضن ماله ، فمن فعل فليلزم ذلك ، ما هذه المواقب
 التي تغدو وتروح الى بابك في كل يوم ؟ أما لك مغزل يشغلك
 أو مصحف يذكرك أو بيت يصونك ، إياك ثم إياك ، ما فتحت
 بابك للشي أو لذمي ، فأنصرفت من عنده ما ترى شيئاً مما في
 طريقها ولم تنطق عنده بحلوة ولا مرة بعدها ، ومالت كل الميل
 الى ابنها هرون الرشيد .

وقيل إنه بعث اليها بلوث من ألوان الطعام وأرسل يقول
 لها : أكلت منه فاستطبت ، فكلي منه ، وكان الطعام مسموماً ،
 فقالت لها جاريتها خالصة : أمسكي حتى تنظري فاني أخاف ان
 يكون فيه شيء تكرهينه ، فجاؤوا بكاب فأكل منه فتساقط
 لحمه ، فأرسل اليها بعد ذلك يقول : كيف رأيت الطعام ؟
 فقالت : وجدته طيباً ، فقال : لم تأكلي منه ولو أكلت لكنت
 قد استرحمت منك ، متى أفلع خليفة له أم ؟

وجمع يوماً القواد الذين يأتون باب الخيزران فقال لهم :
 ايما خير انا أم انتم ؟ قالوا : بل انت يا امير المؤمنين ، قال :
 فأيا خير أمي أم أمهالكم ؟ قالوا : بل أمك يا امير المؤمنين .

قال : فايكم يحب ان تتحدث الرجال بخبر أمه ، فيقولوا : فعلت
أم فلان وصنعت أم فلان؟ قالوا : ما اجد منا يحب ذلك . قال : فما بال
الرجال يأتون أمي فيتحدثون بحديثها ؟ فلما سمعوا ذلك انقطعوا
عنها البتة ، فشق عليها ذلك فاعتزلته وحلفت ألا تكلمه ، فما
دخلت عليه حتى حضرته الوفاة ، ثم انه أراد ان يخرج أخاه
هرون الرشيد من ولاية العهد ويباع لابنته جعفر ، فخافت
الخيزران على هرون منه فدست اليه من جواربها وهو مريض من
قتله بالغم والجلوس على وجهه فاختنق . على انه قد اشتهر في
الانخبار خروج بثرة اي قرحة في جوفه كانت سبباً في موته .
وقبل ان علته بقيت ثلاثة ايام فقتله في شهر ربيع الاول من
سنة « ١٧٠ هـ . وولي الخلافة بعده اخوه هرون الرشيد ، والخيزران
الانخبار وحوادث جرت لها في ذلك العهد ، مذكورة في مظانها .

وقد توفيت الخيزران في خلافة ابنها الرشيد سنة ١٧٣ ، ودفنت
في احدى مقابر الرصافة وهي مقبرة الامام ابي حنيفة ، وكانت
البانوقة بنت المهدي قد دفنت فيها قبل الخيزران ، ثم اشتهرت
المقبرة بمقبرة الخيزران ، واصل بلدة الاعظمية الحالية هي مقبرة
الخيزران المذكورة ، ومن المادة عندنا نحن المسلمين ان تتحول
مقابرنا الى بلدان .

رِبْطَةُ بِنْتِ السَّفَاحِ

وزوجة الخليفة المهدي

هذه السيدة العباسية ، هي رِبْطَةُ بِنْتِ أَبِي الْعَبَّاسِ السَّفَاحِ
زوجة الخليفة المهدي ، أما اسمها « رِبْطَةُ » فهو مأخوذ من
الرِبْطَةِ المنسوجة وهي الملاءة أي التفتوف بهيئة قطعة واحدة ،
لا بلفقين كالزبون والصاية ، وقيل هي كل نسيج من الملابس
وفيق لثين ، فربطه اسم يدل على اللطافة والرفقة والنعومة .
سجلت قد اشتهرت من السيدات العباسيات رِبْطَتَانِ : رِبْطَةُ بِنْتِ السَّفَاحِ
هذه ، ورِبْطَةُ بِنْتِ الْعَبَّاسِ بْنِ عَلِيٍّ زَوْجَةِ الْمُتَوَكِّلِ عَلَى اللَّهِ الْعَبَّاسِيِّ ، وهي
التي أراد المتوكل منها أن تطعم شعرها وتجمعه قصيراً على مودة
الجواري المملوكات في ذلك الزمان ، فأبت وامتنعت أن تغير
شعرها ، فأعلمها أنه يطلقها إن لم تفعل ذلك ، فاختارت
الطلاق فطلقتها .

وأما رِبْطَةُ بِنْتِ السَّفَاحِ فقد توفي والدها السَّفَاحُ سنة ١٣٦ هـ ،
على ما هو معروف ، ولم يكن له غيرها وغير ابن اسمه محمد ،
وكان أيداً شديداً قوياً وولاه عمه أبو جعفر المنصور مدينة
البصرة ، وكانت اخته رِبْطَةُ قوية أيضاً بخلاف اسمها الدال على
اللطافة والرفقة والنعومة . قيل كان محمد بن السَّفَاحِ يلوي العمود

الحديد ، ثم يلقبه إلى أخته ربيعة فتعده وتومه كما كان .
تزوج ربيعة هذه ابن عمها المهدي في خلافة أبيه المنصور ،
وكان ذلك في سنة ١٤٤ وولدت له ولدين ذكرين هما عبيد الله
ابن المهدي وعلي بن المهدي . واخبار هذه السيدة العباسية
قليلة ، وهي قبل زواجها أقل ، فمن الاخبار الطريفة التي لها
شأن فيها ، ان ابا دلامة زنى بن الجون الشاعر الاسود ، كان
على اتصاله بأبي جعفر المنصور كادها لصلوات مستهترا بشرب
الخمر ، فالزمه المنصور القيام بفرائض العبادات في شهر رمضان
خاصة ، فقال له ابو دلامة « البلية في شهر أصلح منها في طول
الدهر » . فكان المهدي بن المنصور يبعث اليه في شهر رمضان
في كل ليلة حرسياً يجيء به للعبادة ، فشق ذلك عليه وفزع الى
الخيزران وكل اصحاب المهدي ليشفعوا له في الاعتناء من القيام
في هذا الشهر المبارك ، فلم يجيبهم المهدي الى طلبهم ، فقال له
ابو عبيد الله معاوية الاشعري الكاتب : الدال على الخير كفاعله
فكيف شكرك ؟ قال : أتم شكر . قال : عليك بريطة
زوجة المهدي فانه لا يخالفها . فقال ابو دلامة : صدقت والله .
ثم رفع اليها رقعة يقول فيها :

أبلغنا ربيعة أنني كنت عبداً لابيها
ففى رحمه الله وأوصى بي اليها
وأراما نسبني مثل نسيان أخيها
جاء شهر الصوم بمشي مشية ما أشبهها
قائداً لي ليلة القدر كأنني ابتغيها

تنطح القبة شهراً جيبتي لا تأتليها
ولقد عشت زمناً في فبافي وجهها
في ليالٍ من شتاء كنت شيخاً اشتبهها
قاعداً أوقدُ ناراً لضبابِ اشتوها
وصبروح وغبوق في غلابِ احتسها
ما أبالي ليلة القدر ولا تسعينها
فاطلمي لي فرجاً منها وأجري لك فيها

فلما قرأت الرقعة ضحكت وارسلت اليه بجواب تقول فيه :
« اصطبر حتى تمضي ليلة القدر » فكتب اليها « اني لم أسألك ان
ان تكلميه في اعفائي عاماً قابلاً ، واذا مضت ليلة القدر فقد فني
الشهر » . وكتب تحت ذلك هذه الايات :

خافي الهك في نفس قد احضرت قامت قيامتها بين المصلين
ما ليلة القدر من همي فاطلها اني اخاف المنايا قبل عشرين
يا ليلة القدر قد كسرت ارجلنا يا ليلة القدر حقاً ما تمينا !
لا بارك الله في خير أو مله في ليلة بعد ما قمنا ثلاثين
فلما قرأت الايات ضحكت ودخلت الى المهدي ، فشفت له
اليه وانشدته الشعرين ، فضحك المهدي حتى استلقى ودعا بابي دلامة
وكانت ربطة معه في حجلة (والحجلة بيت مزين كقبة العروس)
فاخرج المهدي رأسه اليه وقال له : قد شققتنا ربطة فيك وامرنا
لك بسبعة آلاف درهم ، فقال ابو دلامة : اما شفاعة سيدي في
حتى اعفيتني فاعفها الله من النار ، واما السبعة الآلاف فما اعجبني
ما فعلته ، اما ان تسبها بثلاثة آلاف فتصير عشرة آلاف ، واما

ان تنقصني منها الفين فتصير خمسة آلاف ، فاني لا اعلم حساب
السبعة ، فقال المهدي : قد جعلتها خمسة آلاف . قال ابو دلامة :
اعيدك بالله ان تختار ادنى الخالين وانت انت . فعبت به
المهدي . ثم كلمته ربيعة فيه ، فاتتها له عشرة آلاف درهم ، فأحيل
على الخازن واخذها .

ومن اخبار ابي دلامة معها انها وعدته مرة ان تعطيه جارية ،
فمطلته ولم تنجز الوعد ، حتى امتدحها بمدة قصائد ، كل ذلك وهي
لا تقبي له بالوعد ، ثم خرجت من بغداد الى مكة حاجبة ،
فعبت ورجعت ، وكانت لها جارية يقال لها « ام عبيدة » ،
وكانت برزة تخرج وتكلم الرجال وتبلغ رسائل سيدتها ربيعة ،
فقال ابو دلامة لام عبيدة حين عيل صبره ووهن احتماله :

ابلغي سيدتي ان سئلت يا ام عبيدة
انها لو شئها الله وان كانت رشيدة
وعدتني قبل ان تخرج للبعج وليده
فتنظرت وارسلت بعشرين قصيدة
كلما تخلق اولى بدلت اخرى جديدة
انني شيخ كبير ليس في بيتي فعيده
غير مثل الغول عندي ذات اوصال مديده
وجهبها اسمع من حوت طري في عصيده
ذات رجل ويد ككاهما مثل القديده

فدخلت ام عبيدة على السيدة ربيعة فانشدتها الشعر ، فأمرت له بجارية
ومائتي دينار للنفقة عليها . وفي الحرّم من سنة ١٦٩ هـ توفي الخليفة المهدي

وولي الخلافة ابنه موسى الهادي ، وكانت الزندقة مستفحلة في عهد
 ابيه وعهده ، وكلاهما جد في طلب الزنادقة وقتلهم ، وكان من
 مشاهير الزنادقة يعقوب بن الفضل بن عبد الرحمن بن عباس بن ربيعة
 ابن الحارث بن عبد المطلب الهاشمي ، وكان المهدي قد علم بزندقته
 واراد قتله ، فعال بينه وبين ذلك انه كان قد جعل على نفسه
 لله عهداً ألا يقتل هاشمياً ان ولي الخلافة ، واوصى ابنه موسى
 الهادي بقتله في اول خلافته ان ولي الخلافة ، فلما تولاهما امر ان
 يختق يعقوب بين الفرس فخلق ، وكان ليعقوب الزنديق هذا
 امرأة غير هاشمية اسمها خديجة ، وكانت زنديقة كزوجها ، وكان
 له من الاناث ابنتان احدهما تسمى فاطمة ، فرجدت حبلى من
 ابيها ، فارسل الهادي بها وبخديجة الى السيدة ربيعة لتعلم حقيقة
 الحال ونخبوه بها فرأتها مكتحلتين مختصنين ، فلامنهما ربيعة
 وانبتهما ووجنتهما افبح التوبيخ على تزندقهما ، واكثر اللوم على
 فاطمة في كونها حبلى من ابيها ، وذهابها مذهب الاباحة ، فقالت
 فاطمة : اكرهني ابي وارتكب مني ما ارتكب . فقالت لها
 ربيعة : فما هذا الخضب والكحل والسرور ان كنت مكرهة ؟
 لعنك الله ، ثم امر بها وبخديجة فضربتا على رؤوسهما بشيء يقال
 له الرعوب ، حتى هلكتا من الالم والفرع .

وقد جاء في اخبار السيدة ربيعة ان ابا دلامة الشاعر الاسود
 الذي ذكرناه قبل هذا ، انشدها ابياتاً عند وفاة ابيها السفاح ،
 الا ان المحققين رفضوا ذلك ، وذكروا انه انشدها ام سلمة بنت
 يعقوب بن سلمة وقد ذكرناها .

وادركت السيدة ربيعة عدة شهور من خلافة الرشيد وماتت
ببغداد ، وقيل إنها توفيت في اواخر ايام موسى الهادي سنة
١٢٠ ، والفرق بين القولين قليل لا يتجاوز عدة اشهر ، واذ
كانت ولادتها مجهولة التاريخ ، لم نستطع معرفة عمرها ، الا اننا
ذكرنا انها تزوجت سنة ١٤٤ ، فان قدرنا انها تزوجت وعمرها
« ١٦ » ، سنة كان عمرها اربعين سنة ، وذلك يعني انها ماتت قبل
ان تحلح ثوب الشباب ، ونظن انها دفنت في مقابر قريش اي
الكاظمية الحالية لانها كانت قرشية عباسية .

عليّة بنت المهدي

واخت هرون الرشيد

هذه السيدة خالدة الاعم مع صاحبات الفنون الاربعة في العالم ، بل هي اشهر العباسيات من بيت الخلافة في تاريخ الفنون . على أن كونها بنت خليفة واخت خليفين وزوجة امير ، لم يكن يضمن لها اشتهار السيرة ، ولا كرامة الاخبار ، ولا براعة الآثار ، لولا الشعر والغناء ولا سيما الغناء ، فانها بلغت فيه المحل الاسمي من الاجادة والاتقان . وما ادراك ما الغناء ؟ قلها تجد روحاً مستغنية عنه ، حتى الصوفية واهل التكيا والزوايا ، لا يستغنون عنه ابداً ، وليس من السهل ان يكون الانسان بارعاً فيه . كانت ام عليّة بجارية مفضلة اسمها مكنونة ، والمكنونة صفة للذرة العظيمة ، واللؤلؤة الوسيمة ، وكانت في اول امرها بملوكة لزوجة احد بني العباس بالمدينة المنورة ، معروفة بالجمال والوسامة ، فاستراها المهدي ابن ابي جعفر المنصور في حياة ابيه بمائة الف درهم ، وهي زهاء عشرة آلاف دينار وستر امرها عن ابيه المنصور حتى مات وصار هو خليفة بعده ، وكانت عنده الخيزران ام الهادي والرشيد والباقر ، فاستولت عليه واستأثرت به حتى كانت الخيزران تقول : ما ملك المهدي امرأة اعظم عليّ من مكنونة .

وفي سنة ١٦٠ هـ ، ولدت المكنونة المهدي طفلة ، فسميت
 'عليه' (تصغير عليه) ونشأت في بيت الخلافة العباسية ببغداد ،
 وهذبت وادبت ، وصارت تقول الشعر الجيد ، وتضع اصوات
 الغناء البارعة ، قل اسماعيل بن ابراهيم الكاتب ورواه عنه
 ابو الفرج الاصفهاني وكانت عليه حسنة الدين وكانت لا تغني ولا
 تشرب النبيذ الا اذا كانت معتزلة للصلاة - يعني الاعتزال الشرعي -
 قال : فاذا طهرت اقبلت على الصلاة والقرآن وقراءة الكتب ،
 فلا تلبس بشيء غير قول الشعر في الاحيان ، الا ان يدعوها
 الخليفة الى شيء - يعني الغناء - فلا تقدر على خلافه ، وكانت
 تقول : ما حرم الله شيئاً الا وقد جعل فيما حلل منه عوضاً ،
 فبأي شيء يخرج عاصيه والمنتكح لحرمة الله ؟ وكانت تقول : لا غفر
 الله لي فاحشة اوتكبتها قط ، ولا اقول في شعري الا عبثاً ،
 ولما مات ابوها المهدي انقطع اليها ابو حفص عمر بن عبد العزيز
 الشطرنجي الشاعر مولاهم .

وقد ذكروا انها كانت من احسن الناس واطرفهم ، ولكن
 جينها كان واسعاً سعة تذهب جمالي وجهها ، فاتخذت عصابة
 مكللة بالجوهر لتستر بها جينها ، وبذلك احدثت سبباً اي مودة ،
 من احسن المودات التي ابتدعتها النساء (لوؤوسهن) والغالب في
 مودة النساء ان يكون المرادها ستر عيب من عيوب ابدانهم ،
 ثم يغلب التقليد على سائر النساء ، فمنهن من يضعن شيئاً من
 جمالهن باتباع السبب الجديد اي المودة الجديدة ، فيعسر من
 حيث يأملن الانتفاع ، ويسجن من حيث يتوخين الوسامة

والجمال .

ولقد ذكرت في كلامي على سيرة العباسية بنت المهدي ان المهدي كان من الخلفاء الذين حرروا المرأة من الحصر والقصر ، وان ابنته البانوقة كانت تير راصكة بين يديه سافراً على هيئة الجند . وانما قد مال الى التحرير النسوي بسبب ما رآه بين امه ام موسى بنت منصور الحميرية وابيه ابي جعفر المنصور ، فان امه اشترطت على ابيه ان لا يتزوج عليها ولا يتخذ سرية ، وكتبت عليه بذلك كتاباً اكدته واشهدت عليه الشهود والثقات المعذلين . فبقي عشر سنوات من خلافته يكتب الى الفقهاء من اهل الحجاز واهل العراق ، يستفتيهم في الزواج عليها وابتياح الجواني السراري . وكانت ام موسى اذا علمت مكان الفقيه بادرت وارسلت اليه بما لا يقني المنصور بما يريد . ولم يستطع المنصور ان يخل بشرائطها طول حياتها . ثم ان في التاريخ ما يدل على ان المرأة الفسطانية كالحميرية المذكورة وغيرها اكثر حرية واستقلالاً من المرأة العدنانية ، سواء ذلك في الجاهلية والاسلام . فلا عجب اذن في نشأة علية وغيرها من النساء المتحررات في بيت الخليفة المهدي ، وبما اغرم علية بالغناء اقبال اخيها لايها ابراهيم بن المهدي على هذا الفن الجليل وصيرورته رأساً فيه واستاذاً ، حتى قال الناس : ما اجتمع في العصور الاسلامية قط اخ واخت ، احسن غناءً من ابراهيم بن المهدي واخته علية ، ولكنها سبقته في ذلك ، فكانت اذا غنت تكاد تحرك الحجر وتطير الوقور ، وتستخف ارباب العقول الراجعة ، وتقتل النفوس المغرمة طرباً .

ولقد كان الناس في عصرها يقولون ايضاً : لم ير في جاهلية
ولا اسلام احسن غناءً منها ومن اخيها ابراهيم .

ولكنها لم يكن يسعها الا اهلها ، وكانت قد تزوجها الامير موسى
بن عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبدالله بن العباس بن
عبد المطلب ، وحببت بيت الله الحرام في ايام خلافة اخيها
الرشيد ، وخرجت معه نحو الري مرة ، فلما بلغت بلدة المرج
بين خاتين وهمدان عملت بيتين وصاغت فيها لحناً من مقام الرمل
وغنت بهما وهما :

ومفترب بالمرج يبكي لشجوه وقد غاب عنه المسعدون على الخب
اذا ما اتاه الركب من نحو ارضه تنشق يستنفي بوائحة الركب
فلما سمع الرشيد الصوت علم انها قد اشتاقت الى العراق واهلها
فيه ، فردها الى بغداد ، وكان الرشيد يصطاف ببلدة الرقة من
الجزيرة القرائية فاشتاقت الى اخيه عليه مرة فكتب الى خال ايها
يزيد بن منصور الخيري في اخراجها اليه فذهب بها الى الرقة
فقال في طريقها :

اشرب وغن على صوت النواخير ما كنت اعرقها لولا ابن منصور
لولا الرجاء لمن اتمت رؤيته ما جزت بغداد في خوف وتغريب
وعملت فيها لحناً في مقام الثقيل الاول - كما كانوا يقولون في
ذلك الزمان .

وزارها اخوها الرشيد ذات يوم فقال لها : بالله يا اختي غني .
فقال : وجباتك لا عملن فيك شعراً ولا صنعن فيه لحناً ، فقالت من رقتها :
تفديك اخنك قد حبوت بنعمة لسا نعد لها الزمان عديلا .

الا اخلود وذاك قربك سيدي لا زال قربك والبقاء طويلا
 وحدث ربي في اجابة دعوتي فرأيت حمدي عند ذاك قليلا
 وصنعت فيه لحناً من رقتها في مقام خفيف الرمل ، فطرب
 الرشيد عليه . ولها اخبار حسان مع اخوتها ابراهيم وهرودت
 ويعقوب بني المهدي ، وابني اخيها الامين والمأمون . وذكر لها
 مؤرخو الفناء العربي اثنين وسبعين صوتاً ، وذكروا ايضاً انها
 كانت تحب المراسلة بالشعر ، فهي ان لم تكن اول من ابتدع
 هذا الفن من المراسلة ، فهي من اوليات متبعاته . والمراسلة
 بالشعر فن من فنون الادب العربي ، يجب ان يدوس مستقلاً .
 وقالوا : انها كانت مملوكاً لاختها الرشيد اسمه طلي - على نحو
 ما يفعل السادة المتواضعون مع عبيدهم - فمنعها الرشيد من ذلك
 خشية قالة السوء ، لان الناس يسيئون الظنون ويجعلون الارجيف
 كالذي رآته العيون ، ولقد نجلها الرواة شعراً لغيرها ، لانها
 لحنته وغنت به ، ولان منهم من يريد تقبيح اخبارها ، والانتقام
 من اهلها ، قالوا : انها نظمت شعراً في المملوك طلي وغنت فيه
 وصحفت اسمه الى « الظل » وفي رواية انها قالت شعراً في
 مملوكها رشاً وكنيت عنه بزينب وريب ، الى غير ذلك مما هو سهل
 التلفيق صعب التحقيق . على ان العدو اذا اراد مقالاً في عدوه
 وجد له مجالاً ، وفي عليـة واخيها ابراهيم قال ابو فراس الحمداني
 مترباً على بني العباس ومعرباً وجيباً لابن سحكرة العباسي في
 اغتنافه على بني علي :

منهم عليـة ام منكم وهل لكم شيخ المقتنين ابراهيم اولهم ؟

إذا تلو آية غنى امامكم « وقف بالديار التي لم يعفها قدم »
وهذا باب واسع لا ينتهي الداخل فيه الى غاية ولا يصل
الى نهاية ، فلا تقاس الاسر بالافراد ، ولا يصح الفخار بالاختيار ،
ولم يسلم قبيل من المثالب والمعائب ، الا ان القول الصحيح مع
مرور الزمان هو قول ابن حازم الباهلي :

ومن دعا الناس الى ذمه ذموه يالحق وبالباطل
وكانت عليه تستر من الاجانب ، ولا تكلمهم الا من وراء
حجاب ، فقد ذكر اسحاق بن ابراهيم الموصلي الاديب المنفي انه عمل
في ايام هرون الرشيد لحناً في هذين البيتين :

سقياً لأرض اذا ما نلت نبيني بعد المدوء بها قرع النواقيس
كان سوسنها في كل شارقة على الميسادين اذئاب الطواويس
وعزم على ان يباكر به الرشيد ، قال اسحاق : فلقيني في
طريقي خادم لعلية بنت المهدي فقال : مولاتي تأمرك بدخول الدهليز
اي الجاز ، لتسمع من بعض جواريا غناء كانت لخذته عن ابيك
ويشكت فيه الآن ، قال اسحاق ، فدخلت مع الخادم الى حجرة
قد افردت لي كأنها معدة لذلك ، فجلست فيها ، وقدم لي طعام
وشراب فلت حاجتي منهما ، ثم خرج الي خادم فقل : تقول
لك مولاتي : انا اعلم انك قد غدوت الى امير المؤمنين بصوت قد
اعدته له يحدث ، فاسمنيه ولك منى جائزة تعجلها ، فلمعل
امير المؤمنين لا يأمر لك بشيء او لا يقع الصوت منه بحيث
توخيت ، فيذهب سعيك باطلاً ، قال اسحاق : فاندفعت ففتبتها
الصوت ولم تزل تستعيده مراراً ، ثم اخبرجت الي عشرين الف

درهم وعشرين توباً ، وقالت : هذه جائزتك ، ثم قالت : اسمع الصوت مني الآن فغنته غناءً ما دخل سمعي مثله .

وان الانسان العاقل ليستغرب أول وهلة ولع هذه السيدة العباسية بالغناء ، ويراها مخلاً بمقامها الهاشمي العباسي ، وحاطاً من منزلتها ، من حيث كونها بنت خليفة وأخت خليفة ، ولكن الأمر لم يكن كما نظن من السهولة وخرق الناموس ، لأن الحرية وحب الفن كانا قد بلغا في ذلكم العصر أعلى درجاتهما ولا يعرف حب الفن التمييز بين الرفيع والوضيع ، ولا يختلف فيه الغني والفقير ، ولا يتضاد فيه الملك والسوقة ، ولقد تزيد الاخباريون في أخبار عليّة حتى المشهورون منهم كالاديب الكبير أبي الفرج الاصفهاني ، فقد ذكر في كتابه الاغاني وهو مفخرة الأدب العربي ، في موضع منه أن عليّة غنت ابن أخيهما الخليفة عبد الله المأمون في دار حرمة وأهله أحياناً أولاً :

ما لي أرى الأبصار بي جافية لم تلتفت مني الى ناحيته ؟
وقال : ان الشعر والغناء لعبة بنت المهدي ، ثم ذكر ذلك في موضع آخر من كتابه وقال : الشعر لأبي العتاهية وذكر ابن المعتز أنه لعبة وذكر في موضع ثالث أن الشعر الذي غنت به أوله :

ليس خطب الهوى بخطب يسير ليس ينبيك عنه مثل خبير
وروى أحد البرامكة وهم اعداء بني العباس ان جعفر يحيى البومكي
خضر مع الرشيد مجلساً من مجالسه وسمع عليّة تغني من وراء ستار
وذعم ان جعفر قال : فطربت والله طرباً همت معه ان انطح برأسي

الحافظ ، ثم رأى الرشيد يرقص فرقص معه ، وهذا الراوي هو محمد بن الوزير جعفر البرمكي ، ولا اعتماد عليه في مثل هذه الاخبار لانه كان منوذاً ، وقد وتوه الرشيد بقتل ابيه جعفر البرمكي ، ولو كان جعفر استاذاً في الغناء لجاز لنا التصديق بالخبر ، اذ لا غضاضة في ان يسمع صوتها صاحب فن مثلها ليصلح غناها ، كما يسمع الاستاذ تلميذه ، ليعرف موطن الضعف فيه فيتلافى امره .

ولما توفي اخوها الرشيد وكان ذلك سنة ١٩٣ هـ جرعت جرعة شديداً وترك الغناء ، فلم يزل بها محمد الأمين حتى عادت اليه كالجبرة المكرهة وغنته بأبيات نظمها في مدحه وهي آخر شعر لها قالت فيها :

أطلت عاذلتي لومي وتغنيدي وأنت جاهلة شوقي وتسيدي
لا تشرب الراح بين المسعات وزر ظيماً غريراً نقي الخد والجيد
قد رنحته شمول فهو منجدل يحكي بوجنته ماء العناقيد
قام الأمين فأغنى الناس كلهم فما فقير على حال بموجود
وقد جاء في اخبارها ما يدل على خفة روحها ولطف فكاهتها وجمال نكتتها ، فقد ذكر اخوها ورسيلها ومطارحها في الغناء ابراهيم بن المهدي انها اخجلته ذات يوم إهجالاً نادرة ، وذلك انها كانت مريضة فدخل عليها عائداً لها فقال لها : كيف انت يا اخوتي جعلت فداءك وكيف حالك وجسك ؟ فقالت له : بخير والحمد لله ، وكانت الى جانبها جارية من جوارحها واقفة تطرد عنها الذباب ، فاستعلاها ابراهيم وظل ينظر اليها وطال

جلوسه عند اخيه ، ثم احس ان اخته رأتها ينظر الى الجارية ،
 فاستحيا واقبل على اخته فقال مرة ثانية : وكيف انت يا لثقي
 جعلت فداءك وكيف حالك وجسمك ؟ فرفعت عليه رأسها الى
 امرأة حاضنة فما كانت حاضرة وقالت : أليس هذا قد مضى مرة
 وأجبتا عنه ؟ فقام ابراهيم خجلاً وانصرف ، وكيف لا يحجل من
 مثل هذا الكلام الدال على البراعة في التنكيت والتبكيت ؟
 أما شعر عليه وقد ذكرنا منه قبل هذا ، فكان من الشعر الجيد الصادق
 ولو قالت عن نفسها : ولا اقول في شعري الا عبثاً ، ففي هذا العبث
 الذي لم يدخله خوف ولا رجاء ولا استعطاء ولا تملق ولا فخر ، أحسن
 معاني القريض وانقى اهواء النفس الشاعرة واصح نزاعاتها ، ولقد روى
 شعرها جماعة من كبار ادباء العرب قال : ابو علي اسماعيل بن القاسم
 القالي البغدادي : انشدنا ابو بكر بن الأنباري قال انشدنا ابراهيم بن
 عبد الله لعلبة بنت المهدي :

تجيب فان الحب داعية الحب
 وكم من بعيد وهو مستوجب القرب
 تقهر فان حدث ان اخا هوى
 نجى سالماً فارج النجاة من الحب
 فأحسن ايام الفوى يومك الذي
 تروّع بالتحريش منه وبالغيب
 إذالم يكن في الحب سخط ولا رضى
 فأين حلوات الوسائل والكتب ؟
 وهذا شعر محبة مجرّبة بجرّبة ، ما نجت من بأس الحب فنصحت للناس

بأن لا يكابدوه ، ولا يقاربوا أسبابه ان لم يتحملوا عذابه ، وعلى
هذا المعنى جرى عمر بن الفارض الصوفي في قوله :

هو الحب فاسلم بالحشام ما اهوى سهل
فما اختاره مضى به وله عقل
وعش خالياً فالحب واحته عناً
واوله سقم وآخره قتل

ومن شعرها المعنى به :

نام عذائي ولم أنم واشقى الواشون من سقي
واذا ما قلت بي ألم شك من اهواه في ألمي
ومنه قولها :

يا ربة المنزل بالبرك وربة السلطان والملك
مخرجي بالله من قتلنا لنا من الديلم والترك
ومنه قولها :

يا واحد الحب مالي منك اذ كلفت
نفسى بـجـبك الا الهم والحزن
لم ينسنيك سرور لا ولا حزن
وكيف لا ، كيف ينسى وجهك الحسن
ولا خلا منك قلبي ولا جدي
كلبي بكلك مشغول وسرتمن
نور تولد من شمس ومن قمر
حتى تكامل منه الروح والبدن

وقولها :

بني الحب على الجود فلو أنصف المعشوق فيه لـ
ليس يستحسن في حكم الهوى عاشق يحسن تأليف الطبع
لا تعيبن من محب ذلة ذلة العاشق مفتاح الفرج
وقليل الحب صرفاً خالصاً لك خير من كثير قد مزج
وقالت مرة للرشد وقد طلب أختها ولم يطبها في أمر من
أموره :

مالي نُسيت وقد نودي بأصحابي

و كنت والذكر عندي راضع غادي ؟

أنا التي لا تطيق الدهر فرقتكم

فرقاً لي يا أخي من طول ابعاد

وغنت فيه لحناً من الثقيل الاول - كما كانوا يقولون -

وبعثت الى الرشيد من غناء بحضرة فرق لها وأحضرها ، وهذا
يدل على تقاطع وتهاجر حدث بينها وبين أخيها .

وكان لها وكيل يقال له سباع خان في وكالته واحتجج مالا

فوقفت على خيائه فضربه وحبسته ، وكان يظهر العفة ويتصدق

رثاء الناس ، ثم اجتمع جيرانه اليها وكتبوا رقعة يتشفعون له اليها

ويذكرون حسن سيرته وكثرة صدقته ، فوقعت فيها هذه الأبيات :

ألا أيذا الراكب العيس بلفن سباعاً وقل إن ضم ركبكم السفر

أتسبني مالي وانت جاء سائل رقت له إن حظه نحوك الفقر ؟

كشافية المرضى بمائدة الزنا تؤمل أجراً حيث ليس لها أجر

وقالت في لبابة وهي ابنة أخيها علي بن المهدي :

وحدثني عن مجلس كنت زينه رسول أمين والنساء شهود
 فقلت له كره الحديث الذي مضى وذكرك من ذاك الحديث أريد
 وقد رأت علياً خمسة خلفاء من أهلها ، هم أبوها محمد المهدي
 وأخواها موسى المهدي وهارون الرشيد ، وابننا أخيها محمد الأمين
 وعبد الله المأمون ، وتوفيت ببغداد في خلافة المأمون سنة عشر
 ومائتين للهجرة لها خمسون سنة ، وكان سبب وفاتها أن المأمون
 ضمها إليه وجعل يقبل رأسها ، كما يفعل أبناء الأخ بعمانهم ، وكان
 وجهها مغطى فشرقت من ذلك وسعلت ، ثم أصابها الحمى بعقب
 هذا أياماً قبيحة وماتت ، وانطقات بانطفاء حياتها شعلة فنية أدبية ،
 لا يدرك بهاها إلا أرباب الفنون الرفيعة وأولو الأذواق الفنية ،
 ولكنها تركت من الآثار والأخبار ما جعلها في مراتب الفنانين
 العالمين ، من جهة ، وصورها كبرى الفتيات العربيات من جهة
 أخرى ، فلقد نحت كتب للفنون من ذكر العباسيات إلا ذكرها ،
 وفي ذلكم فضل راهن لا يستطيع جعده الجاحدون وأحدوثة
 جميلة لا يقدر على نسيانها المذاكرون لأرباب الفنون .

العباسة بنت المهدي

هي العباسة بنت الخليفة المهدي ، أخت هرون الرشيد ، وسيرتها عمدة من عقد التاريخ الاسلامي ، ومشكلة من مشكلات الأخبار ، وعجيبة من عجائب السير ، فقد جعل القدر اسمها دويقة لأسماء العباسيات .

نشأت العباسة في بيت الخلافة ، وكانت أمها جارية من الجواري ، وكان لها من الأخوات البانوقة وسليمة وعليه ، ومن المؤرخين من سمى عليه بالعالية ، خطب العباسة إلى أبيها الخليفة المهدي ، عظيم من عظماء بني العباس ، هو محمد بن سليمان بن علي ابن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب ، وأبي البصرة يومئذ ، فزوجه إياها ، وحملت إليه إلى البصرة ، وإذ كانت ولاية المهدي للخلافة سنة ١٥٨ هـ ، علم أن انتقال العباسة إلى البصرة كان بعد هذه السنة ، أما زوجها فقد كان ولاء أبو جعفر المنصور البصرة ، ولما ثار فيها إبراهيم بن عبد الله العاوي الحسني وكان ذلك سنة ١٤٥ ، خرج عنها محمد بن سليمان العباسي هو وأخوه جعفر بن سليمان ، فولاه المنصور الكوفة ، ثم قلده المهدي البصرة سنة ١٥٩ وزوجه بابنته العباسة — كما ذكرنا آنفاً ، وأضاف إليه الأهواز والبحرين وعمان والسند واليامة ، وأبث في هذه الولاية بعد

خلافة المهدي أيام خلافة الهادي ، وأدرك خلافة هرون الرشيد ، وكان يتولى أمور الحج احبائاً إلى ولايته الاصلية ، وهو الذي تولى حرب الحسين بن علي بن الحسن العلوي الحسيني بفخ على فرسخ من مكة ، فقتله وفض جمعه سنة ١٦٩ في خلافة موسى الهادي ابن المهدي .

وكان محمد بن سليمان هذا بالبصرة خسوف ألف مولى من خول وغيرهم ، وتوفي بالبصرة سنة ١٧٣ في خلافة هرون الرشيد ، فاستولى هرون على ثروته العظيمة ومنها ستون مليون درهم ، وعلى ضياعه في البصرة وغيرها ، وكان لزوجه العباسية بالبصرة قطعة أي مقاطعة جعلها لها أبوها المهدي . ذكرها البلاذري في فتوح البلدان ، ثم زوج هرون الرشيد أخته العباسية بإبراهيم بن صالح بن علي العباسي ، وهو ابن عم زوجها الاول وذو القرابة القريبة من الرشيد ، وعلى كون العباسية قد تزوجت زوجين من بني العباس ودخلت في عصمتها الواحد بعد الآخر ، أذيعت عليها في التواريخ قصة باطلة باردة هي قصة انصافها بجعفر بن يحيى الفارسي البرمكي ، بعد عقد شرعي مزعوم عقده لها أخوها هارون الرشيد ، على شرط عدم الاجتماع ، ولكن الاجتماع حصل من دون علم الرشيد وعلى غير اختيار من الوزير ، وهذه القصة الباردة رواها أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في تاريخه عن أحمد بن زهير بن حرب النسائي ، عن زهير بن حرب ، ونقلها بعده كثير من المؤرخين ، ولكن المرجع واحد أو اثنان .

وصورة القصة أن هارون الرشيد كان لا يصبر عن جعفر

البرمكي وعن اخته العباسية وكان يحضرهما إذا جلس للشراب ،
 فقال جعفر : أزواجك أختي العباسية ليحل لك النظر اليها إذا
 أحضرتها مجلسي . وأمره أن لا يمسا . فزوجها منه على ذلك
 الشرط فكانت يحضرهما مجلسه إذا عاقر الخمر ثم يقوم عن مجلسه
 ويخليها فيسكران من الشراب وهما شابان ، حتى آل الأمر الى
 ان حملت العباسية من جعفر البرمكي فولدت غلاماً ، فخافت على
 نفسها من اخيها الرشيد ، فبعثت بالمولود الى مكة ولم يزل الأمر
 مستوراً عن هرون ، حتى وقع خلف بين العباسية واحدى
 جوارها ، فأعلنت بأمرها وأمر الصبي هرون الرشيد وأخبرته بمكانه ،
 فلما حج هرون حجة سنة ١٨٦ هـ أرسل الى موضع الصبي في مكة
 من أتاه به ، وسأل المتولية لتربيته فأعلنت حقيقة الأمر وصح
 عنده قول الجارية ، فأراد قتل الصبي ولصكته تركه خوفاً من
 الانم ، وفي عودته من مكة قتل جعفر البرمكي ونكب البرامكة
 وأودعهم السجون الا واحداً منهم ، واستصفى أموالهم وضياعهم .
 واثرا الاختلاق والتوليد ظاهر على هذه الحكاية ، لانها وضعت
 للانتقام من هرون الرشيد ، بما فعل بالبرامكة من قتل جعفر
 وحبس الآخرين وازالة سلطانهم ، والا فقد ذكرنا ان العباسية
 تزوجت زوجين وكانت تسكن البصرة في زواجها الاول ، ثم انها
 هاشمية عباسية ولم يكن هذا الفارسي كموأ لها ولا بعض كفء ،
 ولا عرف شيء مثل هذا في التاريخ ، وكيف يصح وقوع هذا
 من الرشيد وهو الذي يقول ، سألت ابي قلت له : من اكفاؤنا ؟
 فقال : اكفاؤنا اعداؤنا . يعني بني امية ، فلم يكن يجوز للهاشمية

انت فتزوج الا هاشمياً او اموياً ، وفقد تصرف المؤرخون
 والاختاريون هذه القصة وزينوها وحسنوها وزوروا فساد حواشي
 وذبولاً ، ومنهم من فطن الى ان العباسية كانت متزوجة فقال انها
 « فاختة بنت المهدي » ، كما جاء في كتاب الامامة والسياسة ،
 ومنهم من قال : انها ميمونة ، كما في اعلام الناس ، وهو
 اضعف الكتب اخباراً ، وفريق جعل للعباسية من جعفر حياً
 واحداً ، وفريق جعل لها ثلاثة حية ، مات أحدهم صغيراً ، ومن
 اعجب ما نشأ عن هذه القصة الباطلة التي أريد بها الانتصار
 للبرامية ، وكونهم قتلوا ظلماً ونكبوا عدواناً ، ان آل مرا
 من قبيلة طي ، كانوا في القرن السابع للهجرة يدعون انهم من
 ذرية جعفر البرمكي من نسل ابن جعفر الذي ولدته العباسية ،
 وقال النسابة بدر الدين ابو المحاسن يوسف الخدافي ، بعد ذكره ان
 ربيعة الطائين كانوا في زمانه ملوك البر ما بين الشام والعراق
 والحباز قال : ويقال ربيعة الآن انه من ولد جعفر بن يحيى بن
 خالد البرمكي ، وهذا ليس بصحيح . ثم قال : « وزعموا انهم من
 ولد جعفر من اخت الرشيد ، التي عقد له عليها - كما قالوا -
 لتخرج عليه ، فحبلت منه بفلان ، كان ربيعة طيء من بني ،
 وهذا الخبر ليس بصحيح ، وان كان صحيحاً فقد دفنت المرأة
 وولدها - كما قيل في تمام الحكاية - ولم يعلم فلان اثره ، وذكر
 ابن فضل الله العمري هذه الدعوى وعابها على آل مرا لتركهم
 نسبهم العربي .

على ان أهل الانساب ذكروا ان هؤلاء الطائين الذين ادعوا

أنهم من نسل جعفر البرمكي ، جاءت منهم جماعة الى الخلعة في
 اواخر عهد الایلخانيين بالعراق اي اوائل القرن الثامن للهجرة ،
 مع أمير طيء سليمان بن عيسى من آل مهنا ، وقد جعل الخول
 اميراً على الخلعة ، فقالوا « نحن من بني جعفر بن ابي طالب الطيار
 وعدتنا نحو من اربعة آلاف فارس نحفظ انسابنا وننزوج في قبيلة
 طيء ، ولكن اكثرهم كانوا يجهلون انسابهم ويكفون بانهم من
 نسل جعفر الطيار .

وأول من نبه على كذب قصة العباسة القاضي عبد الرحمن بن
 خلدون ، فقد عقد في مقدمة تاريخه العظيمة حق العظمة ، فضلاً
 في « فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه » ، والاماع لما يعرض
 للمؤرخين من المغالط والأوهام ، وذكر شيء من أسانها « قال
 فيه : ومن الحكايات المدخولة للمؤرخين ما ينقلونه كافة في سبب
 نكبة الرشيد للبرامكة ، من قصة العباسة أخته مع جعفر بن يحيى
 البرمكي ، وانه لكافه بكتانها من معاقرة اياها آخر ، ادن لها في
 عقد النكاح دون الخلوة حرصاً على اجتماعها في مجلسه ، وان
 العباسة تحملت على جعفر في التماس الخلوة به لما شغفها من حبه ،
 الى ان قال : « فحملت ووشى بذلك للرشيد فاستغضب ، وهيبات
 من منصب العباسة في دينها وابويها وجلالها ... » حتى قال :
 « قريبة عهد ببداوة العروية وسذاجة المذير ، بعيدة عن عوائد
 الترف ومراتع الفواحش ، فان يطلب الصون والعفاف اذا ذهب
 عنها ، او ان توجد الطهارة والزكاء اذا فقدت من بيتها ، وكيف
 تلجم نسبها بجعفر بن يحيى وتدنس شرفها بولي من موالي المعجم ؟

ثم قال : « وكيف يسوغ من الرشيد ان يصبر الى موالي الاعاجم ، على بعد همة وعظم آباءه » الى آخر قوله في الاستبعاد والاستغراب . واستبعاد ابن خلدون لحادث العباسية لا يكفي في الدلالة على نفيه ودفعه ، وكان عليه ان يذكر من سيرتها كزواجها مرتين وسكنائها البصرة مدة ما يؤيد دليله العقلي ليقترن دليل النقل ودليل العقل ، ثم ان اشارته الى مراتع الفواحش وخباع الصون والعفاف ، خارجة عما هو بسبيله ، ومباينة لموضوعه ، فان المؤرخين لم يدكروا ان العباسية زنت ولا تركت الصون والعفة ، وانما ذكروا ان عقدها كان مشروطاً بعدم الاجتماع ، وهو امر لا يثبت في الشرع ، بل فنقضه الآداب ، وخصوصاً في مذهب الرشيد ، فقد كان من مذهبه ان العقد اذا دخله شرط فهو صحيح والشرط لغو ، ولذلك لم يطعن المؤرخون على جعفر من حيث المخالفة للشرع ، ولم يجدوا سبيلاً عليه ، فابن خلدون لم يحسن الدفاع ووقع فيما عابه على المؤرخين .

ومن الحقائق التاريخية ان المهدي بن ابي جعفر المنصور كان من الخلفاء الذين حرروا المرأة من الحصر والقصر ، وتلكم الحرية هي التي جعلت عليقة بنت المهدي على الحال المعروفة ، وستحدث بهم اخبارها في حديث قابل ، وقد ذكر المؤرخون عن احد المعاصرين للمهدي العباسي ، قال : رأيت المهدي وقد دخل البصرة من قبل سكة قریش ، فرأيت به بسير وابنته البانوقة بين يديه ، منه وبين صاحب الشرطة ، عليها قباء اسود متقلدة سيفاً عليها منطقة رشاشية في هيئة انفلان ، ورأيت في صدرها شيئاً من

نديها وقد رفعها قباءها لنهودها ، وكانت سمراء ، حنة القد ،
حلوة ، فلما ماتت وذلك ببغداد اظهر عليها المهدي جزعاً لم
يسمع مثله ، وجلس للناس يعزونه وامر ان لا يحجب عنه احد ،
فأكثر الناس في التعازي .

فهذه حفة الحربة التي كانت عليها البانوقة بنت المهدي أخت
عليه ، فأين بدولة العروبة من زي البانوقة تلك العروبة التي
زعم وجودها ابن مخلدون للعباسة ، وهي أخت البانوقة الفارسية ،
وهما اختا عليه الادبية الشاعرة المجاهرة ؟

وانما نستدل نحن على بطلان اجتماع جعفر بن يحيى البرمكي
مع كل امرأة من حرم الرشيد ، بما ذكره المؤرخون من ان
الرشيد قال لجعفر البرمكي يوم الجمعة آخر المحرم من سنة ١٨٧
« لولا اني عزم على الجلوس الليلة مع النساء لم افارقك ، فأقم
انت في منزلك واشرب واطرب » ، ومن ذكر ذلك الطبري في
تاريخه ، فلو كان صحيحاً ما اختلف المخلعون لم يقل الرشيد لجعفر
ذلك القول ، ولجرت العادة على ما زعموه وولدوه .

فتعليل فتك هرون الرشيد بالبوامكة ، يجب ان يبيته عنه
في غير قصة العباسية الباطلة ، كزندقة البوامكة وتخريضهم هرون
الرشيد على العلويين ابناء عمه وسعيهم في قتل عظامهم كالامام
موسى بن جعفر ، وعبد الله بن الحسن الافطس المعروف بقتيل البوامكة
وهو الذي اهدى جعفر البرمكي رأسه في طبق الى هرون الرشيد ، في
يوم النيروز جاعلاً له من الهدايا التي يهدي في الاعياد .

السيدة زبيدة زوجة

هرون الرشيد وأم الامين

هي زبيدة بنت جعفر الأكبر بن المنصور العباسية ، زوجة هرون الرشيد وأم محمد الامين الخليفة العباسي ، وهذه السيدة العظيمة قد دخلت أخبارها في آخرافات ، واصبحت هي علماً لكل سيدة كبيرة عباسية من سيدات البلاط ، كما صار زوجها هرون الرشيد علماً لكل خبيفة عباسي عظيم ، وعدّه وزيره جعفر بن يحيى البرمكي علماً لكل وزير خطير من وزراء الدولة العباسية ، فلا غرو أن تدور الافاصيص حول هؤلاء الثلاثة ، ويكونوا أمثلة لغيرهم ، يعني ذكرهم عن ذكرهم ويعزى اليهم مع فضلهم فضل غيرهم ، ومن هذا ينشأ بعض الخلط في التاريخ والوهم في أحكامه .

إن جعفر الأكبر بن ابي جعفر المنصور تزوج سلسل أخت الخيزران زوجة أخيه المهدي العباسي ، فولدت له زبيدة واسمها « سكينه » وكنيتها أم جعفر ، وذكر الخطيب البغدادي في تاريخه والاصمغاني في الاغانى ان اسمها « أمة العزيز » ، وان جدها أبا جعفر المنصور كان يرقصها وهي صغيرة فيقول لها : « انت زبيدة وانت زبيدة » فغلب هذا اللقب على اسمها الأصلي ، وانما لقبها أبو جعفر المنصور بذلك لبضاظنها ونضارتها وحسن بدنها ، والمعروف في التاريخ أن « أمة العزيز » هي جارية الخليفة موسى الهادي أخي

هارون الرشيد ، على انها اشتهرت بلقبها فلم تعرف ولا بزبيدة .
 ووالد زبيدة هو جعفر الاكبر بن ابي جعفر المنصور - كما ذكرنا -
 وفي سنة ١٤٥ ولادة أبوه مدينة الموصل وسيّر معه حرب
 ابن عبدالله أحد قواد بني العباس الحكبار ، فبنى بأسفل الموصل
 قصراً وسكنه وفيه ولدت زبيدة ، قال ابن الاثير عز الدين :
 « فهو اليوم ، [أي في أول القرن السابع للهجرة] يعرف بقصر
 حرب ، وعنده - يومنا هذا - قرية كانت ملكاً لنا ، فبنينا
 فيها رباطاً للصوفية وقفنا القرية عليه ، وقد جمعت كثيراً من
 هذا الكتاب في هذه القرية في دار لنا بها ، وهي من أنزه
 المواضع وأحسنها ، وأثر القصر باقٍ بها الى الآن سبحات من
 لا يزول ولا تغيره الدهور ، هذا كلام ابن الاثير .

أما أبو زبيدة جعفر الاكبر فقد مات في حياة أبيه المنصور
 ببغداد سنة ١٥٠ هـ ودفن في مقابر قريش المعروفة اليوم
 بالكاظمية ، وهو أول من دفن فيها من القرشيين .

وعلى هذا تكون زبيدة قد ولدت بعد سنة ١٤٥ بقليل جداً ،
 ونشأت في دولة جدها المنصور ، ثم تزوجها ابن عمها هرون
 الرشيد وأعرس بها ببغداد سنة ١٦٥ هـ في خلافة أبيه المهدي ،
 وكان ذلك في دار محمد بن سليمان العباسي ، وأحبها الرشيد حباً
 جماً حتى إن أخاه الخليفة الهادي لما عزم على خلعه من ولاية
 العهد سنة ١٧٠ ، والمبايعة لابنه جعفر بن الهادي ، طاب الرشيد
 بذلك نفساً ، فقال له يحيى بن خالد البرمكي : لا تفعل . فقال
 الرشيد : أليس أخى يتروك لي الهنيء والمرىء فها يسعاني وأعيش

مع ابنة عمي زبيدة . فهو قد فضل العيش معها على الخلافة
ورأى فيه غنى عن هذه المرتبة العظيمة والابهة الجسيمة .

ودار الزمان دورته ومات الخليفة الهادي فبويع بالخلافة
هرون الرشيد سنة ١٧٠ ، وانقادت الدنيا له ولزبيدة ونقلت
أموالها اليهما ، وفي سنة ١٧٦ أي بعد ست سنوات من استخلاف
الرشيد ، حجت زبيدة الى بيت الله الحرام مع احد اخوتها ،
واخوتها هم جعفر وعيسى وعبدالله وصالح ، وكان لها أخت واحدة
اسمها لبابة . تزوجها موسى الهادي ، وانفقت في حجبها في ستين
يوماً اربعة وخمسين مليون درهم ، وقد أثرت زبيدة في مكة
المكرمة آثاراً جميلة ، وما أثر خالدة فانها أجرت الماء الى مكة
عشرة أميال ، بحفر الجبال ونحت الصخور حتى وصل الماء الى
الحرم وأستقي اهل مكة بعد أن كانت الراوية وهي كالثقبة باع
عندهم بدينار ، وعملت عقبة البستان ، وكانت لما أرادت عملها
قال لها وكيلها : تلزمك لذلك نفقة كثيرة ، فقالت له : عملها
ولو كانت ضربة فأس بدينار . وكان لها بجوار الكعبة دار
تعرف بدار زبيدة ، ولها آثار جليلة ، عملتها في المدينة .

ولها ايضاً آثار جسيمة في طريق الحج من جهة العراق ، من
مصانع وبرك وغيرها والمصانع جمع مصنع ومصنعة وهي سد يجمع
الماء كمصنعة الهندية اي سدة الهندية ، وقد ذكر ابن جبير الرحالة
بعض هذه الآثار ، قال « وهذه المصانع والبرك والآبار والمنازل
التي من بغداد الى مكة ، من آثار زبيدة ابنة جعفر بن أبي
جعفر المنصور زوج هرون الرشيد وابنة عمه ، انتدبت لذلك مدة

حياتها فأنبت في هذه الطريق مرافق ومنافع ، تعمم وقد الله تعالى ، كل سنة من لدن وفاتها الى الآن ، ولولا آثارها الكريمة في ذلك ما سلكت هذه الطريق والله كفيلاً بجازاتها والرضى عنها .

ولبثت زبيدة مدة مع الرشيد لا تعلق منه أي لا تحيل ، فشاور بعض مجالسيه من الحكماء واستشاره ، فنصح به بان يغيرها ، وضرب له مثلاً في الغيرة بسارة زوجة ابراهيم الخليل ، فان سارة لم تكن تحيل من ابراهيم فلما وهبت له هاجر وحبلت منه باسما عيل ، غارت سارة فحبلت منه باسحق ، فاشترى الرشيد جارية اسمها مراحيل ، فولدت له عبد الله المأمون ، فقارت زبيدة منها فولدت له محمداً الأمين بعد ستة أشهر من ولادة المأمون ، وهي إحدى ~~المشتمين للنفوس~~ ~~وولدت خليفين~~ ، الأولى منها هي فاطمة بنت أسد

أم الامام علي بن أبي طالب - ع - والثانية زبيدة .

وذكر احد المؤرخين انها كان لها مائة جارية يحفظن القرآن الكريم ، ولكل واحدة منهن وزد عشر القرآن ، وكان يسمع في قصرها صوت كدوي النحل من قراءة القرآن ، وكانت معروفة بالخير والافضال على اهل العلم والبر للفقراء والمساكين وكان لها معروف كثير .

ومن العجيب ان التاريخ احتوى على اخبار جوار مغنيات كن لزبيدة ، ومنهن الجارية المسماة « قلم » ، ويحكى عن قلم هذه انها غنت بحضرة المأمون صوتاً عجباً أي مقاماً سمعه علي بن هشام ، فاحتمل لتعليم جواريه هذا الصوت بان يذلل مائة الف دينار ،

ولم تعلم زبيدة بهذه السرقة الفنية ولو علمت لاغتازلت اشد الغيظ ، فانها كانت خنينة يثقل هذه الاصوات العنائة ، وسمعت مرة مع زوجها الرشيد غناء ابن جامع المغني ، فأمرت له بمائة الف درهم لكل بيت غناه ، واشترت غلاماً لعبده الله بن موسى الهادي ضرباً على العود مجيداً بثلاثمائة الف درهم ، وهما أخبار وردت في كتاب « الأغاني لأبي الفرج الإصفياني » تدل على لهوها وهو زوجها هرون الرشيد ، بما كان له أثر قبيح في الدولة الاسلامية كشرب الخمر باسم النبيذ والاقبال على الملاهي التي حرمتها الشريعة الاسلامية ، ولو بقي هرون الرشيد اكثر بما بقيه في اخلافة الدولة العباسية أقبح الانحطاط ، فانه كان ضعيف التدبير .

وفي سنة ١٩٣ هـ توفي زوج زبيدة أعني هرون الرشيد ، وبويع بالخلافة ابنه محمد الأمين فافتتح خلافته بالعدل ، وخلع أخاه المأمون من ولاية العهد وكان لأمه زبيدة يد في هذه الحركة المشؤومة التي جعلت لاعداء الدولة العباسية طريقاً يسلكونه ، حتى لقد دفعت الى قائد جيش ابنها المبعوث لحرب المأمون . وهي علي بن عيسى بن ماهان - قيداً من فضة وقالت له « قيداً بهذا القيد » بعد ان قالت له : « يا علي اعرف لعبده الله المأمون حق ولادته ولا تقتصره اقتصار العبيد اذا ظفرت به ، ولا تعنف عليه في السير ، وان شئت فاحتمه » وكانت أجدر بان يتمتع من العدل وتكفه عن أحداث حدث عظيم في الدولة العباسية ، أخرب البلاد وأزهق نفوس العباد وأنى على نفس ابنها معهم ،

قيل انها دخلت يوماً على الرشيد فقالت له : ما انصقت ابنك محمداً حيث وليته العراق واعريته من العدد والقواد ، وصيرت ذلك الى عبدالله دونه ، فقال لها : وما انت وغير الاعمال واختيار الرجال ، اني وليت ابنك السلم وعبدالله الحرب ، وصاحب الحرب أحوج الى الرجال من السلم ، ومع هذا انا أتخوف ابنك على عبدالله ولا أتخوف عبدالله على ابنك إن بويج .

ولما حلف الامين بالكعبة المعظمة لاييه الرشيد بالوفاء لانيه المؤمنين ، واراد الخروج رده جعفر بن يحيى البرمكي وقال له ، فان غدوت بأخيك خذالك الله ، قالها ثلاث مرات ، فاضطغت زبيدة ذلك على جعفر البرمكي وكانت احد من حرض الرشيد على اهلاكه ، وكانها كانت تضمر الغدر للمؤمن منذ ولي العهد .

وقتل الامين سنة ١٩٨ هـ وامة زبيدة في الحياة ، ولا شك في انها قاست بموته فتية أروع المصائب ، وكابدت في حروبه أشد الأهوال والاحداث ، قبل لما احاطت جيوش المؤمنين ببغداد وحاصرت فيها الأمين ، دخلت عليه امه زبيدة باكية فقال لها ، ومه انه ليس يجزع النساء وهلمبن عقدت التيجان ، والخلافة سياسة لا تسعها صدور المراضع ، وراءك وراءك .

وفي هذا ما يدل على قوة قلبه ونفسه وصلابة عزمه الا أن الشجاعة بغير العقل تكون وبالأونكالا على صاحبها ، وكانت لزبيدة شعر جيد منه فو لها في فقدان ابنها الامين :

لما رأيت المنايا قد قصدن له

أصين منه سواد القلب والراس

فبت منكساً أرمى النجوم له
 اخال سفته في الليل قرطاسا
 وزنته حين باهيت الرجال به
 وقد بنيت به الدهر آساسا
 فببس من مات مردوداً له ايدياً
 حنى يرد علينا فبه ناسا
 وقالت تعزبه مرة :

ففي فداؤك لا يذهب بك الالف
 ففي بقائك بما قد مضى خلف
 عوضت موسى فماتت كل مرزئة
 ما بعد موسى على مفقودة اسف

ولما اخبار مع المأمون لا تتعدى العتاب والترضي والتأسي ،
 وفي خلافته توفيت وذلك في جمادى الاولى من سنة ٢١٦ هـ ،
 ودفنت في مقابر قريش أي السكاطية الحالية ، وكان قبرها
 قريباً من روضة الامام موسى بن جعفر ، ولما احرق هذه المقبرة
 سنة ٤٤٣ هـ ، في خلافة القائم بأمر الله العباسي ، احترق فيها
 قبر زبيدة وقبر ابنها محمد الامين وقبر جعفر بن ابي جعفر المنصور
 وقبور بني بويه وغيرهم من الوزراء والرؤساء ، ذكر ذلك ابن الأثير
 عز الدين في تاريخه ، ولا ريب في أن القبور التي أحرقت بحدوث
 بعد ذلك ، ثم عفا قبر زبيدة مع القبور العافية الدارسة ولا
 اثر له اليوم .

واما القبة المعروفة اليوم بقبة الست زبيدة فهي في الحقيقة
قبة زمرد خاتون ام الخليفة الناصر لدين الله العباسي ، ولم نجد
فيما وقع الينا من الأخبار ان زبيدة من الزبيدات دفنت قرب
الشيخ معروف الكرخي ، فان يقع الينا يوماً من الايام فانها
تعد مدفونة تحت قبة زمرد خاتون اعني القبة القائمة حتى اليوم
كما دفنت تحتها من قبل السيدة بنفسه زوجة المستضيء بأمر الله ،
والملك المعظم علي بن الناصر لدين الله ، وعائشة خانم زوجة
والي بغداد حسن باشا سنة ١١٣٦ اي قبل مائتين واربع وثلاثين
سنة قمرية ، وفي هذا التاريخ حرفوا اسم « زمرد » الى زبيدة
لان اهل يبعث على التخليط والضلال .

السيدة بوران زوجة المأمون

السيدة بوران بنت الحسن بن سهل بن عبد الله السرخسي ، زوجة أبي عبد الله المأمون الخليفة العباسي ، وابنة اخي ذي الرياستين للفضل بن سهل وزير المأمون ، وقيل اسمها خديجة وبوران لقبها ولكنها اشتهرت ببوران ، فانها سميت باسم ملكة الفرس « بوران دخت بنت أبوبز » ، وفي عهد هذه الملكة دخل خالد بن الوليد العراق ، وفتح حصن عين التمر المعروف اليوم بالأخضر غربي كربلاء .

ولدت بوران بنت الحسن بن سهل ليلة الاثنين ليلتين خلفنا من صفر من سنة ١٩٢ في إحدى مدن خراسان ، وكان أهلها من المجوس ، واسلم عمها الفضل بن سهل سنة « ١٩٠ » على يد المأمون ، فهي قد رأت الدنيا بعد سنتين من إسلام أهلها ، ونشئت فلنشأت بنات العطاء ، فان أمر المأمون ومملكته وسياستها كانت موكوة إلى عمها وأبيها ، ولما قتل عمها سنة « ٢٠٢ » أسند المأمون وزارته إلى أبيها الحسن بن سهل ، وفي تلك السنة عقد المأمون زواجه بها وعمرها عشر سنوات ، تألفاً لقلب والدها ونسكيناً لنفسه ، لانه - أعني المأمون - أنهم يقتل وزيره الفضل بن سهل عم بوران ، وانفقت كثرة الاحداث والحوادث والحروب وصغر سنها في تأخير دخول المأمون بها ، وبعد أن عاد هذا

الحليفة إلى بغداد دار ملكه ومستقر خلافته ، وسبقه الحسن بن سهل إلى العراق لتوطيد ملكه له ، تهيأ له الدخول بها ، وإقامة عرس من أفخم الاعراس في تاريخ البشر .

وكان ذلك سنة « ٢١٠ » أيام كان أبوها الحسن بن سهل نازلاً ببلدة تسمى « ثم الصلح » ، وللصلح نهر كان فوق واسط وكانت هذه البلدة على فوهته وفمه ، واحتفل أبوها بزواجها احتفالاً فادراً في التاريخ ، وعمل من انولاتهم والافراح ما قل عمل مثله في عصر من الاعصار ، وانحدر المأمون من بغداد إلى ثم الصلح لثني ليال خلون في شهر رمضان صائماً ، فوجد وزيره قد أعد له من الرياش والآلات والاثاث والزينة والهدايا ما يعد من قبيل الخرافات ، لعظمه وفخامته ونفاسته وطرافته وكثرته ، فقد فرش للمأمون حصيراً منسوجاً بالذهب ، ولما وقف عليه ثوت عليه لآلى كثيرة ، فلما رأى تساقط اللآلى المختلفة على ذلك الحصر قال ، قاتل الله أبا نواس كانه شاهد هذه الحالة حين قال ، في صفة الخمر والحباب :

كان صفري وكبرى من قواقعها حصباء دو على أرض من الذهب وكانت جدتها أم الفضل والحسن ابني سهل هي التي ثوت تلكم اللآلى من صينية ذهب ، فأمر المأمون أن تجمع اللآلى المنشورة وسألها عن عددها ، فقالت : ألف درة ، فأمر بعدها ، فنقصت عشر حبات ، فقال : من أخذها منكم فليردها ، فقالوا : فلان ، فأمره بردها ، فقال اللاقط لها : إنما نثر الأولو لناخذنه يا أمير المؤمنين ، فقال له المأمون : ردها فاني أخلفها عليك ،

فردها ، وجمع المأمون ذلك الدر في صينية الذهب كما كانت ، وأمر بان يوضع في حجر بوران ، وقال لها : هذه نعلتك وسلي حوائجك أقضها ، فامسكت ثم سأله حوائجها ، وأوقدت ليلة عرسها شعة عنبر وزنها أربعون مثلاً في دناء من ذهب ، ونثر أبوها على الماشمين والقواد والكتاب والاعيان بنادق مك ، في كل بندقة اسم ضيعة أي مقاطعة أو اسم جارية أو اسم دابة بصفتها أو غير ذلك ، فكانت البندقة اذا رفعت في يد الرجل اللاقط لها ، فتعجب فقراً اسم ما في الرقعة التي في البندقة ، فاذا علم مضمونها ذهب الى وكيل مرصد لذلك ، فمدفعها اليه ويتسم ما يكتب اسمه فيها .

ثم نثر الحسن بن سهل بعد ذلك على سائر الناس دراهم ودنانير ، وبيض العنبر وأوعية المسك ، وانفق حسين مليون درهم على المأمون وقواده وجميع اصحابه وسائر جنده واتباعه حتى الجمالين والمكاريين والملاحين ، وكانوا خلقاً لا يحصون من الكثرة ، ولا عجب في ذلك فقد كانت عدة الملاحين حسب نيفاً وسبعين ألف ملاح ، وأنشد الشعراء في ذلك وأطنب الخطباء ، وكان من الشعراء الذين حضروا هذا العرس العظيم محمد بن حازم الباهلي صاحب :

من النفس واحمها على ما يزينها تعش سالماً والقول فبك جميل
فتان :

بارك الله للحسن ولبوران في الحق
يا بن هارون قد ظفرت ولكن بينت من ؟

فلما بلغ هذان البيتان المأمون قال : والله ما ندري أخيراً
أراد أم شراً ؟

وكان منهم علي بن جبلة المعروف بالعمكوك ، فاعطاه الحسن
بن سهل عشرة آلاف درهم قبل ان يستنشهده وقال : الى أنت
نتفرغ ، فقال علي بن جبلة في قصيدة له :

أعطيتني يا ولي الحق مبتدئاً عطية كافات مدحي ولم تترني
ما شئت برفقك حتى نلت ريقه كأننا كنت بالجدوى تبادرني

ولما رجع المأمون الى بغداد بعد اربعين يوماً او اكثر وهب
لحسن بن سهل عشرة ملايين درهم .

وكانت ام جعفر زبيدة زوجة هرون الرشيد حاضرة ذلك
الزفاف بفهم الصالح ، فالتبت بوران من هداياها « البدثة الأموية » ،
وهي من الثياب الغالية جداً ، استولى عليها بنو العباس من بني
أمية ، وأعطتها مير الصالح وكان ملكاً لزبيدة او اقطاعاً لها ،
وعاشت السيدة بوران ببغداد وحارجهما مع المأمون ثمانين سنوات ،
ثم توفي زوجها في سنة ٢١٨ قرب طرسوس من بلاد الروم ،
وكانت هي معه وفي صحبته ، فعادت الى بغداد مع الجيش
العباسي الغازي ، وكان أبوها قد بنى على شاطئ دجلة الشرقي
ببغداد بنايات فخمة ، وكانت هذه البنايات قرب القصر الجعفري
الذي كان في اراضي المحكمة الشرعية . وما حولها ، وسمي « القصر
الحسيني » نسبة الى الحسن بن سهل ، ثم توفي الحسن سنة ٢٣٥ او
بعد سنة فورثت ابنته بوران ذلكم القصر . وفي عهد الخليفة
المعتمد على انه العباسي كانت سامرا عاصمة للخلافة العباسية ، الا

ان هذا الخليفة كان يتردد الى بغداد ليلهو ويشرب ، واخوه
 طلحة ولي عهده مشغول باصلاح الدولة وجمع الجيوش ، لحرب علي
 ابن محمد صاحب الزنج الثائر - كان - علي بن العباس المدعي انه
 صاحب الزمان ، واستحسن المعتد على الله قصر الحسن بن سهل
 اي القصر الحسيني ، فطلب الى السيدة بوران ان تنزل له عنه ،
 فاستنظرته اياماً لتغريغه وتسليمه ثم رمنه وجصسته وببيضه ،
 وفرشته باحسن الفرش واجلتها وعلقت اصناف الستور على ابوابه ،
 وملأت خزائنه بكل ما يصلح لحلفاء ذاك الزمان من الآلات ،
 ورتبت فيه خدماً وجواري قدعو الحاجة الى استخدامهم والانتفاع بهم
 فلما فرغت من ذلك انتقلت من القصر الحسيني ، ورأست الخليفة
 المعتمد على الله في ان ينتقل اليه ، فانتقل اليه ووجد فيه من
 الاشياء ما استحسنته واستكثرت ، وصار القصر المذكور أصلاً لدار
 الخلافة العباسية بعد نقلها من سامرا نقلاً كاملاً ، في زمان المعتضد
 بالله العباسي ابن اخي المعتمد الذي أسلفنا ذكره .

وبقيت السيدة بوران ببغداد الى ان توفيت فيها ، يوم الثلاثاء
 ثلاث لبال بقين من شهر ربيع الاول سنة ٢٧١ هـ ، في خلافة
 المعتمد على الله ، ودفنت في حكمة الحرم المعروفة ارضها اليوم
 بالعبواضية وما حوها ، وجعل لقيروها قبة ، ثم عرفت تلك المقبرة
 باسم « المقبرة السهلية » ولعلها نسبت الى جدها سهل والد الحسن
 ابن سهل - على الطريقة العربية - في النسبة ، اعني ان للعرب
 تنسب أمثال هذه المحدثات الى والد المؤسس وجده لا الى المؤسس
 نفسه ، كما قالوا « الدولة العباسية » و « الدولة الاموية » ، مع ان

العباس وامية لم يؤسس احد منها دولة . وفي محرم سنة ٤٨٥ هـ أمر السلطان ملكشاه السلجوقي بهارة جامع عند قبر بوران ، وهو الجامع المعروف بجامع السلطنة فأصبحت قبة قبرها مقابلة لمقصورة الجامع ، وكلاهما كان قريباً من دار المملكة السلجوقية ، فعلى هذا تكون مقبرة الشهداء الحالية التي بباب المعظم من المقبرة السهلية حيث دُفنت السيدة بوران او من مكان كان قريباً منها ، وقبتها بقيت قائمة الى ما شاء الله ، حتى ليجد الناظر صورتها في رسم بغداد الذي رسمه الاستاذ المطراقي ، اعتماداً على رؤيته لهذه المدينة أيام احتلال السلطان سليمان القانوني لها سنة ٩٤١ هـ ، ولم اجد لتربتها ذكراً ولا صورة بعد ذلك التاريخ ، فقد عفا قبرها مع القبور الدارسة ودرس جامع السلطان ملكشاه مع كونه بيتاً من بيوت الله ، ولا يسلم من الزوال والعفاء والفناء ، الا الله تعالى .

السيدة شجاع ام المتوكل على الله .

ونحارون اسم المستعين بالله

اسم هذه السيدة شجاع ، وهو غريب عن الاسماع في أول
وهلة ، وإذا علمنا أن من معاني الشجاع في العربية « الحجة الشديدة
الجريئة » ، أيقنا ان هذه السيدة قد سميت باسم هذا الضرب من
الحيات ، وكانت شجاع في الاصل جارية مملوكة مثل اكثر امهات
الخلفاء العباسيين ، وقد ثبت بالعلم أن اختلاط دماء الاجيال
والاقوام بطور الأولاد ، ويورث الصفات ، ففضل بني العباس
الخلفاء تعاوره الصلاح والفساد بحسب الامم التي تزوجوا منها .

كانت شجاع تركيبة الاصل خوارزمية طخاركية البلاد من إقليم
طخارستان فيما وراء النهر ، وجلب الجلابوت في الرقيق وباعها
النجاشيون في العراق ، فصارت إلى المعتصم بالله بن هارون الرشيد ،
فولدها أبا الفضل جعفر المتوكل على الله ، سنة ٢٠٥ في خلافة
أخيه عبد الله المأمون ، وكانت للمعتصم جارية قبل شجاع من
الجواري الروميات ، اسمها قراطيس ، وولدت له أبا جعفر هارون
الملك بالوائق بالله سنة ١٩٥ ، في أيام النزاع بين الأمين والمأمون ،
وقد جرت العادة أن أبناء العلات أي أبناء الرجل من نسوة
شقي ، يختلفون ويتضاغنون لاختلاف امهاتهم ، وتضاغبن ، دون
بني الاعبان وهم الاخوة من الأبوين ، ودون الاخوة الاخفاف وهم

الذين امهم واحدة وآبائهم شتى ، وسبب ذلك ان تصافي النساء يؤدي في الغالب الى تصافي الرجال ، وتشاخصهن يؤدي الى تشاخصهم ، فلا جرم ان العداوة نشأت بين الوائق بالله واخيه المتوكل على الله ، بسبب التعادي بين امهاتهما وثبتت العداوة بينهما وان كانت اموهما المعتصم قد مات ولتسكن العداوة كانت حال المتوكل في خلافة اخيه الوائق انعم حال ، يحبه ويساء لقاؤه ، وتعطل ارزاقه اي معاشاته ، ويستنزأ به ويجز شعره ، ويفضب عليه الوائق لأضعف الأسباب ، ومن اخبار الاستيزاء به والمعابئة له ، ان حمدون بن اسماعيل النديم ، وكان يتادم المعتصم بالله ، اتصل بالوائق بالله وتادمه بعد ابيه ، وكانت يعلم اعراضه عن اخيه المتوكل ، فكان يعبت به ، ولقد جاء مرة بحجة في كفه واخرج رأسها للمتوكل تعريضاً بأمه شجاع ، لأن الشجاع كما ذكرنا نوع من الخبيات ، وكان هذا المحزون البارد يعجب الخليفة الوائق ، وما أدري اي غضاظة على المتوكل في تسمية امه بالحية ؟

واذ كانت حالة المتوكل تسمه في خلافة اخيه الوائق استدل بذلك على رداءة حال امه شجاع ، ولذلك لم يكن لها شأن في عهده ، فلما توفي الوائق وذلك سنة ٢٣٢ كما هو معروف ولي المتوكل اخلافة غاضباً منتقماً ، عاقداً للنية على مخالفة اعمال اخيه كها ، واحتقد والغضب افصح العيوب في سياسة الممالك ، فلذلك لم ينجح المتوكل في سياسته الانتقامية .

وفي سنة ٢٣٧ في خلافة المتوكل حجت امه السيدة شجاع الى بيت الله الحرام فخرج المتوكل معها من سامرا فشيّعها الى النجف وعاد ،

وكانت في صحبة حفيدها محمد بن المتوكل وهو الذي لقب في
استخلافه بالمنتصر ، وفي سنة ٢٤٥ غارت مشاش وهي عين يجري
ماؤها في جبال الطائف حتى تصل عرفات وتفضي الى مكة ، فأصاب
اهل مكة العطش وبلغ ثمن القربة الواحدة ثمانين درهما ، فبعثت
السيدة شجاع من اصحابها واصلاح قناتها وانفقت على ذلك من مالها ،
وكانت مقبلة على مثل هذا من الاعمال الخيرية والآثار الحسنة .
وكان لها كثير من الاملاك والقرى فمن ذلك قرية بناحية
واسط ، ذكرت في حوادث التاريخ استطراداً ، فان اخبار هذه
السيدة قليلة ، فالتواريخ لم تفصل سيرتها ، كما فصلت سير كثير
من امهات الخلفاء وسيدات البلاط العباسي في سامرا وبغداد .

ولست ليال خالون من شهر ربيع الآخر توفيت بامرا السيدة
شجاع ، وكانت وفاتها قبل قتل ابنها المتوكل على الله بستة اشهر ،
وصلى عليها بحفيدها المنتصر بالله ، ودفنت هناك عند المسجد الجامع
في المتوكلية ، وهي المدينة المعروفة بالجعفرية قديماً واليوم بأبي دلف .
وكانت تركتها من الدنانير خمسة ملايين وخمسين الف دينار ،
ومن الجوهر ما قيمته مليون دينار ، قال أحد المؤرخين في
وفيات سنة ٢٤٧ « وتوفيت شجاع أم المتوكل وكانت خيرة
كثيرة الرغبة في الخير ، وخلفت من العين خمسة آلاف دينار
 وخمسين الف دينار ، ومن الجوهر ما قيمته الف الف دينار ،
ولا تعرف امرأة رأت ابنها وله ثلاثة اولاد ولادة عهود إلهي ،
أراد يقوله الاخير أبناء المتوكل محمداً المنتصر بالله وزبيراً المعتر
بالله وابراهيم المؤيد بالله هذا ما وصل اليّ من اخبار السيدة شجاع .

السيدة مخارق

اما السيدة مخارق والددة الخليفة المستعين بالله فكانت جارية
روسية الاصل ، وامتلكها الامير محمد بن المعتمد بالله ، فولدت
له فسين ولدت ، أحمد وهو الذي لقب بالمستعين بالله لما ولي الخلافة ،
وكانت ولايته لما سنة ٢٤٨ ، وكان من ضعفة الخلفاء ، فقد أطلق
في عهده يد أنامش الامير التركي وشاهك الخادم ويد أمه مخارق ،
وأباحهم ان يفعلوا ما يريدون ببيوت الأموال ، ولم يمنع امه من شيء
تريده ، وكان لها كاتب اسمه سامة بن سعيد وكان نصرانياً بارعاً
في الكتاب والحساب ، فكانت الاموال التي تحصل من جميع
الممالك العباسية الى سامرا حضرة الخلافة ، يصير كثير منها الى
السيدة مخارق ، وكانت تنفق اتفاق من لا تخاف الفقر ، ولا تعلم
ان صلاح الممالك وسداد أمور الخلافة باقيا ما بقيت الاموال في
بيوتها ، وصرفت الى وجوها ومن أخيار تحرفها في الاتفاق قصة
يساط التائب ، قال احمد بن حمدون النديم : عملت ام المستعين
بساطاً على صورة كل حيوان من جميع الاجناس ، وصورة كل
طائر ، من ذهب وعبونها من يواقيث وجواهر ، أنفقت عليه الف
الف دينار وثلاثين ألف دينار ، وسألت المستعين ان يقف عليه وينظر
اليه ، فكسل ذلك اليوم عن رؤيته ، فقال لي المستعين ولأترجة
الهاشمي : اذهبا فانظرا اليه ، فذهبتا ومعهما الحاجب ، فرأيتاه ،

فوالله ما رأينا في الدنيا شيئاً أحسن من ذلك البساط ، ولا رأينا شيئاً حسناً في الدنيا إلا وقد حمل فيه ، ممدوداً لنا يدي إلى غزال من ذهب عيناه ياقوتتان فوضعه في كمي ، ثم عدنا إلى المستعين فوصفنا له البساط وحسن ما رأينا فيه ، وقال أترجى الهاشمي المستعين : يا أمير المؤمنين إن ابن حمدون قد سرق منه شيئاً ، وغمره على كمي ، فأخرجت الغزال وأرسلته المستعين ، فقال لنا : بحياتي عليكما أرجعاً فخذوا ما أحببتما ، ففطينا فلاناً اكمامنا وأقبيتنا وأقبلنا ثماني كالجبال ، فلما رأنا المستعين ضحك ، فقال لبقية الجلساء وفيهم يزيد المهلي : ونحن فما ذنبنا يا أمير المؤمنين ؟ فقال لهم : قوموا فخذوا ما شئتم ، ثم قام من مجلسه فوقف على الطريق الذي يمر فيه الجلساء ، ينظر كيف يحملون أشياء البساط ، وهو يضحك ، ورأى يزيد المهلي سطلاً من ذهب ملوئاً مسكاً ، فأخذه بيده وأخرج ، فقال له المستعين : إلى أين ؟ فقال : إلى اثام يا أمير المؤمنين ، فضحك المستعين من قوله ، ثم أمر الفراشين وأحدهم أن ينهبوا الباقي فانتهبوه ونا علمت أمه غارق بذلك أرسلت إليه خادماً برسالة تقول له فيها ، لقد كنت أحب أن تراه قيل أن تفرقه ، فاني أنفقت عليه مائة ألف ألف وثلاثين ألف دينار ، فأمر بأن يحمل لها من بيت المال مقدار الذي أنفقت حتى تعمل بساطاً مثله فعلمته ، ومضى فرآه ولكنه فعل به كفعله بالاول ، وفرقه على الندماء .

وفي سنة ٢٥١ خلع الجند بسامرا المستعين بالله ، فهرب إلى بغداد مع جماعة من الأمراء ، وبويع المعتز بالله بن المتوكل ،

وترك المستعين الاموال بسامرا ، وكان في بيت المال نحو من
 خمسمائة الف دينار ، وفي خزانة السيدة مخارق نحو مليون دينار ،
 وفي خزانة العباس بن المستعين نحو ستمائة الف دينار ، وبقيت
 هذه السيدة بسامرا كالمعتقلة إلى ان خضع المستعين نفسه ببغداد
 فبعث المعتز بها وبابنته وعباله اليه ، ثم قتل المستعين سنة ٢٥٢ ،
 وبقيت السيدة مخارق بعد قتل ابنها ولم يصل إلى تأريخ وفاتها
 لندور أخبارها .

السيدة فريدة صاحبة الواثق بالله

وزوجة المتوكل على الله

اول ما يسمع العالم بتاريخ العرب باسم « فريدة » ، يدرك انها جارية من الجوارى لا حرة من الحرائر ، لأن هذا الاسم من اسماء الجوارى المملوكات عند العرب ، حتى ان البيوتات العربية لا تزال تسمي الجوارى الحبشيات بفريدة ، والفريدة هي الدرة الكبيرة ، فاذا سميت بها السوداء فذلك من تسمية الشيء بضده . كانت فريدة جارية بيضاء ، حسنة الوجه حادة الفطنة والفهم ، وكانت في ملك عمرو بن بانة المقي ، فاهداها الى الخليفة الواثق بالله هرون بن المعتصم ، وهي في كمالها من حيث التربية والأدب والغناء ، فصارت أثيرة عنده ، حظية كل الخطوة لديه ، وطلب الواثق الى السيدة شارية صاحبة ابيه المعتصم ، أن تتم تعليمها الغناء ، فعلمتها ولم تبق في تعليمها غاية ، الى أن حدث بينها شيء من الخلاف بحضرة الواثق ، فأخذت شارية تقصر في تعليمها . وأغرم بها الواثق غراماً شديداً ، وتعلقت هي به تعلقاً عجيباً ، وكان الواثق مولعاً بسماع الغناء ، وكان يغني اذا انبسطت نفسه وانشرح صدره ، وقد صنع في الغناء مائة لحن ما فيها لحن ساقط ، ولم يكن يحضر مجلسه أعلم منه بالغناء ، ولا كان

في الحلفاء أعرف منه بهذا الفن ، وكان اذا أخذ العود وغنى أتى
 بالعجب العجيب ، وأعرب عن هوى في فن الغناء ، وبراعة في
 الضرب ، وكشف عن نفس عريضة في نسب الطرب ، واذا كان
 الواصل خليفة مفتنا أي ذا فنون ، كان يجهد في حبيته فريدة
 عوناً على ترجمة فنه في الغناء والموسيقى ، فكم من لحن من
 الحان المائة ، أراد عرضه على اساندة الغناء كاسحاق بن ابراهيم
 الموصلي ، فلم يستطع ذلك إلا بان يعلمه فريدة ، وفريدة تلقية
 على الاساندة من وراء الستارة ، ويدعي أنه لحن قديم وقع اليه
 حتى يسمع تقريره أو استقباحه ، ويصلح ما يستلزم الاصلاح منه .
 وله في ذلك حكاية طريفة غضب فيها على اسحاق الموصلي ، لأنه
 وشي اليه به بأنه يستقيح الحان على علم منه بأنها له ، وأمر به
 فسحب حتى أخرج من مجلسه في دار الخلافة بسامرا ، ولكن
 فريدة اقنعت به بأن اسحق الموصلي مغن صاحب فن وصناعة وأن
 المؤمن بجمال الفن المتقن له ، العالم بقايسه ، لا يجيد عن الحق في
 النقد قيد شمرة ، وأعلمته ان المعيد للحن الجديد ، وهو غمارق
 المغني ، أساء تأديته فاستبشعه اسحاق ، وما زالت به حتى رضي عن
 اسحاق وأحضره مجلسه ، ثم غنت فريدة لحن الواصل فلما سمعه
 اسحاق قال : هذا صوت جميع الصنعة والقسمة والتجزئة ،
 وما هكذا سمعته في المرة الاولى ، وقد وفيت لاسحاق في هذه
 الشفاعة بحق التلمذة لانه كان قد صنع لها لحناً من الالحان المختارة
 التي كانت اعلى من الموسيقيين .

وهذه السيدة الحان كان يغنيها اكبر المغنين كابراهيم بن المهدي

العباسي ، ولا سيما لحنها في أبيات أبي العتاهية التي يقول فيها :

قال لي احمد ولم يدروا بي اتحب الغداة غيبة حقا
فنتفست ثم قلت نعم حباً بجرى في العروق عرقاً فعرفا
لو نجين يا عتيبة فبي لوجدت الفؤاد فرحاً تفقفا
قد لعمري مل الطيب ومل الامل مني بما اقاسي وألقى
لبتني مت فاسترحمت فاني أبداً ما حييت منها ملقى

وكان بين الواثق بالله وأخيه جعفر الذي لقب في خلافته
بالمتموكل بفضاء وشجاء ، كما كان بين موسى الهادي وأخيه هارون
الرشيد ، فكان جعفر يتربص موت الواثق كما كان هارون
يتربص موت موسى الهادي . ونوفي الواثق بسامرا سنة « ٢٣٢ هـ »
وكانت خلافته خمس سنوات وتسعة اشهر واباماً ، ولم يتجاوز عمره
الخامسة والثلاثين . وكان قبل موته يتخيل صيرورة الخلافة الى
أخيه المتموكل ، واستيلائه على الدولة ، حتى لقد كان يتصور ان
فريدة ستصير إلى المتموكل وتغنيه . ولقد ذكر محمد بن الحارث بن
يسخنر احد الذين كانت لهم نوبة في خدمة الواثق ، ان الواثق
ارسل ذات يوم يطلبه في غير يوم النوبة فخاف وارتاع ودخله
فزع شديد ، فركب دابته حتى وافى دار الخلافة ، فأخذ
الخدم بيده فأدخلاه في ممرات لا يعرفها ولا عهد له بها ، حتى
أفضى الى دار مفروشة الصحن ، مليسة حيطانها بالوشى المنسوج
بالذهب ، ثم بلغ رواقاً أرضه وحيطانه مليسة بمثل ذلك الوشى ،
فاذا هو بالواثق بالله جالساً في صدر الرواق على سرير مرصع
بالجوهر وعليه ثياب منسوجة بالذهب ، والى جانبه السيدة فريدة

وعليها مثل ثيابه وفي حجرها عود ، فأمره بالجلوس وأمر له برطل
من الشراب ، واندفعت فريدة تغني :

أهابك أجلاً وما بك . قدرة

عليّ ولكن ملء عين حبيبها

وما هجرتك النفس يا ليل أنها

قلنتك ولكن قل منك نصيبها

فجاءت بغناء سحري وجمال الوائق بحارها ، وهي في خلال
ذلك تغني الصوت بعد الصوت وغنى محمد بن الحارث المذكور في
خلال غنائها ، وانهم لكذلك في مسرة وغناء وجبور ، اذ رفع
الوائق وجهه فضرب بها صدر فريدة ضربة تدحرجت بها منها
من أعلى السرير وتكسر عودها ، فهربت وهي تصيح ، وبقي
محمد بن الحارث كالمنزوع الروح وخاف أن تكون عينه التي جنت
عليه ، واطرق الوائق ساعة الى الارض ، قال محمد بن الحارث :
فاني لكذلك إذ قال لي الوائق : يا محمد . فوثبت ، فقال :
ويحك أرايت اغرب بما تهياً علينا ؟ فقلت : يا سيدي الساعة والله
تخرج روعي ، فعلى من اصابنا بالعين لعنة الله ، فما كان السبب ؟
الذنب من الذنوب ؟ فقال الوائق : لا والله ولكن فكرت ان
جعفراً - يعني اخاه المتوكل - يقعد هذا المقعد ، ويقعد مع
فريدة كما هي قاعدة معي ، فلم اطق الصبر وخامرني ما اخرجني
الى ما رأيت ، قال محمد بن الحارث : فلما علمت السبب سري
عني وقلت : بل يقتل الله جعفرأ يا امير المؤمنين وتجبأ ابدأ ،
وقبلت الأرض ، وقلت : يا سيدي ، الله الله ، ارحم فريدة

وأمر بردها . فقال لبعض الخدم الواقفين : من يجيء بها ؟ فلم يكن بأسرع من أن خرجت ، وفي يدها عود وعليها غير الثياب التي كانت عليها ، فما رآها جذبها وعانقها ، فبككت وجعل هو يبكي ، قال محمد بن الحارث : واندفعت أنا في البكاء معها ، ثم قالت فريدة اللواتي : ما ذنبي يا مولاي ويا سيدي ، وبأي شيء استوجبت هذا ؟ فأعاد عليها ما فكر فيه ، وهو يبكي وهي تبكي ، فقالت له : سألتك بالله يا أمير المؤمنين ألا ضربت عنقي هذه الساعة ، وأرحتني من الفكر في هذا ، وأرحت قلبك من الاهتمام بي ، وجعلت تبكي ويبكي ، ثم مسح أعينها ورجعت هي إلى مكانها ، قال محمد بن الحارث : وأومأ اللواتي إلى خدم وقوف بشيء ، لا أعرفه ، فمضوا واحضروا أكياساً فيها دنانير ودرهم ، واحضروا رزماً فيها ثياب ، وجاء خادم بدرج ففتحه وأخرج منه عقداً ما رأيت قط مثل جواهر فيه ، فألبسه فريدة وأحضرت بدرة فيها عشرة آلاف درهم ، وخمسة نخوت فيها ثياب ، فوضعت بين يدي ، وعدنا إلى أحسن مما كنا فلم نزل كذلك إلى الليل ثم انصرفنا وحميت معي الدراهم والثياب .

وتوفي اللواتي بالله فلم يكن هم المتوكل أخيه إلا أن يتزوج السيدة فريدة ، فتزوجها وأمرها ذات يوم أن تغني فأبت وامتنعت وفاءً للواتي فأقام المتوكل على رأسها خادماً وأمره أن يضرب رأسها ابداً أو تغني ، فلما أيقنت بقسوة المتوكل وصغر نفسه ولأمة طبعه أخذت تغني :

مقيم بالمجازة من قنوبا واهلك بالأجير فالحقاد

فلا تبعد فكل فتى سياتي عليه الموت يطرق أو يفادي
ثم ضربت بالعود الأرض ، ورمت بنفسها عن السرير الذي
كانت عليه ، ومرت تركض وهي تصيح : واسيدها ، قنـدب
سيدتها الوائق ، ولم يظهر لها ذكر بعد هذه الحادثة الغريبة .
أما الحائما وصناعتها الفنية فمذكورة أبـد الدهر ، وأما وفاءها
لصاحبها الخليفة الوائق فمن نوادر أخلاق النساء ولا سيما ذوات
الفن .

السيدة قبيصة

صاحبة المتوكل على الله وأُم المعتز بالله

السيدة قبيصة ، صاحبة الخليفة المتوكل على الله وأُم الخليفة المعتز بالله وأخيه الأمير اسماعيل ، ولما سميت قبيصة كما سمي العبد الاسود بكافور على تسمية الشيء بضده ، فقد كانت تجارية رومية الاصل رائعة الجمال فائقة الملاحظة ، فسماها المتوكل « قبيصة » لحسن صورتها ، وكان المتوكل شديد الميل والافبال عليها . وغرابة اسمها سببت تصحيفه في كتب التاريخ فجاء على صورة « قبيصة » و « قتيصة » و « قنيصة » . ولها في تاريخ الأدب العربي أخبار جميلة ، وفي تاريخ العراق السياسي أنباء خطيرة ، وفي تاريخ سامرا خاصة ذكر مستفيض ، لأنها كانت سيدة من سيدات البلاط العباسي ، أيام كان البلاط في سامرا ، فهي في تلكم الأيام عاصمة الدولة العباسية ، وحضرة العالم الاسلامي ، وملقى عظماء الدنيا ومبوءة الخلفاء والوزراء والكبراء ، وغاية التجار والسياح والعلماء والادباء ، ومقر الأحزاب السياسية والقواد والجيوش ، وبجمع أصناف الناس ، وسيدة المدن الحديثة .

ولي صاحبها وسيدها المتوكل بن المعتصم الخلافة ، بعد وفاة أخيه الواثق بسامرا سنة ٢٣٢ ، واختلت أمور الدولة العباسية في

زمانه ، لامور كثيرة ليس هذا موضع شرحها ، وكان من أشدها اخلاقاً بالامور ، كثرة نفقات المتوكل على القصور التي بناها بسامرا ، ولم يكن بيت المال يتحمل ذلك فأفلست الدولة ، ومن المعلوم في سياسة الدول أن قلة المال سبب في الاختلال ، وأن الدولة التي لا مال لها زائلة لا محالة .

على ان الادب العربي في ذلكم العصر ، كان على الضد من الحالة السياسية والحالة المالية - في تقدم واتساع ، فقد نشأ فيه جوار شاعرات وجوار أدبيات ، منهن فضل ومحجوبة الشاعرتان اللتان طار صيتهما واشتهر شعرهما ، قال علي بن الجهم الشاعر : دخلت على المتوكل ، وقد بلغني أنه كالم قبيحة جاريتة فأجابته بشيء أغضبه ، فرماها بخدة فأصابت عينها فاثرت فيها فتأوهت وبكت ، وبكى لبكاتها ابنها المعتز بالله ، فخرج المتوكل من عندها وقد أصابته الحمى من الغم والحزن والغضب ، قال علي بن الجهم ، فلما بصر بي المتوكل دعاني ، وإذا الفتح بن خاقان وزيره ، وهو يري بختيشوع الطبيب فارورة المتوكل ويشاوره في مرضه ، فقال لي المتوكل : يا علي : قل شعراً في عنتي هذه وصف ان الطبيب ليس يدري ما بي ، فقلت :

تنكّر حال علسني الطبيب	وقال أرى يحسبك ما يريب
جسست العرق منك فدل جسي	على ألم له تخسب عجب
فما هذا الذي بك هات قل لي	فكان جوابه مسني النجيب !
وقلت أيا طبيب الحجر دائي	رفلي يا طبيب هو الحكيب
فحرّك رأسه عجباً لقولي	وقال : الحب ليس له طبيب

فأعجبني الذي قد قال جداً : قلت : بلى إذا رضي الطبيب
فقال هو الشفاء فلا تقصر : فقلت : أجل ولكن لا يجيب
ألا هل مسعد يبكي لشجوي فاني هائم فرد غريب...
قال علي بن الجهم : فقال لي المتوكل : أحسنت وحياتي ، يا
غلام استغني قدحاً ، فجاءه الغلام بقدح فشرب وسُقيت الجماعة
مثله ، وخرجت إليه فضل الشاعرة بأبيات امرتها قبيحة ان تقولها
عنها ، فقرأها فاذا هي :

لأكتمن الذي في القلب من حرق حتى اموت ولم يعلم به الناس
ولا يقال : شكاً من كان يعيشه إن الشكاة لمن نهوى هي اليأس
ولا ابوح بشيء كنت اكتمه عند الجلوس اذا ما دارت الكاس
فقال المتوكل : أحسنت يا فضل . قال علي بن الجهم : وأمر
لها ولي بعشرين الف درهم ، ودخل الى قبيحة بجاريته فاسترضاها .
وقال يزيد بن المهلب الشاعر : كنا عند المتوكل يوماً وقد
غاضبته قبيحة ، فخرج الينا فقال : من ينشدني منكم شعراً في معنى
غضب قبيحة عليّ ، واحياجي ان اخضع لها حتى ترضي ؟ فقلت :
لقد احسن محمد بن حازم الباهلي . يا أمير المؤمنين - حيث يقول :
صفحت برغمي عنك صنع ضرورة اليك وفي قلبي ندوب من اللعن
خضعت وما ذنبي إن الحب عزني فأغضبت صفحاً عن معالجة الحب
وما زال بي فقر اليك منازع يذل مني كل تمتنع صعب
الى الله اشكو ان ودي محصل وقلبي جميعاً عند مقتسم الحب
فقال المتوكل : أحسنت وحياتي يا يزيد ، وأمر ان يغنى في هذا
الشعر ، وأمر لي بألف دينار . وهذه الحكاية شبيهة بحكاية علي بن

الجهنم ، تدل على أن قبيلة كانت كثيرة التجني على المتوكل .
وحكى أحد الرواة قال : غضبت قبيلة مرة على المتوكل وهاجرت ،
فجلس ودخل الجلساء والمغنون وكان فيهم عبد الله بن العباس
الريبيعي المغني ، وكان عرف الخبر فقال هذا الشعر وغنى فيه :

« استمني واستمنك فدعني راض عني مصاحباً بسلام »
لم تجد علة تجني بها الذنوب فصار تفتل بالاحلام
فاذا ما شكوت ما لي قالت : قد رأينا خلاف ذا في المنام

قال : فطرب المتوكل وأمر له بعشرين ألف درهم ، وقال له :
ان في حياتك يا عبد الله لأنساً وجمالاً ، وبقاء لمرءة والظرف .
وذكر أحمد بن أبي قنن قال : خرجت قبيلة مرة الى مجلس
المتوكل في يوم نيروز ، وبيدها كأس بلور بشارب صاف ، فقال
لها : ما هذا - فدينك - قالت : هديتي لك في هذا اليوم ، عرفك
الله بركته ، فأخذ الكأس من يدها ، فرأى على خدها مكتوباً
بالمسك « جعفر » وهو اسمه ، فشرب الكأس وقبل خدها ، وكانت
فضل الشاعرة واقفة على رأسه فقالت :

وكانت بالمسك في الخلد « جعفراً » بنفسى سواد المسك من حيث أثرا
لئن أثرت بالمسك سطرّاً بخدها لقد أودعت قلبي من الحزن اسطراً
فيما من لمؤوك ملك يمينه مطيع له فيما أسرّ واطهرها
وبما من منها في السريرة جعفر سقى الله من سقى ثنائيك جعفراً
فأمر المتوكل عريب المغنية فقنت في هذه الابيات ، وقبل ان
هذه الابيات لمحوبة الشاعرة ، وإن فضل الشاعرة قالت :

سلافة كالقمر الباهر في قدح كالكوكب الزاهر

يدبرها خشف كيدر الدجى فوق قضيب اهيف ناضر
على فتى ادوع من هاشم مثل الحسام المرفف الباتر
ولما سجن المتوكل علي بن الجهم الشاعر الذي أسلفنا ذكره
نظم أبياتاً يستعطف بها ووجه بها الى السيدة قبيصة مستجيواً بها ،
مستغيثاً لها ، مستعيناً ايها علي عدة ندماء للمتوكل كانوا يحرضونه
عليه ، ويغرونه بقتله ، فبعثت قبيصة بالابيات ابنها المعتز الى ابيه
المتوكل ، فعطف علي ابن الجهم بعض العطف وآمنه من الهلاك ،
في تلك الابام التي كان الهلاك فيها ينصب على الانسان من
حيث لا يعلم .

ولثلاث ليال من شوال سنة ٢٤٧ ، قتل المتوكل سيد قبيصة
بسامرا . قال شمس الدين بن خلكان في ترجمة المتوكل من كتابه
« وفيات الاعيان » : وكان السبب في قتل المتوكل - على
ما حكى - انه قدّم ابنه المعتز على ابنه المنتصر ، والمنتصر اكبر
منه سنّاً ، وكان يتوعد المنتصر ويسبه ويسب أمه حبشية ، ويأمر
الذين يحضرون مجلسه من اهل الخف بسبه ، فسعى المنتصر في
قتله ووجد الفرصة فقتله ، قلت وارثك المنتصر مع الامراء
الاتراك امرأ فظيماً شنيعاً من حيث الاخلاق ، لان من التودي
في حماة النذالة والسفالة ، أن يقتل الانسان أباه كائناً من كان .
ولقد اهتمت قبيصة بتربية ابنها المعتز وتهذيبه وتأديبه وتعليمه ،
من ايام خلافة ابيه . قال ابو جعفر احمد بن عبيد بن ناصح الكوفي
النحوي ، مؤدب المعتز ومعلمه : لما اراد المتوكل أن يعقد للمعتز
ولاية العهد حططنه عن مرتبته قليلاً ، واخرت غداؤه عن وقته ، فلما

كان وقت الانصراف قلت للخادم: احمله، فحمله، فضربته من غير ذنب، فكتب بذلك الى المتوكل، واذ كنت في الطريق منصرفاً لحقني صاحب رسالة، فقال: امير المؤمنين يدعوك، فدخلت على المتوكل وهو جالس على كرسي والفضب يمين في وجهه، والفتح بن خاقان وزيره قائم بين يديه متكئاً على السيف، فقال لي: ما هذا الذي فعله بأبي عبد الله - يعني ابنه المعتز -؟ قلت: أقول يا امير المؤمنين؟ فقال: قل انما سألتك لتقول، قلت: بلغني ما عزم عليه امير المؤمنين - اطال الله بقاءه، فدعوت أبا عبد الله وحططت منزله، ليعرف هذا المقدار من الخط فلا يعجل بزوال نعمة احد، واخرت غداءه ليعرف هذا المقدار من الجوع، فاذا شكى اليه الجوع عرف ذلك، وضربته من غير ذنب ليعرف مقدار الظلم فلا يعجل على احد، فقال لي المتوكل: احسنت، وامر لي بعشرة آلاف درهم، ثم لحقني رسول من السيدة قبيصة بعشرة آلاف اخرى، فانصرفت بعشرين ألفاً. وهذه الحكاية على ان السيدة قبيصة وصاحبها المتوكل كانا يودان حسن التربية.

وبويع بالخلافة بعد المتوكل ابنه المنتصر بالله، فلم تكن خلافته إلا سنة اشهر، فبويع بالخلافة بعده احمد بن محمد بن المعتصم وثقب « المستعين بالله »، ولم يبايع احد من ابناء المتوكل لان المعتز وامه قبيصة والمؤيد، كانا خلعا انفسهما من ولاية العهد، في خلافة أخيهما المنتصر، أجبرا على ذلك، ولان غيرهما من ابناء المتوكل لم يكن مرغوباً فيه، وفي خلافة المستعين بالله العباسي، تدخلت السيدة قبيصة في سياسة الدولة، لتحوز الخلافة

لابنهما ابي عبد الله المعتز الذي دفع عنها بعد موت ابيه ،
 وخلع من ولاية العهد في خلافة اخيه ، وبعد حروب وكروب
 اصابته سامرا عاصمة الدولة العباسية وبعدد حاضرة المجد الاسلامي ،
 خلع الخليفة المستعين من الخلافة ، وكان ذلك سنة « ٢٥٢ » ، اي
 بعد سنتين وتسعة اشهر من استخلافه ، وببيع بالخلافة المعتز بالله ،
 فحرضته امه قبيصة على القواد الاتراك ، وكانت اليهم امور الدولة
 العباسية ، وقالت له : يا بني اقتلهم في كل مكان ، واخرجت
 اليه قميص ابيه المتوكل مخضباً بدمائه ، فقال لها : يا اماء ارفعيه
 ولا صار القميص قميصين ، وخشي ان يقتلوه كأييه .

ثم اخذ المعتز بن قبيصة بنتيج ما عند المستعين من المال
 والجواهر فآخذه ، حتى لقد أرسل اليه الجارية قرب وهي جارية
 امه قبيصة ، يسأله ان ينزل له عن ثلاث جوار من جوارى المتوكل
 على الله ، كانت المستعين نفسه تزوجهن ، فنزل له عنهن وجعل
 امرهن الى أنفسهن ، فلم يكن لهن خلاص من الدخول في عبودية
 المعتز بالله ، بعد ان كن زوجات حرات ، ثم دبر المعتز بالله في
 قتل المستعين بالله بعد ان اعطاه العهود الميمنة والمواثيق الغبظة ،
 فذبح كما يذبح الحروف وحمل رأسه الى المعتز بالله بسامرا ، وكان
 في مجلس هو وغشاء ، وكانت جارية من جوارى المستعين
 المعضوبات ، تنفيه وندماه في ذلكم المجلس من وراء الستارة
 لأن امه قبيصة كانت جالة مع الجوارى ، ولما رأى المعتز الرأس
 امر لفظته في قلبه وفظاظته في نفسه ، ان يدخل به على الجوارى ،
 ويوضع بين يدي جارية المستعين المغنسية ، وكانت معروفة بحبه

والتعلق به ، قال احد ندماء المعتز بالله : فنعن كذلك إذ سمعنا من وراء الستارة ضجة أفرغتنا ، فاذا جارية المستعين لصيح والسيدة قبيصة تشتمها ، والجارية الصائحة تقول :
« يا قوم اخذتوني غصبا ، ثم تجمئونني برأس مولاي المستعين فتضعونه بين يدي » فسمعنا صوت العود قد ضرب به رأسها ، وكانت التي ضربتها به السيدة قبيصة ، قال : فانصرفنا عن المجلس اقبح انصراف .

ومن هذا الخبر نعلم ان السيدة قبيصة وان كانت جميلة الصورة ، كانت قبيصة النفس والاخلاق ، وانها لم تسلم من قباحة امها قط ، والا فما هذه الوحشية المنكرة ؟ وكانت بخيلة تحتجن الاموال ، وتخفيها في المواضع المستورة مع احتياج دولة ابنها اليها ، ففي سنة ٢٥٥ هـ اعتقل مقدم القواد الاتراك صالح بن وصيف ، كاتبها الحسن بن مخلد واحمد بن اسرائيل ، وغيرهما من كتاب الدولة ، بحجة ان اموال الدولة في ايديهم وان الجنود يحتاجون الى الارزاق اي المعاشات ، وقيدهم واثقلهم بالحديد على رغم انف الخليفة وضرب احمد بن اسرائيل حتى كسرت اسنانه ، وبطح الحسن بن مخلد فضرب مائة سوط ، ولم يستطع صالح بن وصيف استخراج شيء من الاموال منهم ، فصار الجنود الاتراك الى الخليفة المعتز وقالوا له « اعطنا ارزاقنا حتى نقتل لك صالح بن وصيف » ، فأرسل المعتز الى امه قبيصة يسألها ان تعطيه مالا ليعطيهم ارزاقهم ، فأرسلت اليه تقول « ما عندي شيء » ، وقد وردت لنا صفائح فابنتظروا حتى نقبض ونعطيهم » فعلت ذلك لبخلها وشحها ،

وابت اعطاء شيء مع علمها بأن حياة ابنها متوقفة على المال .
فلما رأى الاتراك ومن كان بسامرا من الجند المعاربة أن بيت
المال خال ، وأن الخليفة المعتز وامه قد امتنعا من أن يسماحا
لهم بشيء من المال ، اجتمعوا على خلع المعتز من الخلافة ،
ولثلاث ليال بقين من رجب سنة ٢٥٥ حضروا دار المعتز بهوشة
وصباح ، وجلس رؤسائهم على باب داره ، وبعثوا اليه ان
أخرج الينا فبعث اليهم بجواب يقول فيه : « إني اخذت الدواء
امس وقد اجفني اثنتي عشرة مرة ، ولا اقدر على الكلام من
الضعف ، فان كان امراً لا بد منه فليدخل اليّ بعضكم فليعلمني ، فدخل
اليه جماعة من صفار القواد فجروا برجله ، بعد ما تناولوه بالضرب
بالدبابيس ، فخرج الخليفة وقميصه مرق مخرق وآثار الدم على منكبيه ،
فأوقفوه في الشمس وسط الدار في وقت شديد الحر ، قال احد
اسباب الخليفة اي محسوبيه : فجعلت انظر الى الخليفة المعتز يرفع قدمه
ساعة بعد ساعة ، من حرارة الموضع الذي أقيم فيه ، ورأيت
بعضهم يلطمه وهو يتقي بيده ، وجماوا يقولون له : الخلع
الخلافة ، حتى اجبروه على خلع نفسه ، واعطوه الأمان لانه قبيحة
ولاخته ولابنه ، ولكنهم وكأوا بامه نساءً يحفظنها على نية ان
يستخرجوا منها الاموال ، وباع الاتراك بالخلافة محمد بن الواثق
وتلقب بالمبتدي بالله وهو زاهد بني العباس ، ودفع الخليفة المعتز
إلى عدة رجال يعذبونه ويتعنونه الطعام والشراب ثلاثة ايام ،
فطرب حسوة من ماء البئر فمنعوه ، ثم جصصوا مرداباً بلجص
التخين ، وادخلوه فيه واطبقوا عليه بابه فأصبح ميتاً ، وكانت

وفاته ليلتين سخلنا من شعبان من هذه السنة اي سنة ٢٥٥ .

اما امه فبيحة فقد كانت اتخذت في الدار التي تكن فيها سرباً اي طريقاً تحت الارض ، واحنالت هي والجارية قرب واخذت المعتز فهربن من السرب ، واخفئ في سامراء ايضاً ، وبث صالح بن وصيف على قبيحة العيون اي الجواسيس والارصاد ، فلم يظفر بها ثم ظهرت من قبل نفسها في شهر رمضان من السنة المذكورة ، وسلمت نفسها الى الاتراك ، ودلتهم على الاموال التي عندها والذخائر والجواهر التي ادخرتها ، وكانت في الحقيقة قد عذمت على الفلك بصالح بن وصيف ، وآمرت الكتاب على ذلك وكتبت الى موسى بن بغا بالري تسأله القدوم الى سامراء وترك ما قبله من البلاد ، فلما اوقع صالح بالكتاب - كما ذكرنا في اول الانبساط - وعلمت انهم اقروا له بالموامرة ، بسبب ما نالهم به من العذاب أيقنت بالهلاك ، فعملت في التخلص فاخرجت ما في الخزان داخل قصر الجوسق بسامراء من الاموال والجواهر وفاخر المناع فاودعته ودائع ، وضمتها الى ودائع قديمة ، ثم اظهرته للاتراك ، ودلهم احد الجواسيس على كنز لها كان في دار صغيرة قريبة من المسجد الجامع بسامراء . قال احد اصحاب صالح بن وصيف : جاء بنا ذلك الرجل الجاسوس الى دار صغيرة نظيفة بمحضرة المسجد الجامع ، فدخلناها ففتشناها فلم نجد شيئاً ، فأخذ الرجل قاساً فجعل ينقر بها الحيطان ، حتى وقعت القاس على موضع استدل بصوته على ان فيه شيئاً ، فهدمه وإذا من ورائه باب ففتحناه ودخلنا اليه ، فأقضى بنا إلى سرب وصرنا

الى دار تحت الدار التي دخلناها ، بشكلها وبنائها ، فوجدنا من
الدنانير في اسقاط موضوعة على رفوف زهاء الف الف دينار
اي مليون دينار ، ووجدنا ثلاثة اسقاط : سقفاً فيه زمر
من النوع العالي ، وسقفاً دونه فيه حطب لؤلؤ كبار ، وسقفاً
دونه فيه ياقوت احمر لم ار مثله في الدنيا ، فقوّم الجميع اي
قدرت قيمته فبلغت الف دينار اي مليوني دينار ، فحملناه
كله الى صالح بن وصيف ، فلما رآه جعل لا يصدق ولا يوقن ،
حتى تأمله ودقق النظر فيه ، فقال عند ذلك : « قبح الله قبيحة
وقعل بها وفعل ، عرضت ابنها للقتل في مقدار خمسين الف دينار ،
وعندها مثل هذا في خزائنه واحدة من خزائنها ! »

وكان لقبيحة اموال ببغداد فكتبت تأمر بحملها الى سامرا
انعطيا صالح بن وصيف ، فوصل منها في شهر رمضان فمدر
خمسائة الف دينار ، ووقعوا لها على خزائن ببغداد فحملت
مقادير منها الى سامرا ، ولم تزل تباع تلك الخزان ببيعاً متصلاً
ببغداد وسامرا عدهور حتى نفذت ، ولم تزل قبيحة مقيمة
بسامرا الى ان شئخص الناس الى مكة حاجين في هذه السنة ،
فأشخصت هي وابنها الثاني اسماعيل وحفيدها عبد الله بن المعتز وجماعة
غيرهم الى مكة منفيين ، والظاهر ان صالح بن وصيف لم يكتف
بكنوزها بل تجاوزها الى الاعتداء على عفافها قائله الله - فقد
سمعت في طريقها الى بيت الله الحرام تدعو الله على صالح بن
وصيف بصوت عال تقول : « اللهم أخز صالح بن وصيف كما
هتك ستري وقتل ولدي ، وبدّد شبلي واخذ مالي وغربني عن

بلدي وركب الفاحشة مني « ، وبقيت قبيحة بمكة ، مع جماعتها
منفية حتى اعادها الى سامرا الخليفة المعتمد على الله احمد بن جعفر
المتوكل وكان ذلك في اول خلافته ، واكرمها فهي صاحبة ابيه ،
ثم قتل صالح بن وصيف سنة ٢٥٦ .

وقضت السيدة قبيحة بقية عمرها في سامرا حتى توفيت بها ،
في شهر ربيع الاول سنة ٢٦٤ هـ في خلافة المعتمد على الله المذكور
آنفاً ، ودفنت هناك ، تاركة للتاريخ سيرة من اعجب السيرة ،
سيرة سيدة جميلة صبيحة قاسية القلب متوفسة سياسية ، امنت
الدهر بها وامتنعها ، ورزأها القدر صاحبها المتوكل وابنها المعتز
وعرضها واموالها وكنوزها ، وقد ذكر لها المؤرخون ذوقاً في
البناء ، قال احمد بن حمدون : بنى المعتز في قصر الجوسق في
الصحن المكمل بسامرا بيتاً قدرته له امه قبيحة ومثلت حيطانه
ومقفوه ، فكان احسن بيت رُئي ، فدعاها المعتز اليه ، الى آخر
الخبير مما لا يخرج عن السكر والغناء ، ويمينا منه انها هي التي
نظمت خارطته وصورته ، فبرهنت على حسن ذوقها في العمارة .

فضل صاحبة المتوكل

كانت فضل من النسوة الخوالد ، دوات الآثار الكريمة
راولات الاخبار الطريفة والآداب البارعة . ولئن جاز فلناريخ
أن يتغاضى عنها من حيث هي سيدة من سيدات البلاط العباسي ،
لأن تاريخنا قارىخ الرجال ، لم يجوز له أن يتغاضى عنها من حيث
أدبها الرفيع وشعرها الشاعر وروحها الخفيفة ، وفصاحتها المحكمة
وبديتها الحاضرة في النظم والنثر .

كانت فضل من الجواري المولدات في اليمامة في القسم الشرقي
الجنوبي من جزيرة العرب ، ونشأت هناك في رجل من قبيلة
عبد القيس ثم نقلت الى العراق مثل كثير من الجواري المولدات
اللواتي تقفن بالثقافة العربية ، وادبن بالآداب الاسلامية ورببن
على الفصاحة والبلاغة ودربن على الانشاء والايقاع والعزف والغناء ،
كل على حسب قابليتها الطبيعية وملكتها المكتسبة وهواها وولعها .
اشتراها بالعراق محمد بن الفرج الرجّاني ، من اعيان الدولة
العباسية ، اشتراها على انها اديبة اربية ، شاعرة مجيدة ، كاتبة
بارعة ، وهذه الصفات بل الخصائص كانت بما يغلي عن الجارية
ويعليه ، ويجعلها مطلوبة مرغوبة محبوبة ، ثم اهداها الرجّاني الى الخليفة
المتوكل على الله ، وكانت دار خلافته - كما هو معروف - سامرا ،

وكانت الدار عظيمة فضة فيها قود القصور ولا سيما القصر الجعفري المنسوب الى اسمه « جعفر » . وكذلك المدينة التي بناها عند القصر فانها صارت اكبر من سامرا وهي المدينة المتوكلية ، وإذ كان المتوكل نهى الرعايا عن الخوض في الجدال والمماراة في المذاهب الدينية والمناظرات في القرآن الكريم المخلوق هو ام قديم ؛ كثر الانصراف الى اللهو والأدب والشعر والغناء واتخاذ الجواري الاديبات والشاعرات ، والمغنيات في البلاط العباسي نفسه خاصة ، لان محل الخلطة يجب ان يكون فيه من شواغل الاجسام والارواح وملاهي النفوس ومزجيات الاوقات . فلم يكن غريباً ان يكون في البلاط المتوكلي مثل فضل الشاعرة الكاتبة الظريفة ومحبوبة الشاعرة المطبوعة الجميلة المغنية وان لم يكن غناؤها من الطبقة الاولى . وهاتان الشاعرتان تذكران معاً دائماً ، قال عبد الله بن المعتز - وهو من اعلام الشعر والادب - قال لي ابراهيم بن المهدي : كانت فضل الشاعرة من احسن خلق الله حظاً وافصحهم كلاماً وابلقهم في مخاطبة واثبتهم في محاوره ، وقال ابن المعتز ايضاً : كانت تهاجي الشعراء ويجتمع عندها الادباء ولها في الخلفاء والملوك مدائح كثيرة .

قال بعض المؤرخين : لما دخلت على المتوكل يوم اهدائها اليه قال لها : اشاعرة انت يا فضل ؟ قالت : كذا يزعم من باعني ومن اشتراني يا امير المؤمنين . فضحك المتوكل وادرك رقة طبعها ثم قال لها : انشديني من شعرك يا فضل ، فقالت :
استقبل الملك امام الهدى عام ثلثات وثلاثين

خلافة افضت الى جعفر وهو ابن سبع بعد عشرينا
انا لندرجو يا امام الهدى ان تلك الامر ثمانينا
لاقدس الله امراً لم يقل عند دعائي لك آمينا
فقال المتوكل لعلي بن الجهم السامي الشاعر :- وكان حاضراً
بجلسه - قل بيتاً . وطلب من فضل الشاعرة ان تجيزه فقال
علي : اجيزي يا فضل :

لاذ بها يشتكي اليها فلم يجد عندها ملاذاً
فأطرقت هنيئة ثم قالت :

ولم يزل ضارعاً اليها تطل اجفانه رذاذاً
فعاتبه فراد عثفاً فمات وجداً فكان ماذا؟

فطرب المتوكل - وحقق له ان يطرب - وقال احسنت وحياتي
يا فضل . وامر لها بالقي دينار جائزة لها .

وكان ذلك امتحاناً لها لان النظم في الحال والاجازة على حسب
الطلب - اعني اتمام الشعر الناقص المعنى - بدلان على الملكية
الشعرية وقوة البديهة والقدرة على النظم ، فمن لم تكن له ملكة
ادبية قصر وبان عجزه .

دخلت فضل بذلك الامتحان العسير بلاط المتوكل وصارت
من سيداته إلا انها لم تكن من الجمال على نصيب يجعلها سيدة
السيدات ، وكانت السيدة قبيصة الرائعة الجمال اولى سيدات
البلاط ، وكان شعر فضل بضاعة ادبية تعرض عند الطلب وتسان
وتحفظ عند كساد السوق .

كنا ذكرنا في ترجمة السيدة قبيصة انها امرت فضل الشاعرة

ان تنظم ابياتاً على حسب هواها ، لتكون وسيلة لها الى تروحي المتوكل بعد اعراضه عنها في حادثة جرت بينهما ، فنظمت قولها :
لا كتمن الذي في القلب من حرق حتى اموت ولم يعلم به الناس
ولا يقال شكاً من كان يعيشه ان الشكاة لمن تهوى هي الباس
ولا ابوح بشيء كنت احسنته عند الجلوس اذا ما دارت الكاس
وبعد قتل المتوكل سنة ٢٤٧ هـ تفرقت جواريه فمنهن من وجدت في هلاكه بؤساً وحرجاً كمجبوبة ومنهن من وجدت فيه خلاصاً وفرجاً مثل فضل فانها اطلقت حبها المزموم وباحت بقرامها المكتوم ، لعاشقها سعيد بن حميد الكاتب المشهور وكان هذا الرجل من أشد الناس بغضاً للعلويين واعراضاً عن أهل البيت وكانت فضل على العكس متبعية متعصبة لأهل مذهبها تقضي حوائجهم بجاهها ، فتوكلت من أجل حبه مذهبها وصدفت عن قديم طريقها وهكذا كان النصر والفوز للحب والغلبة للقلب على اللب والظفر للمشرب على المذهب .

وبعد هذا العشق التبيت عاطفة فضل الشعرية واسترسلت ملكتها الادبية فما في حوافز الادب حافز اقوى من الحب ، وأنت البارع من النظم والنثر اللذين جعلها معروضة على راحتها فلا كتمان ولا إخفاء ولا مداينة ولا استحياء ، ولقد ظن معاصروها ان صاحبها سعيد بن حميد كان يكتب لها رقاعها ببلاغته المعروفة ، مع انها كانت اكتب منه وأبلغ وأشعر وآدب ، كيف لا وقد قيل ان سعيد بن حميد كان يغير على نفيس كلام الناس فيجعلها في رسائله ولو قيل لكل جملة من رسائله : ارجعي

الى صاحبك لم يبق له منها شيء . قال ابراهيم بن المهدي : قلت لسعيد بن حميد ذات يوم : اظنك يا أبا عثمان تكتب لفضل رقاعها وتفيدها وتخزئها فقد اخذت طريقتك في الكلام وسلكت سبيلك . فقال لي وهو يضحك : ما أخيب ظنك ! ليتها تسلم مني : انني لأخذ كلامها ورسائلها ، والله يا أخي لو اخذ افاضل الكتاب وأماثلهم عنها ما استغنوا عن ذلك .

وكان يحدث بينهما ما يكون بين المتعاشقين من الدلال خوف الملل وتجنبي الذنوب لاغراء المحبوب ، او لامتحان القلوب ومن تكلف الهجر لاختبار الصبر ، فقد ذكروا ان سعيد بن حميد كان ذات يوم في مجلس الحسن بن مخلد الكاتب بسامرا فجاءه الغلام برقعة فضل الشاعرة تذكر فيها شوقها . فقرأها وضحك . فقال الحسن بن مخلد : بحياتي عليك ، أقرئنيها . فدفعها اليه فقرأها وضحك وقال : قد وحياتي ملحت فضل ، فأجب وحقي انت بكلام مليح . فكتب اليها سعيد :

يا واصل الشوق عندي من شواهد قلب عليم وعين دمعها يكف والنفس شاهدة بالود عارفة ونفس الناس بالاهواء تأتلف فكن على ثقة مني وبينـة اني على ثقة من كل ما نصف وذكر محمد بن السري احد اصحاب سعيد بن حميد قال : ذهبت الى سعيد وهو في دار الحسن بن مخلد في حاجة لي وبينما كنت هناك جاءته رقعة فضل للشاعرة وفيها هذان البيتان :

الصبر يقضى والغرام يزيد والدار دانية وانت بعيد

اشكوك ام اشكو اليك فانه لا يستطيع سواهما المجهود
 ونحت البيتين تقول « يا ابا عثمان انا في حال التلف ولم تعدني
 ولا سألت عن خبري » . قال محمد بن السري : فاخذ سعيده
 بيدي ومضينا اليها فسأل عن خبرها فقالت : هوذا أموت ونستريح
 مني . فانثأ يقول :

لا مت قبلي بل احيا وانت معاً ولا اعيش الى يوم تموتينا
 لحكي نعيش بما نهوى ونأمله ويرغم الله فينا انف واشيننا
 حتى اذا قدر الرحمن نيتنا وحان من امرنا ما لبس يعدونا
 مثنا جميعاً كفصني بانه ذبلا من بعد ما نضرا واستوسقا حيننا
 ثم السلام علينا في مضاجعنا حتى نعود الى ميقات منشينا

السيدة شغب ام المقتدر بالله

ان هذه السيدة من ذوات السير الحافلة بالحوادث والاعمال ، ولم تكن سيرتها بأقل شأنًا من سير كبريات النساء في العالم ، من ملكات ومتحركات ، ومشاركات في السلطان .

كانت السيدة شغب في اول أمرها جارية لاحدى النساء الكبيرات ببغداد ، ثم غلقتها الخليفة ابو العباس احمد المعتضد بالله ابن ولي العهد الموفق طليحة ، وكان يقال لها « ناعم » ، لثاني ليال بقين من شهر رمضان سنة ٢٨٣ ، ولدت للمعتضد ابناً سماه « جعفر » ، وهو الذي لقب بالمقتدر بالله حين ولي الخلافة ، ولما ولدته غير المعتضد اسمها رسمياً « شغب » ، وكانت ولادتها ولداً ذكراً شغباً وتحريشاً ، بالاضافة الى نساء الخليفة المعتضد ، وتوفي المعتضد عنها في سنة ٢٨٩ ، وولي الخلافة بعده ابنه المكتفي بالله ولبث في الخلافة حتى سنة ٢٩٥ ، فتوفي فيها وهو آخر الخلفاء الحازمين في عصر نهضة الدولة العباسية بعد كبريتها الاولى ، وولي الخلافة بعيده اخوه ابو الفضل جعفر بن السيدة شغب ، وهو ابن ثلاث عشرة سنة وشهر واحد وايام ، وكان اصغر من تولى الخلافة من بني العباس ، ولذلك اراد المتلاعبون بالخلافة خلعه مرتين فلم يفلحوا ، وفي خلافته ظهر شت والدته شغب ، وعلا امرها

وتحكمت في الدولة ، ودارت امور الدولة على تدبيرها وتدبير
القهرمانات وغيرهن من النساء ، فأصابها تخليط كثير وجرها سوء
التدبير الى سوء العاقبة ، كما هو مفصل في كتب التاريخ .

وصارت السيدة شغب في عهد ابنها المقتدر لا تعرف لا بالسيدة ،
فكان القائل اذا قال « امرت السيدة » علم انها شغب ام المقتدر ،
وكذلك ورد اسمها في التواريخ ، واتخذت لنفسها ديواناً يقوم
بأموره كاتب يجري بحرى الوزير ، وأول كاتب ولته ديوانها احمد
ابن العباس بن الحسن ، وكان ابوه العباس بن الحسن وزير المقتدر
وجعلت لنفسها قهرمانة أي حاكمة ، وبعد اشهر خلع ابنها المقتدر ،
وبويع بالخلافة عبدالله بن المعتز الاديب الشاعر المشهور ، إلا أن
حزب المقتدر لم يدعنوا لهذا الخلع ، وقالوا حزب عبدالله بن المعتز
فشتنهم ، لأنهم لم يكن لهم اموال يجذبون بها القلوب ، ويصالحون
بها الامور على الضد من حزب المقتدر فان معهم يوسف بن انبغاس
وهارون بن عمران اليهوديين الصيرفيين وحزب المال هم الغالبون ،
وبقي المقتدر في الخلافة وقتل عبدالله بن المعتز ، وتعاضل حكم
السيدة شغب في الدولة ، وكان لها اسم « غريب » ويعرف
بغريب الحال اي خال المقتدر ، فتمكن في الدولة ايضاً ، وصار
ابنه هارون من أعظم قادة الجيوش فيها .

وفي سنة ٣٠٦ امرت السيدة شغب قهرمانتها واسمها ثل أن
تجلس بالرصافة قرب مدفن الامام أبي حنيفة ، وتتنظر في مظالم
الناس وشكاياتهم من الحكام والمتولين ، وجعلت ذلك في كل
جمعة ، فأنكر الناس ان تحكم بينهم امرأة ، واستبشعوا فعل

السيدة شغب وعابود عليها ، ولكن قُتل القهرمانة احضرت معها
القاضي ، فكانت تستشير في الاحكام ، فسار امرها على سداد
واستقامة ، وانفع بذلك المظلومون ، وترك الناس استنكارهم
وطعنهم ، وأيقنوا ان العدل هو المنشود لا الذي يقيسه من
ذكر واتى وابيض واسود .

وفي هذه السنة نفسها - اعني سنة ٣٠٦ في المحرم منها أنشأت
السيدة شغب مارستاناً أي مستشفى بسوق يحيى بالرصافة ، وكان
سوق يحيى على شط دجلة على مقربة من الحلة المعروفة اليوم بحلة
السفينة في الاعظمية ، وجعلت امره الى الحكيم سنان بن ثابت
الصابي أي الصبي ، فجلس فيه ورتب الاطباء الذين يعالجون فيه
مرضى الناس ، وكانت النفقة عليه كل شهر ستمائة دينار ، وأشار
سنان الصابي على المقتدر ان يتخذ مارستاناً يوسم باسمه ، فأنشأ
مارستاناً بباب الشام فعرف بالمارستان المقتدري ، وكانت محلة
باب الشام غربي الشالجية ، وكانت نفقته الشهرية مائتي دينار ،
ولم يكن احسان السيدة شغب محدوداً بشئ هذه الامور النافعة ،
بل كانت تصدق كثيراً ونحس الارقاف على المصالح الخيرية ،
وتواظب على مصالح الحجاج وتبعث مع قافلتهم بخزانة شراب
المرضى ، وترسل الاطباء لمعالجتهم ، وتأمر باصلاح الاحواض في
الطريق ، وكان يرد خزائنها من املاكها مليون دينار في كل سنة ،
والاحسان وان كان من السيسة فانه جزء ضئيل منها .

وقد حاولت هذه السيدة في سنة ٣١٦ ان تقلل مؤنساً المظفر
مقدم الجيوش العباسية ، فاتصل به انها قد وضعت له جماعة ،

ليفتكوا به اذا دخل دار الخلافة ، وهي التي قلنا ان ارضها هي ارض سوق المستنصر الحالي ، فاستوحش مؤنس المظفر واحترس ، وطلب من الخليفة الخروج الى الثغور وترك الاقامة ببغداد ، فأذن له الخليفة ولكن حالت بينه وبين ذلك الحوادث ، وتغير قلبه بعد ذلك ، حتى بلغ به التغير ان حارب الخليفة وقتله - كما هو معروف في التاريخ - ولما اراد المقتدر ان يخرج في سنة ٣٢٠ الى حرب مؤنس المظفر بالشامية وهي محلة الصليخ الحالية ، جزعت أمه وجهدت به ألا يخرج وكشفت عن تديبها - على عادة النساء في المنصب - وبكت ، فغلب القضاء ونزل البلاء ، وخرج المقتدر فقتل هناك وولي الخلافة بعده اخوه ابو منصور محمد بن احمد المعتضد ولقب بالقاهر بالله .

قيل : لما اراد المقتدر الخروج الى حرب مؤنس المظفر قال لأمه شغب : « قد ترين ما وقعت فيه وليس معي دينار ولا درهم ، ولا بد من مال يكون معي ، فأعينيني بما معك من المال ، فقالت له : « قد اخذت مني يوم سار القرمطي الى بغداد ثلاثة آلاف الف دينار اي ثلاثة ملايين - وما بقيت لي بعدها ذخيرة الا ما ترى ، واحضرت له خمسين الف دينار ، فقال المقتدر : « واي شيء تغني عني هذه الدنانير ، واي مقام تقوم لي هذه الخمسون ألفاً في عظيم ما استقبله ؟ » ثم قال لها « اما انا فمخارج كيف كنت وعلى ما استطعت ، ولعلي اقتل فاستريح ، ولكن الشأن فيمن تبقى بعدي ، ويقبض عليها وتعذب ، وتعلق في هذه الشجرة تعلية دراجية » وأشار الى شجرة كانت في بعض دور

الحلافة . قالت ذلما المنجمة وكانت متصلة بالمقتدر ونائه :
 « فوالله لقد قبض على شغب وعلفت في تلك الشجرة بعينها ،
 على ان السيدة شغب لم تكن كاذبة فيما قالت لابنها ، ولم تكن
 كالسيدة قبيصة ، اعانت ببخلها على قتل ابنها المعتز وكان الخليفة
 القاهر بالله العباسي هو الذي سامها سوء العذاب وطالبها بالاموال ،
 وكان قد قهرها بالرفق والتهديد ، فجعلت له انما لا مال عندها
 ولا جواهر ، الا صناديق فيها ثياب ومصاغ وطيب ، وذكرت
 انها لو كان عندها مال ما اسلمت ابنها القتل ، فضرهما بيده
 وعلقها منكسة برجل واحدة على شجرة ، وكان يولها يجري على
 وجهها ؛ - ولا حياء في التاريخ - ولم يجد عندها غير ما اقوت به
 وقيمته « ١٣٠ » الف دينار . وذلك التعذيب يدل على وحشية في
 القاهر بالله وفظاظة نفس وعظمة قلب ، فقالت له « لو كان معي
 مال ما جرى في امرنا من الخلل ما آل الى جلوسك حتى
 تعاقبني هذه العقوبة ، وانا امك في كتاب الله وقد خلصتك من
 ابني في الدفعة الاولى » ، تشير الى محاولة حاولها قواد الجيش
 سنة ٣١٦ خلع المقتدر وتولية القاهر ولكن اعمالهم حبطت .

ثم احضر القاهر اليها الشهود ، لبشدها عليها بانها وكلته في
 بيع املاكها ، ووقفت هي وراء الباب ، فلم يقنع الشهود بذلك
 بل ارادوا رؤيتها بأعينهم ، على وفق ما اوجبه الشريعة ، فأوها
 وكموها قال احدهم : رأينا عجوزاً دقيقة الجسم سمراء اللون
 الى البياض والصفرة ، عليها اثر ضر شديد ، وكانت قبل ذلك قد
 مرضت وفسد مزاجها ، ثم اصابها مصيبة قتل ابنها وبقيائه بالعرء

غير مدفون ، وامتنعت من الاكل والشرب حتى كادت تموت ،
فما زالوا يرفقون بها حتى اكلت كسرة خبز بملح ، وكان الامير
علي بن يلبق قد التزم جانبها ، فطالب القاهر بالله بان يسلم ما
بقي في يده من متاع السيدة شغب فسلمه اليه وباعه ، ونقل
السيدة شغب الى بيت والدته ، فبقيت مكرومة المشوى مكرومة
عشرة ايام ثم توفيت ، وكانت وفاتها بعد قتل ابنها بسبعة اشهر
وثمانية ايام ، ودفنت بالرصافة بالجانب الشرقي من بغداد .
ولهذه السيدة اخبار كثيرة جمعت بين الغرابة والطرافة ،
وكانت في قضية الحسين بن منصور الحلاج الشهيرة ، منعت ابنها
المقتدر من الاذن بقتله ، واخرته اياماً خوفاً على ابنها ولكنها لم
تستطع تخليص الحلاج من القتل ، لانه ظهر في ايام القرامطة
الزنادقة ومن وضع نفسه في موضع الريبة والتهمة فلا يلومن
الا نفسه . . .

السيدة قطر الندى

زوجة الخليفة المعتز بالله العباسي

لقد اشتهرت من سيدات البلاط العباسي ، باسم قطر الندى سيدتان ، احدهما قطر الندى بنت خمارويه امير مصر ، وقيل اسمها « أسماء » ولقبها قطر الندى ، ولأخرى قطر الندى أم الخليفة القائم بامر الله واسمها « علم » وموضوعنا هذا مقصور على قطر الندى بنت خمارويه ، كما ذكرنا في عنوان الحديث . إن هذه السيدة هي حفيدة احمد بن طولون القائد التركي ، الذي أسس الدولة الطولونية بمصر ، وقطعها من مملكة بني العباس واستقل فيها ، وابوها خمارويه بن احمد بن طولون المذكور ولد بالعراق سنة « ٢٥٠ هـ » ، وأخذته أبوه معه الى مصر ونشأ هناك وتزوج فولدت له قطر الندى ، وكانت موصوفة بفرط الجمال ووفرة العقل وحسن الادب وكمال الخلق ، وكان جدها احمد بن طولون يمد خارجياً خارجاً على الدولة العباسية ، القنّة باسم الموفق طلحة بن المتوكل على الله وهو وليّ عهد اخيه المعتمد على الله الخليفة العباسي ، ولم يكن للخليفة إلا الاسم والوسم ، ولما فرغ بنو العباس من أمر علي بن محمد صاحب الزنج الناصر - كان - في البصرة ونواحيها المدعي انه الامام القائم بالحق الموعود به ، وجهوا جيوشهم نحو الأطراف العاصية كمصر وغيرها ، فخشي خمارويه أن تطول الحروب والكروب بينه وبين بني العباس ،

فيادر الى المعتضد بالله أبي العباس احمد الخليفة الجديد ، بالهدايا
 والتحف العظيمة ، وأرسل بها مع تاجر من تجار بغداد الكبار
 إذ ذاك ، وهو الحسين بن عبد الله المعروف بابن الجصاص ،
 ووصل هذه الى بغداد سنة ٢٧٩ وكان معه من الهدايا ، عشرون
 حملاً من الدنانير على بغال ، وعشرة غلمان من الخدم أي المماليك
 وصندوقان فيها قماش فاخر ، وعشرون رجلاً على عشرين فرساً
 نجيباً ، بسروج محلاة بحلية فضة كثيرة ، ومعهم حراب فضة ،
 وعليهم أقبية الديباج والمناطق المحلاة ، وسبع عشرة دابة بسروج
 ولحم ، منها خمسة بنذهب والباقي بفضية ، وسبع وثلاثون دابة
 بجلال مبرقشة ، وخمسة أبغل فارهة بسروج ولحم ، وزرافة ،
 وأرسل اليه برسالة يطلب فيها الى المعتضد ، أن يزوج ابنته
 قطر الندى من ابن الخليفة علي بن المعتضد ، وهو الذي ولي
 الخلافة بعدئذ ولقب بالملكفي بالله ، وكان جميل الصورة ايضاً ،
 وفي ذلك قال الشاعر :

فايست بين جماها وفعاله - فاذا الملاحه بالحيانة لا تفي
 والله لا كاتبا ولو انها - كالشمس او كالبدر او كالملكفي

وكان من المؤلف المعتاد بين العطاء في ذلك الزمان أن
 يخاطب الأمير رجلاً عظيماً لابنته كما فعل الأمير خمارويه ، فقال
 للمعتضد للرسول : إنما اراد خمارويه ان يتشرف بنا وانا ازيد في
 تشريفه : انا اتزوجها ، وكان المعتضد كثير الميل الى النساء
 وكأنه سمع بجمال قطر الندى فأرادها لنفسه ، وكان في تلك
 الايام قد خرج من بغداد الى مدينة بلد التي فوق الموصل ،

فبعث من هناك بصداق قطر الندى إلى أبيها خمارويه وهو مليون درهم ، مع شيء كثير من المتاع والطيب وتحف الصين والهند والعراق ، وبعث إلى خمارويه خاصة كعبساً من الجواهر المشن فيه در وباقوت و نواع من الجواهر ووشاح وتاج واكليل وقلنسوة ، وكان وصول ذلك إلى مصر سنة ٢٨٠ هـ .

وحينئذ أخذ خمارويه في تجهيز ابنته قطر الندى بجهاز يليق بعظمة الخلافه العباسية ، وكان من جملة الجهاز دكة من ذهب مركبة من اربع قطع ، عليها قبة من ذهب مشبك في كل عين من التشبيك قرط معلق فيه حبة من جواهر عظيمة القيمة ، ومائة هاون من الذهب وقيل الف هاون ، واشياء كثيرة بحيث ان الفضة التي بقيت من ثمن الجهاز كانت اربعمائة الف دينار ، فوهبها خمارويه لابن الجصاص وقيل ، بل قال له : اعسل في العراق بما تحتاج اليه شيئاً ليس عندنا ، فاشتره لها بهذا المبلغ ، فلم يشتر ابن الجصاص شيئاً والط المبلغ وأكله . ولا فرغ الامير من جهاز ابنته قطر الندى ، أمر بان يجعل لها في الطريق بين مصر والعراق في كل منزلة من منازل السفر ، قصر كامل وان يكون في هذه القصور ما تستعمله على حسب عاداتها في بيت ابينا ، وفي هذا الخبر شيء من المبالغة ، والظاهر انهم ارادوا بالقصور نعيماً فيها المتام والطعام والشراب والمستراح والمقتل ، فكانت اذا وصلت إلى منزلة من المنازل وجدت فيها ما يسد حاجتها ، قال احد المؤرخين : (وكانت قطر الندى في مسيرها من مصر إلى بغداد على بعد المسافة كأنها في قصر ابينا ، وهذه مبالغة كما قلنا ،

ومنهم من زعم ان المعتضد تزوجها ليفقر أباهما ويقلل امواله ، فلا يستطيع أن يبني دولة قوية ، على ان المعتضد اشترط على خمارويه ان يحمل اليه من خراج مصر مائتي الف دينار في كل سنة ، وهذا مقدار قليل على من تولى مصر فانها معدن الاموال . وكان مع قطر الندي عمها شيان بن احمد بن طولون ، وخرجت تشيعها من الفسطاط عنها العباسية بنت احمد بن طولون ، فلما بلغت آخر الاعمال المصرية من جهة الشام ودعتها ورجعت الى مصر . وذكر المؤرخون ان ابن الجصاص التاجر اخفى جملة صالحة من جواهر قطر الندي ، واعلمها ان ذلك يبقى وديعة عنده الى وقت حاجتها اليه ، ولكنه نام على الوديعة حتى وفاة قطر الندي ، وكثر بها غناه وثروته ، إلا ان ذلك سبب له محناً ونكبات في ايام الخليفة المقتدر ، فقد قبض عليه واخذت منه اموال كثيرة بهذا السبب وبغيره من الاسباب .

ودخل موكب قطر الندي بغداد يوم الاحد ليلتين خلفنا من المحرم سنة ٢٨٢ ، وانزلت هي في دار صاعد بن مخلد ، وكانت في الجانب الشرقي على الشط فوق ارض المجيدية ، ولا نعلم موقعها على التحقيق ، وكان الخليفة المعتضد يومذاك غائباً ايضاً بالموصل ، ولأربع لبال خلون من شهر ربيع الآخر ، نقلت قطر الندي من دار صاعد الى قصر المعتضد بالله قرب ارض المحكمة الشرعية الحالية ، وكان انتقالها في سفينة تعرف إذ ذاك بالخرافة ، ومعها عدة حرافات وشذوات ، والشذوات هي سفن صغيرة ، وامر المعتضد ان ينادى بجانيي بغداد ، ان لا يعبر احد

في دجلة يوم الاحد؛ وأمر باغلاق ابواب الدروب التي تقضي الى الشط ، ومد على كل شارع نافذ الى دجلة شراع ، ومنع الناس الساكنين على جانبي دجلة ان يظهروا في اجنحة دورهم اي بالكوناتها ، ثلثا يروا قطر الندى ، وهذا امر غريب لا يخلو من التجبر . وسارت حراقة قطر الندى في دجلة بعد العشاء تحف بها الحراقات ، وقدامها الشدوات ، حتى وصلت الى قصر المعتضد بالله فأخرجت اليه ، وأقامت فيه يوم الاثنين ، وزفت اليه يوم الثلاثاء لحس ليال خلون من شهر ربيع الاول من السنة المذكورة - أعني سنة ٢٨٢ - ، وفي ذلك قال ابن الرومي :

يا سيد العرب الذي زفت له باليمن والبركات سيدة العجم
اسعد بها لعودها بك انها ظفرت بما فوق المطالب وانهم
ظفرت بما الى ناظرها بهجة وضميرها نبلا وكفيها كرم
شمس الضحى زفت الى بدر الدجى فكشفت بها عن الدنيا ظلم
وفي آخر السنة التي زفت فيها فطر الندى قتل ابوها خمارويه
بمصر ، فقد ذبحه على فراشه بعض خدومه ، وكان المعتضد قد
بعث مع ابن الجصاص هدايا الى خمارويه وأودعه رسالة اليه ،
فخرج ابن الجصاص من بغداد فلما بلغ سامرا وصل الى المعتضد
خبر موت خمارويه ، فكتب الى ابن الجصاص يأمره بالرجوع ،
فرجع الى بغداد واعاد معه الهدايا والرسالة .

ولبثت السيدة فطر الندى مع زوجها المعتضد حتى سنة ٢٨٧ ،
ولم ترد مدتها معه على خمس سنوات ، فقد توفيت في شبها ببغداد
لسبع ليال خلون من رجب من السنة المذكورة . ودفنت داخل

قصر الرصافة وهو القصر الذي بناه المهدي العباسي ، وكانت الرصافة مجاورة لمدفن الامام ابي حنيفة . كما قلناه مراراً .
وبما جاء من الأخبار في ادب السيدة قطر الندى ، ان المعتضد خلا بها يوماً في مجلس افرده لها ، ولم يكن فيه أحد سواها ، فأخذته النعاس فقام على فخذه ، فلما استقل وأغفى وضعت رأسه على وسادة وخرجت من المجلس الى ساحة القصر ، فاستيقظ المعتضد فلم يجد ، فاستشاط غيظاً وفادها فأجابته عن قرب ، وقال لها : ألم أدخل بك اكراماً لك ، ألم ادفع اليك مہبتي دون سائر حظاياي ، فتضعين رأسي على وسادة وتذهبين ؟ ! فقات له : « يا امير المؤمنين ما جئت قدر ما أنعمت علي ، ولكن فيما أدبني به ابي ان قال لي : لانامي مع الجالسين ولا تجلسي مع النائمين » .

ولم تترك السيدة قطر الندى اثرأ في العراق يبعث الناس على تذكرها ، ولا تدخلت في سياسة الدولة حتى يذكرها التاريخ السياسي ، وللظاهر لنا انها على اشتهار جمالها وذیوع صباحتها وملاحتها ، لم تستطع امتلاك قلب المعتضد بالله ، لكثرة الجواري الجميلات في ذلكم الزمان ولا سيما دُريرة جارية المعتضد ، التي اشتهر عنه أنه كان يحبها حباً جمّاً مفرطاً ، وكانت زوج قطر الندى سياسياً لا طبيعياً اي لا دخل للقلب فيه ، وربما كانت تأمل - وهو الحق - ان يتزوجها علي بن المعتضد تزوج الشاب بالشابة ، فاستحوذت عليها فانانة المعتضد ، وجعلتها تودع الدنيا غير آسفة عليها ، وهي لم تتجاوز من العمر عشرين سنة .

خديجة خاتون السلجوقية

زوجة الخليفة القائم بامر الله

كان اسم هذه السيدة « أرسلان خاتون » ، فاضافت اليه اسم « خديجة » تيمناً وتبركاً بهذا الاسم الكريم ، وابوها دارة جفري بك هو آخر السلطان طغرل بك مؤسس الدولة السلجوقية ، وكان السبب في تزويجها بالخليفة القائم بامر الله ، رغبة عمها طغرل بك في توثيق الصلة بين البيت السلجوقي والبيت العباسي ، بعد ان استولى على العراق وازال الدولة البويهية المتداعية الواهية ، وازدفر بثورن الخلافة العباسية وباشرها نيابة عن الخليفة . وكان عقد الزواج في يوم الخميس لثمان بقين من المحرم سنة ٤٨٨ هـ ، وقد حضر العقد قاضي القضاة ابو عبد الله محمد بن علي بن الدامغاني المشهور ، وأبو الحسن المارودي البصري وكان اقضى القضاة ، ورتبة اقضى القضاة اول من رتبة قاضي القضاة ، وحضر كذلك عميد الملك منصور بن محمد الكندري وزير طغرل بك ، ونقيب النقباء ابو علي بن تمام الزينبي وعدنان بن الشريف الرضي الشاعر المشهور ، والامير تاج الملوك هزارسب بن بنصير بن عياض الكردي ، والامير ابو علي بن الملك كاليبجار البويهي ، والامير ابن أبي الشوك الكردي ، وعدة امرءاء من الاتراك ، ووزير

الخليفة ابو القاسم علي بن الحسن الملقب رئيس الرؤساء المعروف بابن المسلمة ، وهو الذي خطب خطبة الزواج ثم قال مخاطباً الخليفة : « إن رأى سيدنا ومولانا امير المؤمنين ان بنعم بالقبول فعل » ، فقال الخليفة : « قد قبلنا هذا النكاح بهذا الصداق » . وكان الصداق « مائة الف دينار » ، وقد ظل هذا الصداق مضرب الامثال ، وبدعة للجهال من ارباب الاموال ، وهو اعظم صداق واعلاه في تاريخ الدولة الاسلامية ، ولقد ذكرنا في اخبار السيدات اللاتي ذكرنا تراجهن ، ان السيدة زبيدة بنت المقتفي لأمر الله وخطمة بنت محمد بن ملكشاه السلجوقية ، والسيدة رابعة بنت ولي العهد ابي العباس احمد بن المستعصم بالله ، كان مبلغ صداق كل منهن « مائة الف دينار » ، وكان ذلك اقتداءً بالسيدة ارسلان خاتون - أعني خديجة السلجوقية - التي حديثنا الليلة عنها .

وفي اوائل شعبان من السنة المذكورة - أعني سنة ٤٤٨ ، مضى الوزير ابو القاسم ابن المسلمة ، الى طغرل بك بدار المملكة وكانت في حلة العيوضية ، كما قلنا غير مرة ، وقال له : « امير المؤمنين يقول لك : ان الله تعالى يأمركم ان تؤدوا الامانات الى اهلها ، وقد اذن في نقل الوديعة الكريمة الى الدار العزيزة » ، فقال : « السمع والطاعة للأوامر الشريفة » ، وكان قد نقل من دار المملكة الى دار الخلافة العباسية ، وكانت تحت شارع السموات ، كثير من المال والجواهر والياقيات واوراق الذهب والفضة ، والجنائب والبغال والعماريات وهي الكجاوات ، ونقل مع ذلك كله ثمانون جارية أبقاراً ، بوكات ، عليهن اقبية الديباج والمناطق

المجوهرة وتحتهن الحيل المسومة والبغال الرومية ، وست عماريات
على البغال ، وعلى قبابها جواهر وغير ذلك ، هذا بعض الجواهر ،
والحقيقة أن هذه السيدة كانت موعودة أن تزوج بذخيرة الدين
بمحمد بن القائم بأمر الله ، فلما توفي وانقطع الأمل بموته عدل
عنها إلى القائم بأمر الله والد ذخيرة الدين ، لينال المصاهرة التي
يتجمل بها على الملوك وينال بها غير ذلك .

ومضت السيدة فطر الندي والدة الخليفة من دار الخلافة إلى
دار المملكة في الزنازب على دجلة ، وأرسلت الزنازب عند در
المملكة ، وأرسلت زوجة طغرل بك التوتخان في نقل خديجة
خاتون إلى دار الخلافة ، فأرسلت بها إليها من دون أن تخرج
إليها أما تكبراً ، وأما أنفة من هذا الزواج بين امرأة شابة
وشيوخ ، وهو خلاف قانون الخلقة ، فانحدرت الخليفة
ليلاً إلى باب الغربية ، أي عند شريعة المصبغة الحالبة وقد ضربت
على دجلة سرادقات لنسير تحتها ، فدخلت دار الخلافة من باب
الغربية المذكور أي باب سوق المستنصر الحالي ، وكان مع الخاتون
عميد الملك الكندري وزير الامبراطورية السلجوقية ، وقد ذكرناه ،
فحضر بين يدي الخليفة القائم بأمر الله وقبل الأرض وقال :
« الخادم ركن لدين طغرل بك قد امتثل المراسم العالية في حمل
الوديعة وسأل فيها كرم الملاحظة واجتناب الضيعة » ، ثم انصرف .
وأدخلت خديجة ارسلان خاتون على الخليفة القائم بأمر الله
فقبلت الأرض مراراً ، فأدناها إليه وقربها منه وأجلسها إلى
جنبه ، وطرح عليها فرجة وهي نوع من الملابس يطرح على

الكتفين والظهر ، وكانت الفرجة منظومة بالذهب ، ووضع على رأسها تاجاً مرصعاً بالجواهر ، وأعطاهها من الغد مائة ثوب من الديباج ومن قصب الذهب ، وطاسة من ذهب قد نبت فيها الياقوت والفيروزج ، وعقدآ من اللؤلؤ له قيمة عظيمة ، وأفرد لها من الاقطاع اثني عشر ألف دينار في كل سنة ، تكون أربعة وعشرين ألف دينار من دنانير اليوم .

وبقيت خديجة خاتون في دار الخلافة العباسية ، ولقبت بالجهة القائمة كناية عن السيدة القائمة ، وبعد زواجها بسنتين ، حدثت بالخلافة العباسية الحادثة الكبيرة والرزية العظيمة ، من استيلاء أبي الحارث ارسلان البساسيري القائد التركي سنة ٤٥٠ ، على بغداد واكثر العراق ، وقطعه خطبة بني العباس ، وخطبته للمستنصر بالله الخليفة العلوي الفاطمي على منابر بغداد ونواحيها ، فظفر فيمن ظفر به هذا القائد بالسيدة خديجة خاتون وكانت أمواها قد نهبت فالزمها واحترمها وسلمها إلى أبي عبدالله بن جرادة ، أحد أترياء بغداد الكبار وتجارها إذ ذاك ، ليقوم بخدمتها ، وكان ابن جرادة المذكور قد ضمن لعلم الدين قريش بن بدران العقيلي امير بني عقيل أي عرب عكيل الحاليين ، وكان مع ارسلان البساسيري ، عشرة آلاف دينار ، ليحفظ له داره ومن التجأ اليها من نهب الجند الفاتحين وسوء سيرتهم ، فكانت هذه الحادثة محنة كبيرة لخديجة خاتون ، فقد شهدت اسقاط الخلافة العباسية ونفي القائم بأمر الله إلى حديثة عانة ، وحدثت في السنة

نفسها وفاة والدها داود جفري بك بخراسان ، فاشتدت مصيبتها وعظمت .

ولما أصعد ابو المعالي علم الدين قريش بن بدران امير عقيل من بغداد الى تكريت ، في آخر المحرم من سنة ٤٥٠ ، وذلك بعد نفيه المدينة اخذ معه خديجة خاتون معزة مكرمة ، ثم أرسل بها الى عمها طغرل بك مع رسول اسمه و نجدة ، وأصحبه رسالة الى السلطان المذكور يعده فيها ان يرد الخليفة القائم بأمر الله ، من حديثة عانة إلى عاصمة ملكه بغداد ويطلب الزلفى عنده ، وكان إرسال قريش بالخاتون الى عمها بأمر ابي الحارث ارسلان ، فانه بعث اليه يشير عليه بان ينفذ ارسلان خاتون الى السلطان طغرل بك ، ولما وصلت خديجة خاتون الى عمها ارسلت الى زوجها الخليفة القائم بأمر الله ، اربعين ثوباً انواعاً وعشر دسوت من الثياب وخمس دسوت مخيطة ، وعشرة آلاف دينار ، لان حاله قد تضعفت بعد نفيه الى حديثة عانة ، وليثت ارسلان خاتون بعد هذه الحادثة مع عمها طغرل بك الى سنة ٤٥٣ ، ولكنها كانت تتفقد احوال زوجها الخليفة القائم بأمر الله على عادتها ، فانه لما أعيد الى بغداد من حديثة عانة بعثت اليه مع عمها طغرل بك باثنتي عشرة حبة من اللؤلؤ الكبار ، وطلبت الى عمها ان يقول له : « ارسلان خاتون تخدم امير المؤمنين وتساله ان يسبح بهذه السبعة » ، فقبلها الخليفة شاكراً .

وفي سنة ٤٥٢ ، توفيت آلتون خاتون زوجة طغرل بك ، وكانت عافلة سديدة الرأي وكان السلطان يقوّض امره اليها ،

على عادة الاثراك في تعظيم نسائهم من قديم الزمان ، وكانت قد اوصته قبل وفاتها بأن يتزوج ابنة الخليفة القائم ، لينال شرف الدنيا والآخرة ، واوصت بجميع ما لها لبنت الخليفة الثنوية خطبتها المزمع زواجها ، وهذا من عجيب اخبار النساء في الاستقامة والصلاح ، واراد طغرل بك ان ينفذ وصية زوجته آلتون خاتون ، فأرسل رسولا الى الخليفة القائم بأمر الله يخاطب اليه السيدة ابنته ، واتفق ان وصل الى طغرل بك رسول من الخليفة حمله رسالة تتضمن المطالبة باعادة ارسلان خاتون اليه ، فأوسلها طغرل بك اليه ، ورأى في هذه الاجابة تسهلا لزواجه بابنة الخليفة ، ولكن الخليفة لما علم بطلب السلطان ثقل عليه ذلك وانزعج منه ، وطال الكلام بين السلطنة والخلافة - على ما سنده في محله من ترجمة السيدة ابنة القائم بأمر الله - .

وفي شهر ربيع الآخر من سنة ٤٥٣ ، قدمت ارسلان خاتون دار الخلافة ومعهما الوزير عميد الملك الكندري ومعهما الصداق والجهاز لابنة الخليفة ، وقيل كان قدومها في جمادى الأولى ، فامتنع الخليفة من ذلك وأنكر الطلب كل الانكار ، فلما بلغ طغرل بك ذلك ارسل الى بغداد يأمر وزيره الكندري المذكور ، بنقل ارسلان خاتون من دار الخلافة الى دار المملكة جزاء بما رد الخليفة طلبه وكفاء له ، ولا سيما بعد ان خاطبته ارسلان خاتون في ذلك فلم يردده الا إياه . ثم كتب طغرل بك كتاباً الى ارسلان خاتون ، يستعجبها في ان تترك بغداد ويتضمن اشتياقاً اليها وايتاراً لمشاهدتها ، ورسم لها فيه المسير اليه وضييق العنق عليها في التأخر ، فامتنع الخليفة من ذلك ، ثم علم ان سبب ذلك اقامته على الامتناع من تزويج ابنته بطغرل بك .

وفي سنة ٤٥٤ ، اجبر الخليفة القائم بأمر الله على ان يزوج ابنته بالسلطان طغرل بك ، وجاء رسول من طغرل بك الى ارسلان خاتون ، ومعه اشياء بعث بها السلطان الى الخليفة فاوصلتها اليه ، ثم قدم طغرل بك بغداد فزفت اليه السيدة بنت الخليفة ومضت معها ارسلان خاتون وبعث معها طغرل بك بعقدين فاخرين ، وقطعة ياقوت حمراء كبيرة ، وخسرواني ذهب ، والظاهر ان الخليفة القائم بأمر الله لم يكن له هم بالنساء ، اما لكثرة المصائب التي قاساها واما لامر آخر كالزهد والاعتزال ، فان ارسلان خاتون كانت تشكو من اطراحها لها وانه لم يقربها منذ اتصل بها ، فعمل ذلك عمها طغرل بك على ان يستأذن لها الخليفة في ان تسير معه وتبقى مدة ستة اشهر ، فأبى الخليفة ذلك ، وأصرّ عليها على ذلك محتجاً بانها مطرحة معزوف عنها ، فسافرت معه .

وتوفي السلطان طغرل بك سنة ٤٥٤ ، وارسلان خاتون مع امه ، وفي شوال من سنة ٤٥٨ ، انفذ الخليفة القائم بأمر الله خادماً من خواص الخدم الى السلطان ألب أرسلان ابن اخي طغرل بك وهو اخو ارسلان خاتون ، للتهنئة بسلامته في غزوة غزاها الروم ، وللخطاب في رجوع زوجته الخاتون الى بغداد ، فقد طالبت غيبتها . وفي ربيع الآخر من السنة ، ورد الخبر بعودتها الى بغداد ، وفي جمادى الآخرة دخلت بغداد مع الخادم المرسل اليها ، وخرج اهل بغداد لتلقها على فرسخ واحد من المدينة ، وخرج الوزير فخر الدولة محمد بن محمد بن جبير لاستقبالها .

وبقيت ارسلان خاتون في دار الخلافة العباسية حتى سنة

٤٦٥ ، ففي هذه السنة خرجت من بغداد الى الري ، وانقطعت
اخبارها في التواريخ التي تحت يدينا ، وهي اول الخواتين بدار
الخلافة العباسية ، وقد كررت التواريخ ذكرها ، لبلوغ مهرها
مائة الف دينار ، ولم يكن لها من المآثر ما تكون به قدوة
للنساء ، الا ان اسمها مقرون باعظم الاحداث في الدولة العباسية ،
والتاريخ الصحيح لم يخل من المرأة قط ولن يخلو منها ابداً .

السيدة بنت القائم بأمر الله

زوجة السلطان طغرل بك السلجوقي

حديث هذه السيدة الكريمة يأكل الاحاديث ، ويبعث على العجب ويحدو على الاستغراب ، فهي العذراء المتزوجة والمتزوجة العذراء ، ولقد ألمعنا اليها بالقول عدة مرات في التراجم السابقة ، وها هنا تفصيل القول في سيرتها واخبارها .

ذكرنا فيما سلف من سير سيدات البلاط العباسي ، ان التونخان زوجة السلطان طغرل بك السلجوقي توفيت سنة ٤٥٢ هـ ، وكانت في ساعة احتضارها وانتقلها الى دار قرارها ، قالت لزوجها : اجتهد في ان تتزوج بابنة الخليفة القائم بأمر الله ، فتحصل لك الوصلة بينك وبين بني العباس ، لتنال شرف الآخرة بعد ان نلت شرف الدنيا . واوصت بجميع ماها لبنت انقائم المحضوض على زواجها ، المثار عزم السلطان على خطبتها ، وكانت وفاة التونخان بمدينة جرجان من بلاد ايران ، فحزن السلطان طغرل بك عليها حزناً عظيماً ، وحمل تابوتها معه الى مدينة الري فدفنها فيها ، وعزم على تحقيق اقتراحها ، والسعي في الزواج بابنة الخليفة القائم بأمر الله ، واتفق ان الخليفة ارسل الى طغرل بك قهرمانته واسمها

صلب ، وخادمه الخاص موفقا ، مؤسس المدونة الموفقية ببغداد ،
 ليحمله الى بغداد زوجته خديجة ارسلان خاتون بنت داود جفري
 السلجوقي ، فعادا الى بغداد بغير شيء ، وجاء معها القاضي ابو يحيى
 سعد بن صاعد قاضي الري ، برسالة من طغرل بك الى الخليفة ،
 تتضمن خطبة السيدة ابنته ، قيل ان وزير طغرل بك عميد الملك
 منصور بن محمد الكندري وقهرمانة الخليفة حلف أطعما طغرل بك
 في امكان الزواج ، فلما اطلع الخليفة على الصلب ثقل عليه جدا ،
 وانزعج منه ، فنكلم القاضي ابو يحيى سعد بن صاعد في بيت النبوة
 من دار الخلافة ، كلاماً يشبه التهديد وانه ان لم يجب الخليفة
 الى ذلك ساء ما بينها ، فقال الخليفة : « هذا الزواج لم تجر به العادة
 لأحد من الخلفاء ، وركن الدين طغرل بك هو عضو الدولة وركنها ،
 وهو المحامي عنها والمحمي لكل اذى منها ، وما يجوز له ان
 يسمنا هذا ، ويطالبنا به » ، ثم اجاب الى الخطبة اجابة خلطها
 بكثرة الاقتراحات ظنا منه ان ذلك يبطل انقامها ، ويحمل طغرل بك
 على تركها ، فمن اقتراحاته ان تسلم اليه مدينة واسط ، وتعطى
 ابنته جميع ما كان لآلتونخان من الاملاك والاقطاع والرسوم في
 ساو الاصقاع ، فضلا عن المال الذي تركته ، مع ثلاثمائة ألف
 دينار من الذهب العين بوسم المهر ، وان يكون مقام السلطان
 ببغداد دائما ، وكان العميد ابو الفتح المظفر بن الحسين والي بغداد
 وعميد العراق من قبل السلطان حاضراً ، فقال : « اما الملتزم
 فمجاب اليه من المهر وغيره من جهتي عن السلطان ، ولو كان
 اضعاف المبلغ ، فان امضيت الامر وعقدتم العقد سلم المبلغ جميعه ،

واما بجيء السلطان الى بغداد ومقامه فيها وان لا يحدث نفسه بالرحيل ، فهذا امر لا بد من عرضه عليه ، فما رأى الخليفة القائم ان الشروط التي اشترطها وادخلها في الاقترحات لا تحول دون تزويجه ابنته يطغرل بك ، اسف على قوله وندم لأن المانع الأصلي عنده كان من موانع الكفاءة التي قيل قديماً فيها :
فطلقها فليست لها بكفء ، والا يعمل مفرقك الحسام

فالسيدة بنت القائم عربية فرسية هاشمية عباسية ، من بيت الخلافة وطغرل بك تركي سلجوقي سلطان بني سلجوق فلم يكن كفواً لها ، واضطر الخليفة الى ان ندب القاضي ابا محمد رزق الله بن عبد الوهاب التميمي الحنبلي المشهور في تاريخ الدولة العباسية ، الى الخروج الى الري ولقاء السلطان طغرل بك ، والاستقصاء في الاستعفاء من هذا الزواج المطلوب ، واصحبه تذكرة ، والتذكرة عندهم آخر الشروط وغاية الكلام. المحرر، وقال له : « ان تم الامر فهو المراد ، والا فاعرض التذكرة على السلطان على مضض مني وكره لذلك » . وأرسل معه أبا الفوارس طراد بن محمد الزبيدي الملقب بالكامل ، نقيب الهاشمين ، وبعث معها بخلع وهدايا السلطان طغرل بك ، ورسم لابي محمد التميمي ان يستعين عميد الملك منصوراً الكندري وزير السلطان ، على العدول عن هذه الخطبة ، فكان كالمستجير من الرمضاء بالنار .

ودخلت سنة ٤٥٣ ، والمراسلة في اولها ، وفيها عزل طغرل بك ، ابا الفتح المظفر بن الحسين عميد العراق ، وولى مكانه أبا احمد عبد الواحد بن الحضرمي النهاوندي ، ولقبه « رئيس العراقيين » ،

واذن له في القبض على ابي الفتح عميد العراق ، فلما علم هذا بالامر التجأ الى دار الخليفة القائم بامر الله مستجيراً بها ، وفي شهر ربيع الاول من السنة المذكورة دخل رئيس العراقيين بغداد ، واجتاز بدار الخلافة ولم يدخل فيها وتزل في خيم تحت دار المملكة ، وكأنه كان قد تزل في ارض المجيدية ، ومد يده الى إقطاع الخليفة وهو قوام معيشته في ذلك الزمن زمن استبداد السلطنة ، وحدث ان ضرب غلامان له ، ضربها جماعة من بني هاشم ، فبعث غلامه في السفن حتى قابلوا قصر التاج وفيه الخليفة انقائم وكان قصر التاج على الشط قرب المحكمة الشرعية ، فرموا القصر بنشابين واخذوا زورقاً للخليفة كان فيه شعير ، فارتجع الخليفة والناس وجرت من هذا الوالي امور ثقلت على الخليفة ، فعوتب ولكنه لم يفد معه عتاب ، وشعر الخليفة العباسي انه انتقل من استعمار بني بويه الى استعمار بني سلجوق ، وان حرمة كانت اعظم في عهد بني بويه ، منها في عهد السلاجقة الذين جاؤوا لانقاذه من الذل .

أما رسل الخليفة الى طغرل بك بالاستعفاء من ابرام أمر الزواج فانهم وصلوا الى همذان ، وكان السلطان فيها ، ثم اجتمعوا به واعطوه الكتب والهدية والخلعة وهي جبة ديباج مذهب ، وفرجة منسوجة بالذهب وعمامة مشبكة مذهب ، فأعرب طغرل بك على تعظيمه لذلك ووضع الفرجية على كتفيه ، ثم اذن لهم في الانصراف ، وحضروا من الغد في دار المملكة بهمذان ، وطيف بهم في مجالسها ، وكان فيها بيت في صدره دست مؤزر ومفروش بالنسيج ، فيه

سماط من ذهب عليه فرائل الباور والكافور والمك والعنبر ، وكان ما في السماط وحده يساري أربعمائة ألف دينار ، وفي الدار عدة بيوت مملوءة من فاخر النسيج والقراء كالسنباب والسمور وإبي قلمون ، وفيها شيء كثير من الآلات والفرائس والجواهر واليوافيت ، وقيل لهم : « كل هذا يرسم الجهاز للسيدة المطوبة الحطبة » . ثم انصرفوا وبقي أبو محمد رزق الله التميمي ، فانه خلا بالوزير عميد الملك الكندري وفاوضه في امر الزواج ، وطلب منه ان يحبل سلطانه على ترك الحطبة ، وعرض عليه التذكرة التي بعثه بها الخليفة ، فقال له عميد الملك : « هذه الرسالة والتذكرة لا يمكن عرضها على السلطان ، فان الامتناع لا يحسن بعد السؤال والضراعة ولا نحسن المطالبة بالبلاد والاموال بازاء الرغبة في الافتخار والجمال ، ومتى طرقت هذا سمع السلطان وعلم ان الخليفة يرغب في الاشياء لا فيه ، ويؤثر المالى ولا يؤثره فربما تغيرت نيته وحدث منه ما لا نؤثره ، وهو يفعل في جواب الاجابة اكثر مما يطلب الخليفة » . فقال له أبو محمد التميمي : « الأمر اليك والتعويل عليك فافعل ما تراه ، وآلان له القول ، فسكن عميد الملك الى ذلك وبنى عليه ان الخليفة موافق على تزويج ابنته اذا نفذت الشروط ، وقال للسلطان : « ان اجابة امير المؤمنين القائم بامر الله قد حصلت » ، فسر السلطان : سروراً عظيماً وجمع الوجود والاكابر وعرفهم الامر ، وقال لهم عميد الملك : « ان السلطان يذكر لكم نعمة الله عنده ، وبلوغه ما لم يبلغه احد من السلاطين قباه ، بسبب هذا الاتصال بامير المؤمنين ، يعني المصاهرة

ثم اراد الوزير ان يأخذ خط رسول الخليفة واقاراره بالقبول ،
فأبى الرسول وكتب خطه بمقتضى رسالة الخليفة ونذكرته ، فشق
ذلك على عميد الملك وصعب عليه ، لانه ظن نفسه ناجحاً في
إبرام زواج السلطان ، فعاد الامر كما كان . والظاهر انه لم يطلع
سلطاناه على خط ابى محمد التميمي رسول الخليفة لتبقى القضية
مبهمة فينجو من تبعاتها عند السلطان . ثم امر السلطان وزيره
عميد الملك بالمسير الى بغداد مع بنت اخيه خديجة اوسلان خاتون
زوجة القائم بأمر الله - وكانت معه كما ذكرنا - لابرام العقد .
وبعث معها فروخ خادمه الخاص وقاضي الريّ ابا يحيى سعد بن
صاعد ، واصحاب الخاتون مائة الف دينار من مهر بنت الخليفة ،
وآلات ذهب وفضة وغيرها من ادوات الجواز ، حتى الجوارى
والكرام ، وفي جملة ذلك الفان ومائتان وخمسون قطعة من
الجوهر ، فيها سبعمائة وعشرون قطعة وزن الواحدة ما بين
ثلاثة مثاقيل الى مثقال ، وقال للخاتون : « ان لم يُنعم الخليفة ويُجيب
الى تسليمها فأقعدى فروخ يرسم خدمتها والقيام على باب حجرها » .
وكان عميد الملك قد تلمكأ في السفر الى بغداد ، ودافع وقال
للسلطان طغرل بك : « قد كنت كتبت الى هزارسب بن بنكير
ابن عياض الكردي ، والى البصرة والاهواز حتى يحضر مائة الف
دينار بما عليه ، ولا تخرج من خزانة الدولة شيئاً ، وانا على
انتظاره » ، فقال له السلطان : « لا تفعل وخذ من الخزانة فانا
يقبح بنا ان لا يكون في خزانتنا ما نصرفه في هذا الامر » .
فحينذاك لم يجد بداً من المسير مع علمه بمفوض المصير . وقال

الحجاب والامراء الذين معه : « إننا منفذون الى الخليفة في هذه المصاهرة والوصلة فما الثقة بان الخليفة يفعلها ويسلم ابنته لنا ؟ فربما لا يفعل فنعود ولم نقض حاجة السلطان ، وتحصل من ذلك قباحة وُسبة » . فقال لهم السلطان : « ان فعل الخليفة فذاك وان لم يفعل فعودوا ، لأننا اردنا ان نعلم رأي الخليفة فينا وموضعنا عنده » ، و امر الجميع بالمسير الى بغداد ، فساروا ثم وصلوا اليها في يوم الخميس لثمان بقين من جمادى الاولى من سنة ٤٥٣ ، واستقبلهم من بلدة النهر وان تحت بعقوبا امين الدولة ابن دارست وزير الخليفة ، وظهر عميد الملك التعظيم والتكريم . ولما دخل عميد الملك بغداد لم يدخل دار الخلافة بل جلس على باب انبوي ، الى ان دخلت ارسلان خاتون دارها فدخل معها الى الدار ، ثم انصرف الى دار المملكة في ارض العيوضية الحالية ، فنزل فيها وارسل من وقته يستدعي العميد ابا الفتح المظفر بن الحسين رئيس العرافين ، وكان بدار الخلافة على ما ذكرنا لاجئاً اليها ، وبعث اليه بخافه ايماناً له ، فجاء اليه فعاتبه عميد الملك وقال له « اكلت خيـان بغداد سنة ولم توف » . ثم تركه حراً اياماً ، وبعد ذلك قبض عليه وقيده ثم ضربه بالحشـب وبقي في الاعتقال ، حتى اخرج له الف دينار ، وكفله احد الامراء ثم اخرج من بغداد الى باب السلطان بهمدان ، ليلقى هناك حسابه ، ويعرض اعماله ويزيل التهمة عن نفسه .

ولما علم الخليفة القائم بأمر الله بهذه الامور كلها ، ايقن ان الشرور التي سببها مع القاضي ابي محمد التميمي والاقتراحات لم

يجيء جواب محرر عنها ، وعلم ان المهر قد حمل منه مائة ألف دينار ، فاطمت الدنيا لعينيه ، وظهر له سوء تدبيره ، ولما طولب بابرام العقد قال : « ان هذا تشنيع وتبشيع لا خفاء به ولم تجر به عادة احد من الملوك بأخذ احد من الخلفاء بمثله ، وامتنع من العقد ، ثم قال « إن أعف من ذلك والا خرجت من بغداد ، ولم ينفذ حضور عميد الملك دار الخلافة فائدة ، لان الخليفة أصر على الامتناع والاباء ، فبعث عميد الملك الى ارسلان خاتون في ان مخاطب الخليفة في معنى المصاهرة والوصلة ، فخطبته وهي زوجته - كما هو معلوم - ، فاقام على امتناعه ورفضه ، وإذا تقطعت بعميد الملك الاسباب ، اخذ يطلق لسانه بالقبيح في ذكر الخليفة ، وقال : « قد كان يجب الامتناع في اول الامر ولا يكون اقتراح ولا تذكرة ، وهذا الامر ان لم يتم كان سعيًا في دمي عند السلطان » ، ثم غضب وخرج نوبته أي طبوله ، لان الوزير كان اذا سار ضربت الطبول بين يديه وتضرب الطبول أيضاً ببابه في اوقات الصلوات الخمس ، فضربها بالنهروان ، وعزم على الخروج ، فسأله ابو منصور عبد الملك بن يوسف ، الوجه البغدادي المشهور في تاريخ بغداد ، وقاضي القضاة علي بن محمد الدامغاني ان يتوقف ، وكانبا خليفة بني العباس القائم وأرهباه وخوفاه وخامة العاقبة ، وحسنا له العقد بشرط ان يشهد عميد الملك وقاضي الري ابو يحيى سعد بن صاعد على انفسهما - بحكم وكالتهما - ، انهما لا يطالبان بلسيدة المخطوبة المطبوبة مدة اربع سنوات . ثم استفتي الفقهاء فيما حدث بين السلطنة والخلافة ، وتعليق الخليفة

العقد على الشروط التي ذكرها ، فقال الخفيون : « ان العقد صحيح
والشرط باطل » ، وقال الشافعيون « ان العقد باطل اذا دخله
شرط » ، وكان الخليفة شافعيّاً فاحتج بذهب الشافعي ، وامتنع
من ترويع ابنته .

وزار عميد الملك الخليفة فوعظه ومنعه بما قد ليج فيه ، فقال
له : « انا اردت هذا الامر يا منصور بن محمد الى ديانتك ، وقد علمت
ما فيه من الوهن على بني العباس ولم تجر لهم به عادة » .
وكتب الخليفة كتاباً الى احد اصحاب السلطان طغرل بك ،
يشكو فيه ما لقيه من اصحاب السلطان من العدوان ، اذ لم تكن هذه
المعاملة معاملة من يطلب الشرف بالمصاهرة ، والتجمل والثواب
في الآخرة .

- ٢ -

واذ كانوا على تلك الحال ورد على عميد الملك من طغرل بك
كتاب يأمره فيه بأن يرفق بالخليفة ، وان لا يخاطب في هذا
الامر إلا بالجمل ولا يكرهه احد عليه ، وانكر ما فعل به
اصحابه ، فكتب عميد الملك كتاباً الى سلطانة يستأذنه فيما يفعل
إذن ، واقام يرعد ويبوق ويقول فيكثر ، والخليفة يحتمله ويصبر .
وذات يوم صنع له امين الدولة ابن دارست وزير الخليفة دعوة
في ديوان الخلافة ، فشرع يأكل وغلمانه يتصافعون ويتضاربون
بالتحدات حتى لقطعت ، وهذا دليل على احتقارهم صاحب الدعوة ،
ومعلوم أن صاحبها هو الخليفة . وجاء يوماً الى ديوان الخلافة
وعليه ثياب بيض ونحته بغلة بيضاء ، مع اث شعار بني العباس

السواد ، فثيابهم سود وعمائمهم سود إلا في أيام الحزن والعزاء فانهم يلبسون الثياب البيضاء ، فعوتب وزير السلطان على مخالفة رسوم الدولة العباسية وآيئها ، فقال : « هذا هو العباس على ما جاءت به السنة النبوية » . ثم حضر عيد الملك في جمادى الآخرة من السنة ، بحضرة الخليفة القائم بأمر الله ومعه القضاة وغيرهم ، وكان من عادة الخليفة في الظهور للزائرين انه يجلس خلف ستار ثم يزاح هذا الستار فيراه الزائر ، فشرع عيد الملك يستطعم الخليفة الكلام ويستدرجه اليه ، وقال « أسأل مولانا امير المؤمنين الدخول في ذكر ما شرف به ركن الدين طغرل بك ، الحادى الناصح العبد الخالص وقيا رغب فيه وسمت نفسه اليه ، ليسمع الجماعة كلام امير المؤمنين » ، فقال الخليفة « نحن بنو العباس ، خير الناس بنا رشد واهتدى ، ومن ناوانا ضل وغلوى ، وقد سطر في هذا المعنى ما فيه كفاية » ، واسبلت الستارة بينه وبينهم ، فانصرف عيد الملك مغضباً ، وسار عشية الثلاثاء السادس والعشرين من جمادى الآخرة طالباً همدان ومعه المال والجواهر ، وبقي الناس وجانب خائفين من اضطراب الأمر وانقطاع الاتصال بين السلطنة والخلافة العباسية ، واستمرار النزاع من اجل السيدة بنت القائم .

وفي شهر رجب من السنة المذكورة - اعني سنة ٤٥٣ - ورد رسول الوزير عميد الملك إلى ابى نصر احد اصحابه ببغداد ، يذكر فيه ان السلطان ارسل اليه بكتاب يقول فيه « ان الخليفة إن لم يجب إلى المصاهرة والوصلة التي سأها فطالبه بتسليم ارسلان

خاتون وردها اليّ ، واني سأسير الى بغداد واتولى خطاب الخليفة في هذا ، و امره بترك المال والجهاز ببغداد . ويقول عميد الملك في كتابه « وقد أعدت هذا الرسول الى بغداد لنقل الخاتون الى دار المملكة ، الى حين اجتماعي بالسلطان واصلاح هذه القضية » ، وكانت الوزيرة ارسلان خاتون بمثل ذلك ، فازداد الاتزعاج ودافع الخليفة عن الاجابة ، فشرع رئيس العراقيين عبد الواحد النياوندي في خرق الهبة ، وهجم دار الخلافة مراراً واخذ من التجأ اليها ، وقبض على احد المقدّمين الذين بعثهم الخليفة ليتولوا بعض اقطاعه ، وكان لائذاً تحت قصر التاج الذي فيه الخليفة ، فأخذ منه العمامة والاحفاف ، والخليفة يشاهده فاستغاث الرجل بخدمة الخليفة الذين كانوا على الروشن اي البالكون ، فلم يستطيعوا عونته ، وادخل رئيس العراقيين يده في اقطاعات الخيفة والحاشية والحُـدم ، وطالبهم بالحقوق التي كانوا قد ادوها . فعل ذلك كله لا يذاء الخليفة واجباره على تزويج ابنته ، فاظهر الخليفة العزم على الخروج من بغداد و امر باصلاح طيارة وهو من السفن السريعة ، واتزعج الناس من ذلك ثانية وتوقعوا حدثاً منكراً وخافوا . فلما رأى الخليفة ذلك أمر قنودي فيهم ، (ان الخليفة غسير عازم على ترك بغداد) ، فسكتوا وهذا روعهم ، ثم وصل الى رئيس العراقيين كتاب من طغرل بك ، يأمر فيه بقبض ما في يد الخليفة من الاقطاع وما في يد حاشيته ، وان لا يترك له إلا مكان مقرراً لايه القادر بالله ، وان يطالبه بتسليم حاجبه لان السلطان اتهمه بافساد ذات اليين ، فحضر رئيس العراقيين بيت التوبة من دار الخلافة ، وعرض

على ديوان الخلافة ما امر به السلطان ، فقال له الخليفة : « اما الاقطاعات
فبين ايديكم ، واما الحاجب فليس لنا نسب اليه اصل ولا حقيقة ،
ويحضر قاضي القضاة فيستحلفه بالايمان التي تبرىء ساحتك ، فأما
المطالبة بتسليم خواصنا وأصحابنا وثقاتنا فيما لا نفعله » ، وبالحق
رئيس العراقيين في استعمال القيسح في حق الخليفة ، وخرق هيئته
ورفع الحشمة والحجاء ، واستولى ايضاً على الجوالي وهي جزيرة
اهل الذمة ومقدارها الف وخمسمائة دينار ، وكانت داخلة في
اقطاع الخليفة ، فصعب ذلك عليه ، وبعث الى رئيس العراقيين
ابي منصور عبد الملك بن يوسف وقال قل له : « ان ركن الدين
طغرل بك ما جعل هذه الجوالي لنا فيأخذها منا ، وانما هي اصل
من اصول الشريعة يتعلق بنا فلا يجوز صرفه عنا » ، فقال رئيس
العراقيين لورسول الخليفة : « هل أخطر بنفسك مع سلطاني في خدمة
الخليفة ، وورثي اعداء ينقلون الى السلطان عني انني مقصر في
ما اعتمده في حق الخليفة ، وقد كنت ارجو ان ينصلح الأمر
وما أراه الا قد تفاقم ، وتزايدت الوحشة والكتب ترد عليّ من
السلطان ، بكل ما يزيد النفرة والوحشة بينه وبين الخليفة »
فقال له الرسول : فرج عنا فتجن ندير أمر المصاهرة والوصلة ،
ونريد ان نراسل السلطان بذلك ، فرفع رئيس العراقيين يده ،
وانسلخت سنة ٥٣٠ هـ والحال بين السلطنة السلجوقية والخلافة
العباسية ، على ما ذكرنا من الاختلال والاعتلال والمراسلة
والاحراج ، وكانت اكثر الجراءة على الخليفة من عمل عميد الملك
الوزير .

وأيقن الخليفة القائم بامر الله بأن القوم غير تاركيه حتى يجيب
 الى الزواج ، وفي صفر من سنة ٤٥٤ أرسل من قبله أبا
 الغنائم بن الحلبان أحد ثقاته ، الى طغرل بك لتلافي الأمر وخوفاً
 من بُعد المرام واتساع الحرق وغضب السلطان المتزايد ، واستشهد
 الخليفة على نفسه بالاجابة الى الزواج ، قضى القضاة أبا عبد الله
 الدامغاني ، وأبا منصور عبد الملك بن يوسف ، وكتب وكالة
 لعبيد الملك وزير طغرل بك ، في إبرام العقد ، أجاب الخليفة الى
 ذلك مكرهاً مجبراً بعد ان تنع وتأتى وأقدم واحجم ، وبعد
 خمسة ايام من خروج رسول الخليفة ورد ببغداد كتاب من
 السلطان يتضمن رد الاقطاع الى الخليفة والاعتذار بما جرى به
 سوء التقدير ، من تلك الأمور المكروهة والافعال القبيحة ، وجاء
 في الكتاب « ان رسولا من قبل السلطان وارد على الخليفة ، هدية
 ومشافة تتضمن التنصل من كل ما جرى عليه من الاضطهاد ،
 فطابت النفوس ووقعت البشائر ببغداد ، وخلع على الركائبة الذين
 حملوا كتاب السلطان طغرل بك ، وطيف بهم ببغداد والطبول
 والبوقات تضرب بين أيديهم ، وكانت الخليفة رسوله ابن الحلبان
 وكان قد وصل الى شهرزور بالتوقف عن المسير ريثما يصل رسول
 السلطان طغرل بك الى بغداد برسالة فيكون جواب الخليفة بمقتضى
 الرسالة ، فأقام ابن الحلبان هناك متعللاً بالأمطار وكثرة الثلوج ،
 وبأن خراجاً خرج في وجلبه منه عن الركوب .

ولما طالت ايام ابن الحلبان بشهرزور ، وعرف السلطان
 طغرل بك ان الخليفة أمره بالتأخر غضب واعتاظ ، وانفذ بكتاب

الى ابنة أخيه ارملان خاتون زوجة الخليفة ، يدعوها به الى الخروج من دار الخلافة والتجيز الى الري ، فانه مشتاق اليها - على ما ادعى - ومؤثر لمشاهدتها ، فاستأذنت زوجها الخليفة فلم يأذن لها ، ثم سأل عن السبب الذي حمل طغرل بك على ذلك ، فقيل له : سببه تأخر رسوئك ابن الملبان عن السفر الى حضرة السلطان بقبولك التزويج ، فقال قولوا لهم : « انا توقف لانتظارنا الرسول الذي ذكرتم إنفاذه الى بابنا لسمع رسالته ، ويكون إنفاذها جميعاً ، أما وقد استشعرتم فنحن نأمر ابن الملبان بالانعام ، وكتب اليه بالمسير من شيرزور الى السلطان فصار ووصل الى حضرته .

وفي يوم الخميس الثالث عشر من شعبان في سنة ٤٥٤ عقد العقد للسلطان طغرل بك على السيدة بنت القائم بأمر الله ، بظاهر تمييز في الاسم دون الحقيقة ، فلا يتصل بها ولا يلامسها حتى يفرق بينهما الموت ، وكان ذلك من الظلم العبقري الذي فعله طغرل بك ، وعمل للعقد سباط عظيم واحتفال جسيم ، وكتب ابن الملبان الى الخليفة رسالة يخبره فيها ، انه احتفل به أعظم احتفال بقرى توقيع الخليفة الى السلطان على رؤوس الاشهاد والسلطان حاضر ، وانه سلم وكالة الخليفة المحررة الى عميد الملك وزير السلطان فقبها ، وأرسلها الى السلطان فقام من مجلسه عند مشاهدتها وقبيلها وقبل الارض ودعا ، ثم أعادها الى عميد الملك فقرأها ، وانهم لما سمعوا أن الخليفة قد رسم فيها تعيين المهر بأربعمائة درهم ودينار ، ارتفعت الاصوات بالدعاء للخليفة ، وبعد الاملاك نثر

من الذهب والؤلؤ ، وتكلم السلطان باللغة التركية بما معناه الشكر والدعاء ، وانه المملوك القين الذي قد سلم نفسه ورفقه وما حوته يده وما يكسبه باقي عمره الى الخليفة ، ثم أرسل طغرل بك الى الخليفة بهدية مشتملة على ثلاثين غلاماً أتراكاً على ثلاثين فرساً ، وخادمين وفرس بمركب وسرج من ذهب مرصع بالجواهر الثمينة ، وعشرة آلاف دينار ومثلها لكريمته المزوجة مع عقد جوهر فيه ثيف وثلاثون حبة في كل حبة مثقال ، وجميع ما كان لآلتون خات المتوفاة من الاقطاع بالعراق ومنه بعقوبا ، وثلاثة آلاف دينار لوالدتها وخمسة آلاف دينار للأمير عدة الدين محمد بن القائم بأمر الله أخي السيدة ، ووردت الكتب بخبر توجه السلطان طغرل بك الى بغداد ، ثم جاءت أراجيف بموته ثم جاءت البشارة بسلامته من مرض شديد ، ولم يكن ريب في ان هذا السلطان كان قد كبر وأسنّ وقارب الموت ، وكان زواجه الاسمي بتلك الشابة إيذاناً بوداعه للدنيا .

وكان في تلك الايام مؤرخ عراقي شبه رسمي ، هو غرس النعمة محمد بن هلال بن المحسن بن ابراهيم الصابي من ذرية ابي اسحق الصابي الكاتب المشهور ، فأراد ان يسجل هذه الحادثة تسجيلاً رسمياً فانها وحيدة هريدة ، فتوصل الى استكتاب الخليفة بوجاهة مقرب عنده ، فأرسل اليه القائم بأمر الله على يد الوسيط هذا الشرح الذي يقول فيه : « لما كان من فعل البساسيري اللعين ، وانتهازه الفرصة فيمن انضوى اليه من الاجناد المطرودة عن مدينة السلام ، وعود ركن الدين طغرل بك

الى بلاده وتشاغله بقتال اخيه ابراهيم اينال حين شرد عن الطاعة وفارق الجماعة ، واصفى الى اباطيل البساسيري واطمأه في الدولة والولاية ومضاره دار الخلافه ، وافقضى حكم الاستظهار انتقال الامامة الى الحديثه ، والمقام بها الى ان تستقر الامور وورد ركن الدين طغرل بك الى مدينة السلام ، وعادت الخدمة الشريفة الى مستقر سديتها ، وقتل اللعين البساسيري وحمل رأسه الى الحزاة الامامية ، واقترح ركن الدين طغرل بك الانافه به ومقابلة خدمته ، بما يبقى له فخره وجماله على الاعتقاب ، ويتخلد ذكره مع الدهر والزمان ، ورغب في الخدمة بتجليله بعقد على كرميتها ، وعلم ان موضعه يقضى كل ايجاب وترددت في ذلك اقوال اختلفت وبذل في مقابلة ذلك من الاموال والافطاعات ما اشتل على الف الف دينار ، سوى الاواني المرصعة والمهد المرصع والمراكب المرصعة بالجواهر الثمينه ، وأعيد جميعه ثم انماقت الحال الى ان عقد اسماً من غير اجتماع على اربعمئة درهم ودينار ، ثم يباق الشرح على ما جرى فيه ونسأل الله التوفيق في جميع الامور . هذا ما ذكره محمد بن الصايي .

وهذه الوثيقة المكتوبة قد احتوت على تسويغ الزواج ووضح فيها ان طغرل بك عرض مليون دينار لاقام الزواج بالسيدة بنت اللقائم ، ولما رأى والده ان الامر ليس بأمر مال ولا خول ، اقتصر على المهر الشرعي اربعمئة درهم ودينار ، واعاد سائر الاموال المعروضة ، قال ابو المظفر سبط بن الجوزي : « ذكر جدي ابو الفرج بن الجوزي في المنتظم ان العقد رفع على اربعمئة

الف دينار ولكن الذي ذكره ابن الصابي أليق بالقصة لان الخليفة القائم بأمر الله اتبع السنة الطاهرة في اربعمائه درهم ودينار ، وسار طغرل بك من تبريز الى ارمية ، وعرض هناك فشغب عسكره فأجلس على مضض وألم ، وادخل اليه قوادهم ووجوههم ، فاوصاهم بوصية يعملون بها ان نزل به حادث ، ثم شفي ونحس نحو بغداد ، ثم وصل الى تكريت واستدعى بسفن لينزل فيها الى بغداد ، وسار في دجلة حتى وصل قبالة قرية القفص ، وكانت شمال بغداد قريبة منها ، فعزم الخليفة القائم بأمر الله على تلقيه واستقباله هناك ، فاستعظم ذلك طغرل بك وابى ان يكلف الخليفة مثل ذلك التكليف ، واستقبله الوزير ابو نصر محمد بن جبير التغلي ، ثم دخل السلطان بغداد ودخلت عساكره فنزلوا في دور الناس بعد أن اخرجوهم منها ، وكان في تلك الايام برد شديد فكانوا يوقدون من خشب الدور المستعمل في البناء ، ويتعرضون لحرم الناس حتى ان قوماً من الاتراك سعدوا الى جامات حمام نسوي ، بنهر القراطيس وآخرو بنهر طابق من الجانب الغربي ببغداد ، ففتحوها واطعموا على النساء ، ثم نزلوا فهجموا عليهن فاخذوا منهن من ارادوا وخرجت الباقيات عاريات الى الطريق فاجتمع الناس وخلصوهن من ايديهم ، وقطع الجند الطرقات واخذوا عمامهم الناس ، وطغرل بك سلطانهم حامي الخلافة والامامة مقيم في دار المملكة لا يبدي ولا يعيد ، ثم ارسل وزيره حميد الملك الكندري الى الخليفة يطالبه بالسيدة ، ويطلب نقلها من دار الخلافة الى دار المملكة ، وبعث اليها مع الوزير بخاتمه وكان ذهباً وعليه فص

ماس وزنه درهمان ، وبات الوزير في ديوان الخلافة مطالباً بنقل السيدة ، فقال الخليفة : « انك يا منصور بن محمد كنت تذكر ان الغرض من هذه الوصلة التشرف بها ، والذكر الجليل لركن الدين طغرل بك فيها » ، وكنا نقول لك : اننا ما نمتنع من ذلك إلا خوفاً من المطالبة بالتسليم ، وجرى ما قد علمته ، ثم أخرجنا ابن الملبان وقرر معكم قبل العقد ما أخذ به خطك ، وأنه ان كان يوماً يطالب برؤية السيدة كان ذلك في دار الخلافة ، ولم نسم اخراج الجهة منها ، اراد بالجهة « السيدة بنته » فقال عميد الملك « هذا كله صحيح ، والسلطان مقيم عليه وعازم على الانتقال من دار المملكة ، الى هذه الدار العزيزة حسبما استقر ، وهو يسأل أن يقر في حجابها وغلماها وخواصه ، مواضع يسكنونها فيما يمكنه بعدم عنه » .

فقطع بهذا الكلام الحجة ، ثم راجع وكرر المراجعة حتى أجاب والدها الى نقلها الى دار المملكة ، فزفت الى طغرل بك في منتصف شهر صفر من سنة ٤٥٥ مصعدة في دجلة ، وكانوا قد نصبوا لها من مشرعة دار المملكة على الشط قرب العيواضية الى الدار نفسها مرادق تسير فيه ، وضربت البوقات والطبول العظيمة عند دخولها الدار ، فجلست على سرير ملبس بالذهب ، ودخل السلطان طغرل بك حبرتها فقبل الارض بين يديها وخدمها ، ودعا لآيها الخليفة ثم خرج من غير ان يجلس .

أما السيدة فلم تقم له ولا كشفت لبرقع عن وجهها ، ولا رأت وجهه لحسن حفظها . وظل السلطان والحواشي في صحن

دار المملكة يرقصون ويفنون باللفنة التركية فرحاً وسروراً ،
ولقد كان رقص السلطان طغرل بك من عجائب الزمان وما يندر
انه يلبه الملوان ، ثم انفذ للسيدة مع ارسلان خاتون بشيء كثير
من الجواهر ، منها عقدان فاخران ونسيج خسرواني ذهب ،
وقطعة ياقوت حمراء كبيرة ، ودخل اليها من الغد فقبل الارض
ايضاً وخدمها ، وجلس قبالتها ساعة على سرير ملبس بالفضة ،
ثم خرج وأنفذ اليها بجواهر اخرى ثمينة ، وفرجية مكللة بحب
اللؤلؤ ومخنقة منسوجة بحب اللؤلؤ ، وما زال كل يوم يفعل ذلك
ويخدمها ويقبل الارض ويبعث بالتحف ، وظهر عليه مرور عظيم ،
ومن الخليفة تألم جسم . وخلص على وزيره عميد الملك وزاد في
لقابه حصول المصاهرة بسفارته ، وبقيت الولايم في دار المملكة
اسبوعاً كاملاً ، ولتسع بقين من شهر صفر المذكور مد سباط
كبير وخدم على جميع الامراء الذين جاؤوا بغداد مع السلطان
طغرل بك ابشردوا هذا الزواج المضحك للعقلاء .

وفي شهر ربيع الاول حضر الوزير عميد الملك بيت النوبة بدار
الخلافة ، واستأذن للسلطان طغرل بك في السفر من بغداد والانصراف
الى بلاد ايران ، فأذن له الخليفة ، فاستصحب السيدة العباسية معه
بعد ان امتنعت وأبت إباءً شديداً ، فغلظ السلطان عليها والزمها
المسير معه ، ولم يتبعها من دار الخلافة سوى ثلاث نسوة بوسم
خدمتها ، ولحق بوالدتها من الحزن ما لم يمكن دفعه عنها ، ولحق
والدها الخليفة امر عظيم وظهر الحزن عليه ، وكان فعل السلطان
لذلك بإشارة وزيره عميد الملك .

وخرج طغرل بك من بغداد في يوم الاحد الثاني عشر من ربيع الاول ، وكان مريضاً مأبوساً من سلامته ، فوصل الى الري وتوفي فيها في ثامن شهر رمضان من السنة التي تزوج فيها ، ذلك الزواج الاسمي ، ووصل نعيمه الى بغداد ليلة الاحد الرابع والعشرين من الشهر ، اي بعد ستة عشر يوماً وكان له من العمر سبعون سنة تقريباً وقيل ثمانون ، وكان بين زفاف السيدة بنت القائم اليه ووفاته ستة اشهر وثلاثة وعشرون يوماً . وجلس وزير الخليفة في صحن السلام بدار الخلافة للفرء بالسلطان ، وقطعت خطبته من منابر بغداد بحكم موته .

واضطربت الدولة السلجوقية بعد موت طغرل بك ، وكثر المطالبون بالسلطنة على اختلاف اجيالهم . وفي الري اضطربت احوال الجنود ، وطالب الوزير عميد الملك السيدة بنت القائم ، بجواهر كانت للسلطان معها ، وذكر زيادة قيمتها ونفاستها ، وحاجته الى انفاقها على العلمان من جنود السلطان ، فانكرت السيدة ذلك ، فاستولى على اقطاعها ونواحياها ، ثم استظهر عليها واخذ منها ما اخذ ، وكان يريد ان يولي بعد طغرل بك ابن اخيه ابا القاسم سليمان الملقب بشيد الدولة ، فسلم يتم له الامر وتولى السلطنة ألب ارسلان محمد بن داود ، وهو ابن اخي طغرل بك ايضاً واخو الطالب للسلطنة المذكور ، واعتقل وزير عمه عميد الملك الكندري لان وزيره نظام الملك ابا علي الحسن واسحاق الطوسي حرّضه عليه وقال انه لا يؤمن شره ، ثم ارسل السلطان ألب ارسلان السيدة بنت القائم في الحال ، واذن لها في الرجوع

الى بغداد ، وأنفذ اليها بخمسة آلاف دينار للنفقة ، فأبى ان تقبلها ، فقيل لها : لا يجوز رد مثل ذلك فقبلت ، وخرجت من وقتها الى دار المرتضى نقيب العلويين بالري ، ثم سارت من عنده الى بلدة سامرا وفي خدمتها جماعة من الأعيان ، منهم رسول السلطان ألب ارسلان فقد جاء يطلب الى الخليفة اقامة الدعوة والسلطنة لصاحبه ، ووصلت السيدة الى بغداد عشية يوم الاحد ثالث عشر ربيع الآخر ، وخرجت لاستقبالها والدتها وخدم دار الخلافة والقهرمانة صلف ، واجتمع الناس لمشاهدتها فدخلت ليلاً وسر أبوها القائم بدخولها وعودتها ، وبقيت هذه السيدة المتزوجة للعدراء في دار الخلافة ، فخفت اخبارها واحوالها .

وفي سنة ٤٦٧ توفي والدها القائم بأمر الله وهي في الحبيسة وتولى الخلافة ابن أخيها عبد الله ولقب بالمقتدي بأمر الله ، وعاشت طوال خلافته حتى توفي سنة ٤٨٧ ، وولي الخلافة بعده ابنه المستظهر بالله ، وفي عهد هذا الخليفة ظهر للسيدة بنت القائم تدخل في السياسة ونسب اليها انها تسمى في إزالة دولته ، فألزمها الإقامة في دارها ومنعها من الخروج حتى وفاتها عدراء لم تمس في سادس المحرم من سنة ٤٩٧ ، وحملت جنازتها في زوب من دار الخلافة الى الرصافة جنوبي الاعظمية الحالية ، وجلس ارباب الدولة العباسية في بيت النوبة للغناء بها ، وكاتبة موصوفة بالدين وكثرة الصدقات ، وقد أدركت ثلاثة خلفاء ايها القائم بأمر الله وابن أخيها المقتدي بأمر الله ، وحفيد أخيها المستظهر بالله وفي عهده توفيت وأدركت من سلاطين بني سلجوق ثمانية ، زوجها

الاسمي طغرل بك وألب أرسلان ابن أخيه داود وملكشاه بن
 ألب أرسلان وتتش بن ألب أرسلان ومحمود بن ملكشاه
 وبركيارق بن ملكشاه ومحمد بن ملكشاه وسنجر بن ملكشاه .
 ومات بعد ان ضحي بشبابها بل بجباتها من اجل زواج اسمي
 اراده طغرل بك ودل على حماقة وقسوته معاً . قال ابن الاثير
 عز الدين « وهذا لم يجر للخلفاء مثله فان بني بويه مع تحكمهم
 ومخالفتهم لعقائد الخلفاء لم يطمعوا في مثل هذا ولا ساموهم فعله » .
 وكان الوزير عميد الملك منصور بن محمد الكندري أثرسي
 في هذه الحادثة النادرة ، وفي إخراج السيدة من دار الخلافة
 وتسييرها مع السلطان طغرل بك إلى الري . ولما اعتقل عميد
 الملك أرسل الوزير نظام الملك إلى السيدة المذكورة معها أنه
 دبر في اعتقال عميد الملك ، لما فعله في حقها وسببه من نقلها
 خارج دار ابها وبلاده خلافاً للشروط ، وآل أمر عميد الملك
 إلى ان حرص نظام الملك عليه السلطان ألب أرسلان فأمر بقتله
 فقتل يوم الاحد سادس عشر ذي الحجة في سنة ٤٥٦ ، ومثل به
 أنقطع تمثيل . ولا شك في أن نظام الملك اتخذ إساءة عميد الملك
 إلى الخلافة العباسية ذريعة إلى القضاء عليه وإزالة مزاحم له في
 مرتبة الوزارة ، معروف بالكفاية والدراية والسياسة والرئاسة ،
 وان كان جريئاً على الخلافة العباسية في خدمة سلطانه الغاشم .
 ونختم الكلام على السيدة بنت القائم بأمر الله بان المؤرخين
 المعاصرين والمنتعنين لكتابة التاريخ ، ظنوا بل عدوا هذا الزواج
 زواج طغرل بك بالسيدة العباسية حقيقياً ، ولم يكن في الحقيقة

كذلك ، بل كان زوجاً اسماً سورياً ، وعلى نحوه جرى زواج
السيدة زبيدة بنت المقتفي لأمر الله ، زوجة السلطان مسعود
ابن محمد بن ملكشاه العجوز ، وكلتاها ماتت عذراء ، ومن الخطأ
المبين ما قرأه الناس في بعض الروايات المصرية من أن طغرل بك
أراد بزواجه بابنة الخليفة القائم بأمر الله أن تنقل الخلافة إلى ابنه
بعد وفاة القائم بأمر الله ، فهذا من الهراء والتخيل ، لما ذكرنا
من الأسباب والأخبار ، فنظام ورواية الخلافة لم يخرج عن قول
الشاعر :

بنونا بنوا أبنائنا وبنائنا بنوهنّ أبناء الرجال الأبعد
هذا إلى أن الدلائل دلت على كون طغرل بك عقيماً لم يولد
له ولد على تعدد زوجاته ، وورث السلطنة بعده ابن أخيه ألب
ارسلان كما هو معلوم وقد أومأنا إليه فيما أسلفنا من الحديث .
هذا ما وجدته من سيرة المتزوجة العذراء السيدة بنت القائم
بأمر الله العباسي ، وهي سيرة مشتملة على حوادث غريبة وعظمت
وعبر ، استبان فيها ما لقيه خليفة بني العباس من جور بني سلجوق
واضطهادهم ، وطلبهم منه ما لم تسم إليه نفس ملك ولا سلطان
فيلهم ، واتضح فيه لون الحكم الذي كانوا يحكمون به البلاد ،
وسيرة جنودهم القبيحة بين العباد ولا سيما أهل بغداد ، فإنهم
كانوا يخرجون الناس من مساكنهم ولو في أشد الأوقات برداً
ويفتصبونها ويسكنونها ، ويتعرضون للناس ويحرمهم حتى في
الحمامات ، وانكشف بها سيرة سلطانهم طغرل بك وما كان عليه
من قلة المبالاة بأمور الرعايا ، والتقصير في تأديب الجنود ، وتعلقه

بالامور النافية وتركه مكارم الامور ، ومحسن التدبير ، وتنكبه
عن جادة السياسة الحكيمة .

والعبرة الاجتماعية من ذلك الزواج الغريب ، هي ما آت الى
من تضاؤل الصداق من اربعمائة الف دينار الى اربعمائة درهم
ودينار ، وذلك بالخطاط كل مائة الف دينار الى درهم واحد
وتبقى عشرة دراهم وهي الصرف الشرعي للدينار ، فعلى هذا
كان المهر اربعمائة درهم متداولة وعشرة دراهم شرعية . والناس
حريون باتباع هذا الفعل وسلوك هذه السبيل من حط المهر الى
ذلك المقدار الضئيل ، تشجيعاً على الزواج فان قوامه التحب
والتراضي وتوسم السعادة وترسم طريقها ، لا كثرة المهر واظهار
أدوات الفخر ولا استنثار من النثار والاثاث ، فان ذلك كله
زائل أو كالفاني اذا لم يكن تواد وتخالص ونصافي ، فليس الزواج
بتجارة عند ذوي البصائر ولا حرفة عند أولي العقول الراجحة بل
هو الجمع بين جسمي روحين متحدتين في الهوى والمشرب وان
كاننا مفترقتين ، ثم التقيا بالزواج لقاء دائماً .

السيدة قرّة العين أرجوان

السيدة قرّة العين أرجوان أم الخليفة المقتدي بأمر الله ، والأرجوان في الأصل صيغ أحر شديد الحمرة ونوع من الشجر له أزهار حمراء ما تكون من حيث الجمال ، وكل لون يشبهها فهو أرجوان ، والظاهر أن السيدة أرجوان سميت باسم ذلكم الزهر الجميل أو بالياقوت الأرجواني وهو الشديد الحمرة .

كانت هذه السيدة حاربية أرمنية أدخلها الرق قصر الخليفة الفتح بأمر الله العباسي ببغداد ، فإن هذا الإمام اشتراها لابنه الوحيد ذخيرة الدين أبي العباس محمد ولي عهد الخلافة الوارث المنتظر للإمامة . وفي سنة ٤٤٧ هـ مرض ذخيرة الدين وتوفي وله من العمر سبع عشرة سنة . فعظمت الرزية بوفاته وتفاقمت المصيبة ، لأنه كان الولد الذكر الأوحيد للقائم بأمر الله ولم يبق للخلافة ولي عهد ، واستشعر الناس بانهقاص الدولة العباسية وانقضاء أمرها وانقطاع نظامها ، أما سائر العباسيين من غير البيت الذي فيه الخلافة فقد كانوا خالطوا العامة وتزوجوا فيهم وجروا بحرى السوق بينهم ، فلم يكن ممكناً استخلاف أحد منهم لأن العرب ما داموا عرباً يشعرون بالسيادة والشرف في ملوكهم وخلفائهم . ثم علم أن السيدة قرّة العين أرجوان حبلى من ولي العهد فتشوقت النفوس ما يكون من ذلك وتشوقت إلى معرفة ما

ستلده من ذكر او انثى ، فولدت بعد ذلك بخمسة اشهر ولداً
 ذكراً فسموه عبد الله وكنوه بابي القاسم ، وهو الذي صار
 خليفة بعد وفاة جده القاسم بأمر الله وتلقب بالمقتدي بأمر الله ،
 وسيرته حسنة مشهورة عند مؤرخي العراق وكانت هذه الولادة
 التي هيأها الله تعالى لقررة العين ارجوان سبباً لتعظيمها وتكريمها
 وعدها من النساء المباركات ، فيها حفظ بيت الخلفاء العباسيين وبها
 دامت الخلافة بعدما اوشكت ان تنبت وكان يوم الولادة من
 أيام السرور والاعياد ببغداد وسارت فيه البشائر الى البلاد الاسلامية
 وتلقب المولود المبارك الجديد بعمدة الدين .

وفي سنة ٤٥٠ هـ استولى على بغداد ابو الحارث ارسلان البساسيري
 للقائد التركي المشهور وخطب فيها للخليفة المستنصر بالله الفاطمي ،
 واصبح العراق من ممالك الدولة الفاطمية ونفي القاسم بأمر الله
 العباسي الى بلدة حديثة (عانة) واستثرت والدته الخليفة قطر الندى
 وكانت ارمينية ايضاً ، وقررة العين ارجوان وذهب ابنها عمدة
 الدين مع عمته وجدته في غمار الناس ببغداد ، وكان عمر عمدة الدين
 دون اربع سنوات ، وظلوا يبيتون في المساجد وينتقلون من
 مسجد الى آخر مع المكدين والشعاذين ، والقائد ارسلان
 البساسيري قد اذكى عليهم العميون والمتجسسين ببغداد فلم
 يظفروا بهم ، ولم يكونوا يشبعون من الحبز ولا يدفأون من
 البرد ، ثم اتصلوا سرّاً باحد اولياء الخلافة العباسية يعرف بابن
 الخليان فخرج بهم من بغداد الى نواحي سنجار ثم حملهم الى
 حران من بلاد الجزيرة .

اما ارجوان قرة العين وقطر الندى فقد ظهر على امرها
 ارسلان الباسيري لان الثانية - أعني قطر الندى - كتبت اليه
 من مكان استتارها ببغداد رقعة تشكو فيها الضر اليه وتشرح ما
 لحقها من الاذى والفقر حتى ان القوات يتعذر عليها وكانت قد
 ناهزت التسعين واحدودت . فافرد لها القائد الفاتح داراً في
 الحرم الطاهري ، وكانت الحرم الطاهري على دجلة فوق المنطقة
 بين الكاظمية وبغداد . ورتب لها جاريتين تخدمانها
 واجرى لها راتباً من الخبز واللحم ، وبقيت في حكمه هي
 والسيدة ارجوان كالأسيرتين ، فلما هرب من بغداد وانحدر الى
 واسط حملها معه كالرهائن ، ثم عاد السلطان طغرل بك الى العراق
 وقاتل ارسلان الباسيري فقتله ثم اعاد من واسط الى بغداد في ذي
 الحجة من سنة ٤٥٦ والدة الخليفة ومعه ارجوان ووصال قهرمانه
 الخلافة . هذا ما جرى على السيدة ارجوان من مصائب الزمان
 وطوارق الحداث . فقد كانت هاربة مطلوبة مروعة معوزة محوaja
 قد فارقت طفلها وضيعت فئدة كبدها ثم ردها الله تعالى الى مقر
 عزها ومحط كرامتها ومقام نعيمها ، الا انها بقيت متشوفة الى
 اخبار عزيزها عدة الدين الذي كتب الله له ان يكون خليفة
 للمسلمين واميراً للمؤمنين . وفي يوم الثلاثاء تاسع جمادى الآخرة ورد
 بغداد الامير عدة الدين ابو القاسم مع جدته وعمته في رعاية الحلبان
 المذكور ، وخرج الناس لاستقبالهم وكان دخوله في زبزب كبير في
 دجلة ، فلما بلغ الزبزب مشرعة باب الغربية اي شريعة شارع
 السمورل الحالية ، قدم لعدة الدين فرس فعمله ابن الحلبان على كتفه

واركبه الفرس ودخل به دار الخلافة وسلمه الى جده الخليفة
القائم بامر الله ، فشكره الخليفة وقرت عين ارجوان بأوبة وليدها
وثابت اليها طمأنينتها وتمت سعادتها وغبرت طوال خلافة ابنها من
سنة ٤٦٧ الى سنة ٤٨٧ وبقيت في الحياة بعده فادركت خلافة
حفيدها المستظهر بالله وخلافة ابنه المسترشد بالله ورأت البطن
الرابع من اولادهما وتوفت في سنة ٥١٢ . وهي اول سنة من
خلافة المسترشد المذكور ودفنت في دار الخلافة ثم نقلت في السنة
نفسها الى مقبرة الخلفاء العباسيين ، بالرصافة ، على مقربة من قبر
الامام ابي حنيفة كما ذكرنا غير مرة . وكانت هذه السيدة كثيرة
البر والمعروف ذكرها ابن الساعي في كتاب « من ادركت
خلافة ولدها » وحجت بيت الله الحرام ثلاث مرات ، والظاهر لنا
انها كانت من السابقات الى اقامة الآثار الدينية ، وان من جئنا
بعدها من سيدات البلاط العباسي قلدها في ذلك ، فاننا الدارسين
حُطط ببغداد العتيقة نجد اسم السيدة « رباط ارجوان » المشيد
ببغداد يتردد كثيراً في تاريخ هذه المدينة ، يتردد مع اسم دوب
كان لرباط فيه اسمه « درب زانخي » وهو اسم سرياني نبطي من
اسماء الانباط الذين كان لهم اتصال بضياع ارض بغداد الشرقية
الحالية قبل ان تبنى وتقدن ، فمن ذلك ما ورد في ترجمة ابي الازهر
محمد بن محمد بن حمود المقرئ الصوفي . كان هذا من اهل واسط
وتعلم بها قراءة القرآن المجيد بالروايات ثم قدم ببغداد واقام في
رباط السيدة ارجوان والدة الخليفة المذكورة بدرب زانخي وبقي
فيه مقبلاً الى ان توفي سنة ٥٧١ هـ . ومن ذلك ما ورد في ترجمة

ابي شجاع محمد بن منجوع ابن عبدالله الواعظ الصوفي تفقه ببغداد
على مذهب الشافعي ثم درس بالجزيرة واتقن الفقه وعلم الخلاف ثم
خرج الى بلاد الشام وتولى القضاء ببعلبك واقام بها مدة ثم عاد
الى بغداد وسكن الرباط الارجواني بدرب زاخي على قدم التصوف ،
وكان يفني ويحدث ويعظ وله شعر حسن منه :

سلام على رادي الغضا ما تناوحت	على صفتبه شمال وجنوب
احمل انفاس الحزامي تحية	اذا آن منها بالعتشي هبوب
لمعري لئن شطت بنا غربة النوى	وحالت صروف دوننا وخطوب
وبددنا ريب الزمان وخيلت	أياس فلاقىكم الى شعوب
فما كل رمل جثته رمل عالج	وما كل ماء عمت فيه شروب
رعى الله هذا الدهر كل محاسني	لديه وان اكثرهن ذنوب

ومن شعره قوله :

عذري من زمن كلما	شدت عري املي حلها
عراس فكري قد عنست	لائي عدمت لها اهلها
ونفسي تهمل من مورد	تري الموت في الورد اذعلها
عليها من الدهر ائقاله	ولا يغلط الدهر يوماً لها

توفي ابن المنجوع في سنة ٥٨١ هـ وصلي عليه برباط الشيخ ابي
للنجيب السهروردي الذي قبره فيه ، وهو قبالة دار الضباط الحالية
على التحقيق . ولعمري لئن لم يقرن اسم هذا الرباط في التاريخ
إلا الى اسم هذا للفقيه الفاضل الشاعر الواعظ ليستحقن التمجيد
وتخيد التاريخ ، فكيف وقد كان مباداة للفضلاء ومن شيوخه اي
الذين اداروا اموره - كما يقال اليوم - كريم الدين ابو منصور

الحسين بن محمد بن ابراهيم الكاتب كان شيخاً لطيفاً محباً للعلم
فاضلاً كتب بخطه كثيراً من الكتب . وتوفي في سنة ٥٩٦ هـ .
ومنهم ابو منصور الحسين بن علي بن محمد المعروف بابن الكريم
الصوفي وهو والد محمد بن الكريم مؤلف كتاب الطيخ أحد الكتب
المهمة في الثقافة العربية ، وقد توفي سنة ٥٩٦ هـ وتولى بعده الرباط
المذكور الشيخ عفيف الدين اسفنديار بن الموفق البوشجي المنشئ
المحدث . الواعظ الخطاط الشاعر ، وقد تولى كتابة ديوان الانشاء
للدولة العباسية ببغداد في الحرم من سنة ٥٨٤ هـ وصرف عنها في
السنة نفسها ومن شعره :

وقد كنت مغري بالزمان واهله
ارى كل من طارحته الود صاحباً
ورب اناس اكتب الحظ ودم
تعاطوا ولائي ثم حالوا سامة
واعظم شيء سامة المرء دهره
أما دتنا قد كنت احظى بوصلكم
وما خلت ان البين يصدع شملكم
وثاقه ما فارقتكم عن ملالة
قطعت القلا عنهن حين اضعفني
واني اذا لم يعمل بجدي ببلدة
سيعلم قومي قدر من بان عنهم
ومن شعره :

كل له غرض يسعى ليدركه والحر يجعل ادراكه العلى غرضه

بين امواله حوناً لؤدده ولم يعن عرضه من لم ين غرضه
ومنه :

الدهر بجر والزمان ساحل والناس ركب واحل ونازل
كانهم سيارة في مهمه مكلره الدهر لهم منازل
وقد توفي اسفنديار سنة ٦٢٥ في خلافة المستنصر بالله ودفن في مشهد
عبيد الله العلوي المعروف بأبي رابعة شرقي الاعظمية .
هذا مختصر ترجمة السيدة قرة العين ارجوان وهذا بعض اخبار الرباط
الارجواني ولئن استرسلنا في تاريخ هذا الرباط لنخرجن كتاباً مستقلاً
فيه من الادب والشعر والتراجم ما تمثلنا ببعضه . وهذه ناحية من نواحي
الادب العربي بمجولة كمعدة نواح اخرى بقيت كالروضة الانف نحتاج الى
استقصاء واستقراء وتبحث وتفحص ولا سيما الادب العراقي فانه لا يزال
مغموراً مطموراً وما فتى حظه من البحث منزوراً فحسب ان يكون له
بحث ودراسة .

السيدة بنت ملكشاه السلجوقية

زوجة الخليفة المقتدي بأمر الله

هي إحدى الحواتين السلجوقيات بنت جلال الدولة ملكشاه ابن الب أرسلان السلجوقي ، أشهر الملوك من بني سلجوق ، وزوجة الخليفة عبد الله المقتدي بأمر الله العباسي ، وقد اشتهرت بلقب « خاتون » ولم يشتهر اسمها ، وهذا الامر من غرائب التاريخ الاسلامي ، والا فكيف يجمل المؤرخون المعروفون اسم سيدة هج بذكرها التاريخ ، وكانت من كبريات السيدات في العالم فضلاً عن الممالك الاسلامية ، والدول الشرقية .

كان الخليفة المقتدي لأمر الله معاصراً لملكشاه السلجوقي ، وكانت أمور العراق وغيره من البلاد الاسلامية موكولة الى السلطان المذكور ، وأتباعه كنظام الملك الوزير الشهير ، ويخطب له على منابرهما بعد الخليفة المقتدي .

وفي السنة السابعة من خلافة المقتدي ، أي سنة ٤٧٤ هـ خرج الوزير فخر الدولة أبو نصر محمد بن محمد بن جبير وزيره من بغداد ، قاصداً اصفهان ليخطب الى السلطان ملكشاه ابنته على الخليفة المقتدي بأمر الله ، وكان معه هدايا وألطاف تساوي عشرين ألف دينار على التقريب ، فلما وصل الى اصفهان خرج نظام الملك الطوسي والأمراء فاستقبلوه ، وبعد ان أقام فخر الدولة ابن جبير

شهرأ باصبيان ، كالم نظام الملك في خطبة ابنة السلطان على الخليفة ، فقال له نظام الملك ، « ما استقر في هذا شيء فان رأيتم ان نجربوا الطلب من تركان خاتون والدة الصبية » .

وكان نظام الملك أراد ان لا يدخل نفسه في القضية ، فأمره السلطان ~~ما~~كشاه ان يمضي مع وزير الخليفة الى زوجته تركان خاتون ، ليخاطبها في زواج ابنتها ، فذهبا معاً الى أم البنت فقال لها وزير الخليفة : « ان امير المؤمنين راغب في ابنتك » ، فقالت له : « قد رغب اليّ في هذا ملك غزنة وملكو الخانية بما وراء النهر ، وطلبوها وتخطبوها لأبنائهم ، وبذل كل واحد منهم اربعمائة الف دينار ، فان اعطاني امير المؤمنين هذا القدر من المال فهو أحق بها منهم ، وزواجه أحب إليّ » ، فقال لها الوزير : « رغبة امير المؤمنين لا تقابل بهذا » ، وكانت أرسلان خاتون زوجة القائم بأمر الله التي تحدثنا بسيرتها في فصل سابق ، حاضرة عندها فعرفت ما يحصل لها من الشرف والفخر في تزويجها ابنتها بالخليفة ، وقالت لها : « ان هؤلاء كلهم عبيد الخليفة وخدمه ومثل الخليفة لا يطلب منه المال » .

وجرت في ذلك مراجعات ، انتهت بقبول الطلب ، بشرط ان يجعل وزير الخليفة المقتدي بأمر الله خمسين الف دينار عن حق الرضاع ، وكان هذا من عادة الاتراك إذ ذاك عند الزواج ، وان يكون المهر أي الصداق مائة الف دينار ، فقال لها الوزير : « ما في صحبتنا مال يجعل الا أننا نستطيع ان نحصل هاهنا عشرة آلاف دينار ، ثم نبعث من بغداد بأربعمائة الف دينار » ،

فوقع الرضا بين الطرفين وشرع الوزير في تحصيل عشرة الآلاف التي وعد بها فتم يستطع ذلك ، وعلم السلطان ملكشاه بعجز الوزير عن أداء المبلغ فأمر بتأخيرته وتأجيله ، وان يرسل بالمبلغ كله من بغداد .

واشتطت ترکان خاتون أم البنت أيضاً على الخليفة ، ان يرسل الى اصبهان امه وعمته ومن يجري مجراها من اهل بيته ، والمحشمين من اهل دولته ، ولستقدم هي خواتين غزنة وسمرقند وخراسان ووجوه البلاد ، ويكون العقد بحضور هؤلاء جميعاً . واشتطت فوق ذلك ان لا تبقى في دار الخلافة مربية ولا حظية ولا قهرمانة ، وان يكون ميبته عند ابنتها فقط . فاجابها الوزير الى ذلك كله ، واخذ يد السلطان على ذلك نيابة عن زوجته ، وعاد الى بغداد وورد التبشير يوم الثلاثاء حادي عشر صفر من سنة ٤٧٥ هـ ، فكان يوم مرور وحبور ^{١٢٥٠} .

وفي سنة ٤٨٠ هـ اي بعد الخطبة بخمس سنوات ، دخلت بغداد بنت السلطان ملكشاه مع امها ترکان خاتون ونزلتا دار المملكة ، وكان السلطان ملكشاه ببغداد ايضاً بعد فتحه مدينة حلب وغديرها من بلاد الشام والجزيرة ، وفي المحرم من تلك السنة نقل جهاز الخطيبة من دار المملكة في المحرم اي اراضي العيوانية الحالية ، الى دار الخلافة العباسية ، وكان على مائة وثلاثين جملاً بحالة بالديباج الرومي ، وفي ذلك مقادير عظيمة من اشياء الذهب والفضة ، وعلى اربعة وسبعين بغلاً بحالة بالديباج الملكي واجراسها وفلاندها من الذهب والفضة ، وكان على سنة

يغال منها اثنا عشر صندوقاً من فضة لا يقدر ما فيها من الجواهر
والخيل ، وكان في الجهاز ثلاث عتاريات اي كباوات ، وكان
الخدم ونحو ثلاثة آلاف فارس يسيرون امام الجهاز والبوقات
والطبول تضرب . ومع الموكب ثلاثة وثلاثون فرساً من الخيل
الرائعة عليها سروج الذهب المرسعة بانواع الجواهر ، ومهد عظيم
كثير الذهب ، وسار بين يدي الجهاز الامير سعد الدولة كوهراين
والامير برسق ، وكانا من اعظم امراء الدولة السلجوقية .
ولما وصل الجهاز محلة نهر الملتى أي محل شارع المأمون وما
حوله من محلة باب الآغا ، نثر الناس على السائرين في موكبه
دنانير وثيراً علاناً منهم بالفرح والسرور . وكان الناس قد
أمروا - على عادة ذلك الزمن - بتعليق اسباب الفرخ وتزيين
بغداد ، استعداداً لزفاف ابنة السلطان ملكشاه الى الخليفة المقتدي .
وبعد وصول الجهاز بخمسة ايام ارسل الخليفة وزيره - وكان
بومذاك ظهيرالدين ابوشجاع محمد قدوة الوزراء ، الى تركان خاتون
عشيرة الجمعة سلع المحرم من السنة المذكورة ، وكان بين يديه نحو
ثلاثمائة شمعة موكبية ، ومثلها مشاعل من النفط ، والشمعة الموكبية
كبيرة جداً ، ويسمى بعض المؤرخين باسطوانة الشمع اي شمعة مثل
الدلك ، ولم يبق دكان في حريم دار الخلافة اي محلات النصارى
ومحلة الرواق وسوق العطارين الحالية ، الا وقد اشعل فيها شمعة
او شمعتان او اكثر من ذلك ، وكانت مع الوزير ، المملوك ظفر
بملوك الخليفة ، ومعه محفة وهي كالتختروان ، لم ير الناس مثلاً .
فلما وصل الوزير الى دار المملكة قال لتركان خاتون أم البنت :

سيدنا ومولانا امير المؤمنين يقول : « ان الله يأمركم ان تؤدوا الامانات الى اهلها ، وقد اذن في نقل الوديعة الى داره العزيزة » فقالت : « السمع والطاعة للمراسم الشريفة » . وحضر وزير السلطان نظام الملك ومن ذونه من ارباب الدولة السلجوقية كالني سعد المستوفي والامراء ، ومع كل منهم شموع ومشاعل ، وحضرت نساء الامراء الكبار ومن دونهن كل واحدة منهن منفردة في جماعتها ونجمها ، وترايفنها وتحاسبنها ، وبين أيديهن الشمعات الموكبات والمشاعل ، يحملها الفرسان على خيلهم ، ثم جاءت في آخر هذا الموكب الفخم المنير الكبير الخاتون ابنة السلطان ، في محفلة مجللة عليها كثير من الذهب والجواهر مرصعاً فيها ، وقد أحاطت بها مائتا جارية تركيات على الخيل المطهّمة ، وسار موكب العرس والعروس من دار المملكة في ارض العمواضية الخالية الى دار الخلافة تحت شارع السمورل ، وأدخلت على الخليفة المقتدي بامر الله ، وكانت تلك الليلة من الليالي البديعة الجميلة في تاريخ بغداد ، وفي تلك الليلة خرج السلطان ملكشاه والد الخاتون ، الى الصيد خارج بغداد ، على عادة الملوك إذ ذاك يوم تزويج بناتهم ، وفي صباح تلك الليلة صنع الخليفة المقتدي لأمراء السلطان وعسكره وليمة عظيمة ، استعمل فيها اربعون الف من من السكر ، وقبضة ذلك السكر وحده ثمانية آلاف دينار ، وخلع على الأمراء والكبراء وأرسل الى توكان خاتون أم زوجته بخلع عظيمة ، وإلى جميع الخوارج على حسب أقدارهم .

وعاد السلطان ملكشاه بعد الصيد الى بغداد ، ودخل محلات

نهر. المأمي وشاهد التعاليق المعلقة للفرح بزواج ابنته ، ونثرت عليه
مقادير كبيرة من الدنانير ، ثم رتب لابنته زوجة الخليفة ديواناً
ووزيراً يعرف بمز الملك وكانباً يسمى ابا الحسن بن حكار ، وبعد
ذلك خرج من بغداد قاصداً الى اصفهان .

ومن سمع اخبار هذا الزواج العظيم وانباء هذا التفرق في
الانفاق ، والتجمل الكثير في أثاث الجهاز ، ظن ان ذلك هو
السعادة والرفاهة والفناء باعيانها ، ولكن الأمر لم يكن كذلك ،
فان هذه الخاتون ولدت في شهر ذي القعدة من سنة ٤٨٠ هـ
اي سنة زواجها ، ولداً ذكراً فسماه ابوه الخليفة المقتدي « جعفراً »
وكتاه بأبي الفضل ، وزينت بغداد لأجل ذلك ، وكان حب
المقتدي لها انتقل الى ابنتها وصار الحب الزوجي حباً بنوياً ، وهذا
بما لا تصير عليه النساء ، فانهن يردن من أزواجهن حباً مزدوجاً
لهن ولأولادهن معاً .

واخذت الخاتون تشكو زوجها الخليفة الى امها وابيها ،
وتذكر لها انه كثير الاطراح لها والاعراض عنها ، واكثر في
ذلك فبعث السلطان ملكشاه الى بغداد سنة ٤٨٢ وسولين هما
بزان وصواب ليطلبها الى الخليفة الاذن في سفر الخاتون الى اصفهان عاصمة
الدولة السلجوقية فاذن الخليفة في ذلك بعد التلكو ، فخرجت من بغداد
وكان ذلك بعد سنتين من زواجها ، واخذت معها ابنتها الامير ابا الفضل
جعفر ابن المقتدي بأمر الله ، وخرج لتشييعها سائر ارباب الدولة ، وشيها
الوزير ابو شجاع المذكور الى بلدة النهر وان نحت بعقوبا ، وكان يسير بين
يدي محفة الامير ابي الفضل ، هو والامير سعد الدولة كوهرايين وخدم

دار الخلافة وسار معها الى اصفهان النقيباني ، نقيب بني العباس ونقيب آل
 ابي طالب ، فوصلت الى امدينة المذكورة وبقيت فيها الى ذي القعدة من
 السنة المذكورة ، فجدرت هناك وتوفيت بالجدري ووصل نعياها الى بغداد
 فجلس الوزير للعزاء سبعة ايام ، واكثر الشعراء من الرثاء لها ببغداد ، وكانت
 هذه الحادثة الاليمة بما اوهى الاتصال بين الخليفة المقتدي ، والسلطان
 ملكشاه ، حتى عزم السلطان على تشييت امر المقتدي ، واخرجه من بغداد
 الى حيث يشاء ، فحال الموت دون انفاذ امره فانه - اعني السلطان
 ملكشاه - توفي سنة ١٠٨٥ هـ ودفن في مقبرة الشويكري اي مقبرة الشيخ
 جنيد الحالية ، هذا ما وقع البنا من سيرة الخاتون ابنة السلطان ملكشاه
 السلجوقية ...

السيدة بنت ملكشاه الثانية

زوجة الخليفة المستظهر بالله العباسي

هي الخاتون بنت ملكشاه الثانية ، زوجة الخليفة المستظهر بالله ابن المقتدي بامر الله ، وأخبارها على قلبها عجيبة غريبة ، وزوجها الخليفة احمد المستظهر بالله ولي الخلافة في سنة ٤٨٧ ، بعد وفاة أبيه المقتدي بامر الله ، وكان - أعني المستظهر - ابن ست عشرة سنة وشهرين حد ولايته الخلافة ، وفي سنة ٥٠٢ أراد أن يتصل بالسلاجقة بالمصاهرة ، وكان سلطانهم محمد بن السلطان ملكشاه ، وكانت في حمايته الخلافة العباسية ، فخطب اليه الخليفة المستظهر بالله اخته الخاتون بنت ملكشاه الثانية ، فاجابه إلى خطبته ، وأجري عقد الزواج بمدينة اصفهان عاصمة الدولة السلجوقية ، في يوم الجمعة الثاني والعشرين من شعبان سنة ٥٠٢ المذكورة ، وكان وكيل الخليفة وزير السلطان محمد ، وهو نظام الملك الصغير احمد ابن نظام الملك الكبير ، وخطب خطبة الاملاك الفقيه ابو العلاء صاعد بن محمد الحنفي النيسابوري ، على صداق مقداره مائة الف دينار ، على جاري عادة الخلفاء والسلاطين إذ ذاك ، ونثر في العقد دنانير وجواهر ، وبقيت الخاتون باصفهان حتى سنة ٥٠٤ . فقبحا بعث الخليفة المستظهر بالله القاضي زين الاسلام محمد بن نصر النهروني ، الى اصفهان لاستحضار زوجته الخاتون ، وفي تلك السنة

في يوم السبت الثامن والعشرين من رجب منها جيء بها الى بغداد ، وكان اخوها السلطان محمد بن ملكشاه ببغداد ، فترأت عنده بدار المملكة في ارض العيراضية الحالية ، ثم نقل جهازها في شهر رمضان ، على مائة واثنين وستين جملاً وسبعة وعشرين بغلاً ، وكان في الجهاز جوار مزيينات يمشين بين يدي محفة الخاتون ، وجنائب ومهور ، وزينت بغداد وغلقت الاسواق ونصبت القباب ، وهي كأقواس النصر والظفر في عصرنا ، وتشاغل اهل بغداد بالفرح ، وكان زفاف الخاتون الى المستظهر بالله في ليلة العاشر من شهر رمضان وكانت ليلة زفافها من ليالي السرور العظيمة ، وكان للمستظهر زوجة اسمها ست السادة نزهة وكانت صفراء .

هذه اخبار زواج الخاتون وزفافها ، وهي كما يسمع الملقى سمعه ، مختصرة مقتضبة ، لا تفصيل فيها ولا تلخيص ، فالتواريخ التي تحت يدينا لم تذكر اسمها ولا تاريخ مولدها ، ولا اوصافها وشمالها ، وبزواجها انتقلت من بيت السلطنة الى بيت الخلافة ، فكان ذلك اشد خفاءً لأخبارها ، واعظم سترًا لأحوالها ، على أننا نفقش التواريخ تفتيشاً دقيقاً ، ونتفحصها تفحصاً محكماً ، ونلتقط الأخبار التقاطاً ، وقد وجدنا خبراً لهذه الخاتون زوجة المستظهر بالله في حوادث سنة ٥١٧ هـ ، وهي سنة بناء السور على بغداد الشرفية ، اي ببغداد التي كان يبتدىء سورها من فوق القلعة نحو الشرق الى جهة قبر الشيخ عمر السهروردي ، ثم باب الشيخ حتى الباب الشرقي ، فان الخليفة المسترشد بالله بن المستظهر بالله واهله نزهة ضرة الخاتون المذكورة ، هو الذي تولى الخلافة

بعد أبيه ، وكانت وفاة أبيه سنة ٥١٢ هـ ، فالحاتون اذن عاشت
 مع زوجها الخليفة المستظهر ثنائي سنوات ، وتوفي عنها غيبقت أتما ،
 وكان لها مال واقطاع أي مقاطعات ، وسلطة كبيرة لأن
 اخوتها كانوا سلاطين العالم الشرقي ، وهم السلطان محمد الذي
 ذكرناه ، والسلطان بركيارق والسلطان سنجر ، أجل ورد
 ذكرها في خبر بناء السور سنة ٥١٧ هـ ، وتفصيل ذلك أن الخليفة
 المسترشد بالله أمر في هذه السنة ببناء السور ، ليحصن بغداد
 ويبعد الى الدولة العباسية استقلالها ، لأن الدفاع داخل الاسوار
 كان من قواعد الحروب وضروب الاعتصام في ذلكم الزمان ،
 وكان اهل بغداد يهابون في السور يبني فيه اهل كل محلة منهم
 اسبوعا ، ويخرجون بالطبول والصنجات والملاهي ، ومن آثار
 ذلك السور باب الظفيرة المعروف اليوم بالباب الوسطاني ، ورأى
 الخليفة المسترشد في تلك الايام فرصة لظهور أبنائه وابناء اخوته ،
 وكانوا اثني عشر صبياً ، فأذن للناس ان يقيموا معالم الفرح ،
 ويعلقوا ادوات السرور وآلات الابتهاج ، فعلقوا الشياح الديباج
 والجواهر ، وظهر لهم من ذلك منظر رائع الجمال والمال ،
 وعملت الحاتون بنت منكشاه زوجة الخليفة المستظهر بالله ، قبة
 بباب النوبي ، والقبة كما قلنا تشبه قوس الظفر في عصرنا ، وباب
 النوبي كان احد ابواب دار الخلافة العباسية ، فوق ارض جامع
 الحاصكي بقليل ، وعملت قبة ثانية بدرج الدواب ، وهو درب
 محلة الرواق ، وكان في القبة غرائب منحوتة وحلل عجيبة ، ونصب
 عليها ستران من الديباج الرومي ، مقدار كل واحد منهما عشرون

ذراعاً في عشرين ، وعلى أحدهما اسم الخليفة المنتقي لله وعلى الآخر اسم المعتز بالله ، وأظهر الناس أشياءهم المحبوة وجواهرهم المكنوزة ، وعرضوها سبعة أيام بلياليهن .

وفي سنة ٥٢٦ في خلافة المسترشد بالله ، تكلم أهل بغداد في الخاتون المذكورة بسبب شاب بغدادى يعرف بابن المهتر أي رئيس الفراشين ، فقتل الخليفة المسترشد ابن المهتر المذكور ، وأظهر للناس أنه هرب ، وأحضر بمالك الخاتون واسمه نازح . أو هو مصنف الاسم ف قيل له : (أنت حافظ الخاتون وقد قذفت بالزنا مع ابن المهتر) فحفعوه وأخذوا خيله وقرينه ، وأما الخاتون فإن ابن زوجها الخليفة المسترشد بالله ، أخذ منها مقاطعتها ، وطردها وخدمها ، وأقام معها في دارها من يحفظها ، وكتب إلى أخيها السلطان سنجر بالقضية ، وكان سنجر سلطان خراسان كبير السلاطين من بني سلجوق إذ ذاك ، يستأمره في أمر اخته الخاتون ، واشتبر أمرها بين الناس ، وكتبت هي إلى أخيها السلطان سنجر تشكو المسترشد ، وإذا كانت القضية تمس عرض الامبراطورية السلجوقية ، فضلاً عن عرض الخلافة العباسية ، قامت بين الدولتين عداوة ذرقاء ، ونشأ حقد ونضاغن ، نسي فيه الدين وتولزل فيه اليقين ، فقد قيل إن السلطان سنجر كتب إلى اخته ببغداد أنه عازم على الفتك بالخليفة المسترشد بالله ، بما فضع البيت السلجوقي ، فضيحة لا يزول ذكرها على مر الدهور . وركز العصور ، وعلم الخليفة المسترشد بالله أن السلطان سنجر في جانب اخته عليه ، فإنه أخذ منها الكتاب الذي أرسل به إليها

أخوها ، وهيجبه ما رآه فيه من التوعد والتهدد ، فعمله ذلك على الخروج الى قتال السلطان سنجر ، وقطع خطبته ببغداد ونواحي العراق الاخرى ، والخطبة بالسلطنة لمسعود بن محمد بن ملكشاه ، ومن بعده لدارد بن محمود بن محمد بن ملكشاه وهو ابن أخي مسعود ، ثم اتحد السلجوقيون الا واحداً منهم على الخليفة ، وخرج الى حربهم فكسروا جيشه للعراقي قرب همدان وأسروه ، ثم بعثوا عليه رجلاً فقتلوه في خبسته سنة ٥٢٩ هـ ، ومثلوا به أقبح تمثيل : جددوا أنفه وأذنيه وتركوه مجرداً عرياناً ، وكان في ذلك التمثيل دليل على الانتقام للعرض على نحو ما تفعل الأقوام الوحشية حتى اليوم ، والا فليس فوق القتل واعدام الروح فعل يقام له وزن ، ويكون له أثر ، وأذى ، وانهم السلجوقيون بهذه الجريمة الشنيعة الاسماعيلية الباطنية ليخلصوا منها .

وبقيت الخاتون ببغداد بعد قتل المسترشد بالله ، وكان لها أثر محمود في حصار بغداد سنة ٥٣٠ هـ ، فبات السلطان مسعوداً حاصر فيها الخليفة الراشد بن المسترشد ، وخاف اهل بغداد فحصل كثير منهم اموالهم الى دار الخليفة ودار الخاتون ، ثم خرج الخليفة الراشد من بغداد رابع عشر ذي القعدة بعد ان سلم دار الخلافة ومفاتيحها الى الخاتون ، فأخرجت اصحابها لحفظ باب النوري من ابواب دار الخلافة ، وقد قلنا انه كان فوق ارض جامع الحاصكي بقليل ، وترك الراشد نساءه وأولاده عند الخاتون ايضاً ، ثم دخل السلطان مسعود بغداد ظافراً وأخذ جميع ما كان للراشد من المال والمقاطعات ، فمضت اليه الخاتون وهو بدار المملكة

ومرت في مضيقها بسوق الثلاثاء ، اي سوق باب الأغا الحالي وما
يتصل به من الاسواق ، وبين يديها القواد والجنود الاتراك
واستعطفته واسترحمته ، فرد على أهل الراشد جميع ما اخذه على
التقريب ، وحرر لهم ما كان في ملكهم من المقاطعات ، وعظمت
منزلة الخاتون بعد ذلك حتى استوزرت لنفسها صاحب مخزن الخلافة
وكان كروزي المالية ، وكانت لها مقامة محودة ايضاً في سنة ٥٣٢ ،
فان السلطان مسعوداً استولى على بلاد بني ديبس الاسدي المزيدي ، من
الحلة وغيرها من سقي الفرات ، وبقوا في ضيق شديد فأرسلوا اختهم
سفري بنت ديبس ابن صدقة ملك العرب ، الى الخاتون زوجة
المستظهر المذكورة لتستشفع بها الى السلطان مسعود ، ليعيد عليها
بعض ما اخذ منها وشكت اليها الضرر ، وكانت سفري بنت
ديبس هذه من زوجتيه كهار خاتون بنت عميد الدولة محمد بن
محمد بن جبير الوزير ، وكانت سفري في غاية الجمال ، فوصفتها
الخاتون للسلطان مسعود فقال لها : « أحضرها عندك حتى أحضر
القضاء واتزوجها » ففعلت وتزوجها وأمر الوزير بان تزين بغداد
لزواجه سبعة أيام ، فظهر في التزيين فساد عظيم بضرب الطبول
والزمرور والحكايات اي التمثيل الهزلي ، وشرب الخمر جهاراً .
هكذا قال احد المؤرخين .

وفي سنة ٥٣٣ وصل رسول من طغرل بن هاورت
السلجوقي ملك كرمان ، الى السلطان مسعود بخطب اليه عمه
أبيه الخاتون زوجة المستظهر بالله ، وكان بين موت زوجها
الخليفة وخطبتها الثانية إحدى وعشرون سنة ، وكان مع الرسول

تحف حسنة ، فأرسل السلطان مسعود وزيره الى دار الخاتون فاستأذنها في تزويج نفسها بالملك المذكور ، فأذنت في ذلك ، فحضر القضاة ودار المملكة ووقع الاملاك في ثامن عشر صفر من السنة المذكورة ، على صداق مقداره مائة الف دينار ، ونثرت فيه الدراهم والدنانير - على جاري العادة - ، ثم سورت الخاتون الى كرمان فماتت عند وصولها الى هناك ، وذلك سنة ٥٣٦ هـ في خلافة المقتضي لامر الله ، وورد الخبر ببغداد بموتها فعمل له عزاء قعد فيه يومين في الديوان ، قال أحد المؤرخين : وكانت دارها ببغداد حياً للناس ولها هبة واصحاب في خدمتها ، وبقيت صفحات أخبارها - على قلتها - كما قلنا عجيبه غريبة ، فسانها أثرت في السياسة وفي التاريخ وحدثت عداوة بين بيت الخلفاء وبيت السلاطين السلاجقة ، بشذوذ سيرتها واتباعها امراً اذاً ، أما زوجها الثاني طغرل بن قاورت السلجوقي ملك كرمان ، فقد توفي سنة ٥٦٥ هـ ، أي بعد زواجه بها بنسع وعشرين سنة ، وهذا يدل على التفاوت بين اعمارهما وعلى ان الزواج كان لصيانة الشرف لا غير .

فاطمة خاتون

بنت السلطان محمد السجوقي

هذه السيدة العظيمة هي فاطمة خاتون بنت السلطان محمد بن السلطان ملكشاه بن السلطان ألب أرسلان السلجوقي . وزوجة الخليفة العباسي العظيم المقتفي لأمر الله ، بحي شرف الدولة العباسية ، ومعيد استقلالها ، ومجدد جلالها ، وقاصم ظهور أعدائها ، ورافع لواءها المنصور . انا لم نجد في التاريخ سنة ولادة السيدة فاطمة خاتون ، ولا عثرنا على شيء من نشأتها في صباها . وهي في هذا الغموض من السيرة كسائر الأميرات وبنات السلاطين والملوك فضلاً عن بنات الخلفاء . ولولا تزوج الخليفة المقتفي لأمر الله لها لطوى الزمان اسمها مع الاسماء المطوية — على جلالتها ونبلها — فتاريخنا تاريخ الرجال . كان لفاطمة خاتون خمسة اخوة : محمود ومعمود وطغرل وسليمان وسلاجوق ؛ صار اربعة منهم سلاطين في الدولة السلجوقية ، والذي لم يخطب له بالسلطنة هو سلاجوق . ولا ندري كم اختاً لها ، وكانت تقرأ وتكتب وذلك نادر في بنات تلك العصور وان كن سليلات السلاطين . وسبب زواجها أن السلطان سنجر بن ملكشاه وابن أخيه السلطان معموداً — أعني عمها وأخاها — بعد أن تواطأ على قتل الخليفين العباسيين الشهيدين المسترشد بالله والراشد بالله ، قبعت سمعتها ، ونفرت منها قلوب الرعايا ، وطعن

الناس على عقائدهما ، فأرادا ان ينفيا عن أنفسهما تلك الجريمة الفظيعة ، وينمسا من تلك الجناية الشنيعة ، فزوجا أبا عبدالله محمد المقتفي لامر الله فاطمة خاتون ، وطلبا اليه أن يزوج ابنته السيدة زبيدة بالسلطان مسعود أحد السلطانيين الطالبين ، وكانت زواج السيدة زبيدة على قاعة زواج السيدة بنت القائم بأمر الله العباسي بطغرل بك ، اي ان لا يلامها حتى يفرق بينهما الموت ، لانها عباسية وهو تركي ولم يكن كفواً لها ، وقد أرادا بذلك ان يظهران للناس تعلقهما بالدولة العباسية واخلاصهما لبني العباس ، ومصافاتها لهم ، وهكذا تكون اعمال المرائين وبمكائد المجرمين ، يقتلون بيد ويصافحون باخرى .

وفي شعبان من سنة ٥٣١ عقد للمقتفي لامر الله على فاطمة خاتون ببغداد ، وكان مبلغ صداقها «مائة الف دينار» وهو صداق جند نادر في التاريخ ، وكانت وكيل المقتفي لامر الله شرف الدين ابو القاسم علي بن طراد الزينبي العباسي ، وحضر العقد اخوها السلطان مسعود واكابر الدولة ، ونثرت في العقد جواهر وحب لؤلؤ وثمانيل كافور وعنبر ، وفي سنة ٥٣٤ دخلت فاطمة خاتون بغداد في صحبة اخيها السلطان مسعود ، واقامت عنده بدار المملكة وكانت في محلة العلواذية ، ثم زفت في جمادى الآخرة وقيل في الاول الى الخليفة المقتفي في زي عجب وموكب مهيب ، وكان في موكب زفافها زوجة السلطان مسعود سفري بنت دبيس بن صدقة الاسدي المزديدي ملك الحلة ، وأميرة سلجوقية من كبيرات الاميرات والوزير شرف الدين الزيتبي المذكور ، وموكب الدولة العباسية وفيه المهدي ، وهذا المهدشي مستحدث

اتخذته الدولة العباسية في مواكبتها ، على نحو سكية بني اسرائيل ،
 وزينت بغداد عشرة ايام ابتهاجاً بذلك الزواج العظيم المشهود ،
 وقد وصفت هذه السيدة على قلة اخبارها بالتدبير الصائب والرأي
 الحسن ، ومن اخبارها انها كانت ذات ليلة من سنة ٥٤١ مع
 زوجها الخليفة في قصر من قصور دار الخلافة مشرف على مشرعة
 باب الغربية ، اي شريعة المصبغة الحالية في شارع السموم ، وكانت
 تعرف ايضاً بمشرعة الابريين اي باعة الابرة ، فاحترق القصر كله
 من شجرة كانت بيد جارية من جوارى السيدة لان ناراها علقت
 باطراف خيش وهو نسيج كالجنفاص كان يستعمل للراوح في
 الصيف ، وخرج المقتفي وفاطمة خاتون ليلاً من القصر هرباً من
 النار واحترق في القصر اثاث عظيم وآلات كثيرة وزين رائع ،
 ولما اصبح المقتفي اطلق المسجونين وتصدق باموال كثيرة ، شكراً
 لله على سلامته وسلامة زوجته ، وسكنت فاطمة خاتون بعد ذلك
 قصرأ في دار الخلافة يعرف بدركاه خاتون اي قصر الخاتون ، وهي
 زوجة المستظهر بالله العباسي ، والحي الذي كان حوله من داخل
 سور دار الخلافة عرف بالخاتونيتين ، الخاتونية الداخلية والخاتونية
 الخارجية ، وكان ذلك القصر من ابنية الخليفة المستظهر بالله والد
 المقتفي لامر الله ، وقد داخلت ارضه بعد ذلك فيما وراء جامع
 مرجان من الشارع والخانات والعمارات والدكاكين ، ويصعب
 تعيين بقمته مع هذا التغيير الكبير في خطط بغداد العتيقة ، ولا
 سيما خطط دار الخلافة العباسية المتأخرة ، فانها كانت كنصف
 دائرة تبدأ من مشرعة شارع السموم وينتهي قوسها على شرقي

شارع الرشيد ، وينتهي عند مشرعة السيد سلطان علي ويدخل في ذلك بهاتين دار الخلافة العباسية والحير اي حديقة الحيوانات ، ودواوين الدولة على كثرتها وأنواعها . فهذه دار الخلافة للشرقية في اواخر الدولة العباسية . ولم تعش فاطمة خاتون في دار الخلافة العباسية عيشاً طويلاً ، فانها توفيت في يوم السبت الثاني والعشرين من شهر ربيع الآخر من سنة ٥٤٢ ، وصلى عليها الشريف الاكمل نور الهدى نظام الحضرتين ابو القاسم علي بن الحسين الزينبي الحنفي ، فاضي فضاة الدولة العباسية ، في صحن السلام بقصر التاج وكان في ارض المحكمة الشرعية وما جاورها ، ثم حملت جنازتها من دار الخلافة في زيزب وهو نوع من السفن في تلك العصور ، واصعدوا بها الى توب العباسيين اي مدفهم في محلة الرصافة ، وكانت محلة الرصافة في جنوبي محلة الامام ابي حنيفة النعمان بن ثابت ، وأن ارض المقبرة الملكية « يكسر اللام » الحالية ، قرب الاعظمية كانت من محلة الرصافة ، وكان حول الرصافة في اواخر الدولة العباسية سور يفصلها عن محلة ابي حنيفة ، وانت كانتا متجاورتين ، متاهدتين .

ودفنت فاطمة خاتون هناك ، قرب مدفن الخليفة المستظهر بالله والد زوجها داخل القبة ، وكان ذلك تعظيماً لها لأن الرصافة كانت مقبرة خاصة العباسيين حسب ، ولا يدفن فيها الا العباسيون والعباسيات ، من اسرة الخلفاء ، وقد زال قبرها بزوال قبر المستظهر بالله وغيره من قبوز بني العباس ، فان هولاكو الجبار لما حاصر بغداد سنة ٦٥٦ احرق مقابر الخلفاء بالرصافة ونش قبرهم وبرزت منها الرؤوس والعظام ،

وفي ذلك قال شمس الدين محمد بن عبيد الله الكوفي الشاعر
الواعظ وقد رأى ما فعل التتار بالقبور :

ان تود عبوة قتلك بنو العباس حلت عليهم الآفات
استبيح الحريم إذ قتل الأحياء منهم واحرق السموات

وقد ذكر ابن بطوطة قبور بني العباس بالرصافة ذكرأ يشك فيه لانه
سرد اسماءهم من المهدي الى المستعصم بالله ، وقال : « وعلى كل قبر منها
اسم صاحبه » وفي اقواله مجازفة وسعور - كما هو ظاهر للمحققين في التاريخ .
ومن الغريب ان هذه السيدة الجليلة النبيلة لم تتروك شيئاً من
الآثار ببغداد ولا في غيرها ، وأن بقاءها في عصمة الخليفة المقتفي
لامر الله ثاني سنوات كان كافياً في اتيان عمل من الاعمال الصالحة
الباقية ، وقد ذكرها العالم الخططي كاي تسترجع الانكليزي في
كتابه الخططي الموسوم ببغداد في عهد الخلافة العباسية وقال :
« اشتهرت بكونها أميرة ذات عقل وعلم وسلطان وقدرة في
الشؤون السياسية اذ ذاك ، وقد وافتها المنية في دركاه خاتون
سنة ٥٤٢ قبل وفاة زوجها المقتفي لامر الله ، فدفنها في قبور
الخلفاء في الرصافة » . وفي اقواله تريد وتسمح وتساهل . والظاهر
أنه نقل ما ورد في وفيات الاعيان استطراداً فقد قال مؤلفه :
« ويقال ان فاطمة خاتون كانت تقرأ وتكتب ولها التدبير الصائب ،
وسكنت في الموضع المعروف بدركاه خاتون وتوفيت في عصمة
المقتفي يوم السبت الثاني والعشرين من شهر ربيع الآخر سنة ٥٤٢ ،
ودفنت بالرصافة . رحمة الله عليها » . هذا قول مؤلف الوفيات وبين
القولين فرق مبين وان كان الرجل مثباً ثناءً حسناً .

السيدة زبيدة بنت المقتفي لأمر الله

ذكرت في البحث السابق لهذا أن السلطان مسعوداً السلجوقي ، زوج أخته فاطمة خاتون بنت السلطان محمد السلجوقي ، بالخليفة المقتفي لأمر الله أبي عبد الله محمد بن المستظهر بالله ، وحمل الخليفة المذكور على أن يزوجه ابنته السيدة زبيدة ، اظهاراً منه ومن عمه السلطان سنجر لمصافاتها البيت العباسي ذا الخلافة ، وللتعزية على معالم الحريمة الكبرى التي أجرامها ، باغتيالها الخليفين العظيمين المسترشد بالله وابنه الراسد بالله . وفي رجب من سنة ٥٣٤ هـ عقد أملاك السلطان مسعود للسيدة زبيدة ، وحضر العقد وزير الخليفة أبو القاسم علي بن طراد الزينبي العباسي ، ووزير السلطان مسعود ، وكان صداقها مائة ألف دينار ، أي بقدر صداق فاطمة خاتون السلجوقية ، ونثر في العقد ثار عظيم ، وكنا اثرتنا إلى أن هذا الزواج كان كزواج السيدة بنت الخليفة القائم بأمر الله ، اشترط فيه على السلطان المذكور أن لا يدخل بها ولا يلامسها حتى يفرق الموت بينهما ، وقد كانت صغيرة أيام أملاكها ، قال المؤرخ المحدث الكبير عز الدين ابن الأثير في النسخة الأولى من تاريخه الكامل وهي غير المطبوعة : « واستقر أن يتأخر زفافها خمس سنين لصغرها » .

قلت : وكبها كان الأمر فإن زواجها كان شكلياً لا حقيقياً ،

وهو ظلم صريح تنفر منه البشرية وتوقفه. الانسانية اشد الرفض ،
 وإذ كان الشيء بالشيء يذكر والحديث ذا شجون ، حسن ان
 نذكر جهل من اخترع قصة املاك جعفر بن يحيى البرمكي ،
 بالعباسة أخت الرشيد مع كونه من المستحبات شرعاً وعرفاً
 وشرفاً ، لأنها كانت هاشمية عباسية ، ولم يكن من اكفائها قط ،
 هذا من جهة العقل والرسوم ، وأما دليل النقل فهو ان العباسية
 بنت المهدي كانت زوجة محمد بن سليمان بن علي بن عبد الله
 بن العباس ، زوجه اياها اونها المهدي وحملها اليه وهو في البصرة ،
 وكان الخليفة أبو جعفر المنصور قلده اياها مرتين ، الثانية منها
 في سنة ١٥٩ ، واقره المهدي ثم الرشيد عليها وتوفي سنة ١٧٣هـ .
 ويظهر أيضاً من كون زواج السيدة زبيدة وزواج السيدة
 بنت القاسم بأمر الله للتشرف واكتساب الأجر ، بطلان ما ادعاه
 جرجي زيدان في احدى رواياته من ان طغرل بك ، اراد ان
 يكون له ابن من السيدة العباسية فيبايع بالخلافة بعده ، حتى
 لقد جرى هذا الوم بين الناس جري المسلمات ، ولم يفكروا في
 ان اجباط الخلفاء العباسيين لا يجوز لهم ولاية الخلافة ابداً ، ومن
 الحق ان الروايات التاريخية المكسوة خيالاً ، يجب فيها ان
 نستمد من حقائق التاريخ وترايبه وتحاسينه ، لئلا تفسد على الناس
 تاريخهم وتضل المبتدئين بدراسة السير ، ونوهم المتوسطين لدراستها .
 اجل تزوج السلطان مسمود السلاجوقي السيدة زبيدة بنت
 المقتفي لامر الله تزوجاً لفظياً ، ولم يتصل بها حتى توفي سنة ٥٤٧هـ ،
 وكان سواها عليها حياته وموته ، بل كان ذلك العقد وصمة من

وصحات الزمان ومصيبة عظيمة من مصائبه ، لما كان عليه هذا السلطان من الجور والجبروت والظلم والعسف ، والاسراع الى سفك الدماء حتى دماء الخلفاء ، وسوء الولاية والتدبير ، وقبح السيرة والسيرة ، وغبرت السيدة زبيدة بعده اثنتين واربعين سنة ، وتوفي ببغداد سنة ٥٨٩ هـ . ولم نجد فيما تحت ايدينا من التواريخ اين دفنت ، ولو كنا ممن يقرطون في علم الخطط الذي هو فن جليل مستقل نلقنا ان القبر المشهور المعروف عند الشيخ معروف الكرخي هو قبرها ، فان الست زبيدة واسمها « امة العزيز » زوجة هرون الرشيد دفنت في مقابر قرش وهي الكاظمية الخالصة كما ذكرنا في الكتاب ، فنحن لا نقول ذلك ولن نقوله حتى نجد في التاريخ نصاً قاطعاً لكل شبهة ، ولكننا نرى ذلك مستحيل الوقوع لان زبيدة بنت المقتفي لامر الله كانت توجب رسوم الدولة العباسية في عصرها ، ان تدفن في مقابر الخلفاء العباسيين في محلة الرصافة ، وهي اليوم الارض التي بنيت فيها المقبرة الملكية في جنوبي الاعظمية ، ثم اننا لم نجد لهذه السيدة اخباراً تذكر سوى ما اثنوا لمن القوا اليها اسماعيل ، بعد ما اثنوا من بطون الكتب ، ومن الغريب ان جماعة من المؤرخين ذكروها باسم السيدة بنت المقتفي ولم يصرحوا باسمها ، منهم المؤرخ الكبير المحدث عز الدين ابن الاثير ، والامام العلامة جمال الدين ابو الفرج بن الجوزي .

وكان هذه السيدة مولى من الموالى الاتراك اسمه « ابو سعيد ارسلان ابن عبدالله الرومي » ويعرف بالسيدي نسبة الى السيدة المذكورة ، وكان رجلاً صالحاً اقبل على سماع الحديث النبوي

ولقنه عن الشيوخ ببغداد ، فمن روى هو عنه الحديث الشيخ
 أبو المعالي أحمد بن عبد الغني بن خليفة الباجسراي ، من قرية باجسر
 المعروفة بأبي جصرة اليوم فوق بعقوبا ، وعمر حتى بلغ نيفاً
 وتسعين سنة من العمر ، وروى الحديث النبوي ، قال جمال الدين
 ابن الدبيثي المؤرخ المحدث المقرئ : « سمعنا منه الحديث » ، وقال أيضاً :
 قرأت علي أرسلان بن عبدالله السبدي [قلت له] : أخبركم أبو المعالي
 أحمد بن عبد الغني بن محمد الثاني [ورفع الحديث إلى عبدالله بن مسعود
 قال] قال رسول الله - صلوات الله عليه - « سباب المسلم فسوق
 وقتاله كفر » ، وهذا الحديث الكريم من أجل الأحاديث في تربية
 ما يسميه المعاصرون بالجمتمع . ولو لم يكن لهذه السيدة العظيمة
 من الآثار إلا هذا الولاء الذي كتبه الشيخ أرسلان ، حتى صار
 محدثاً لوجب ذكرها واحسان الحديث في سيرتها ، فكيف وهي
 بنت خليفة وزوجة سلطان ؟ وتوفي الشيخ أبو سعيد أرسلان السبدي
 ببغداد ، في اليوم الثالث عشر من شهر ذي الحجة من سنة ٦٣٦ هـ .
 ودفن في المقبرة الوردية في الجانب الشرقي من بغداد ، وهي
 المعروفة بمقبرة الشيخ عمر السهروردي .

أما المؤرخون الذين ذكروا السيدة زبيدة بنت المقتفي لأمر
 الله وباسمها الصريح ، وقرأنا ذلك في تواريتهم ، فهم علي بن أبي
 الفرج البصري مؤلف الحاشية البصرية ، فقد ذكرها في تاريخه الموسوم
 « بالانساب العباسية والمفاخر المستنصرية » وقد ألفه سنة ٦٥٩ هـ .
 والمؤرخ شمس الدين الذهبي في تاريخ الاسلام ، وصلاح الدين
 الصفدي في الوافي بالوفيات ، وجمال الدين بن تغري بردي

مسنطرداً ، الى ذكرها في ترجمة احدى السيدات العظيمات اللاتي
 كان صداقهن « مائة الف دينار » ، وذلك في كتابه « المنهل
 الصافي والمستوفي بعد الوافي » ، وكل هذه الكتب خطية . قال ابن
 تغري بردي في اصداق عظيمة « وكان صداقها على زوجها مائة الف
 دينار كصداق خديجة الساجوقية على الخليفة القائم بأمر الله ،
 وكذلك المكتفي زوج ابنته زبيدة بالسلطان مسعود بن محمد بن
 ملكشاه الساجوقي ، على صداق مائة الف دينار » . وقد قال
 « المكتفي » بالكاف ولم يقل المكتفي بالقاف ، وقوله غلط صريح ،
 فبها بنت المكتفي لأمر الله المتوفى سنة ٥٥٥ لا بنت المكتفي
 المتوفى ٢٩٥ ، وبين وفاتها مائتان وستون سنة ، وهذا الغلط
 يدل على ان المؤرخ لا يكون بارعاً إلا اذا كان قوي الحافظة
 متين الذاكرة . وإلا كان كثير الاوهام والسهو .

الست بنفشة

(سيرتها و آثارها، ومدرستها بالجانب المرقى، وقبرها تحت قبّة الست زبيدة)
ان هذه السيدة الكبيرة كانت في اول امرها بملوكة رومية
من الجوارى اللاتي افضت النخاسة بين الى دار الخلافة العباسية ،
فمنهن من صرن بعد اعتاقهن من رقبن سبكات ، ومنهن من
اصبحن امهات للخلفاء والامراء ، ولما كانت المرأة قليلة الخط
من التاريخ الاسلامي لم يكن غريبا قط أن نجعل من اول تاريخ
الست بنفشة جانبا ، ولولا أنها أثرت آثاراً حسنة وانت افعالا
مستحسنة ما احتوى على ذكرها تاريخ ولا اشار الى اسمها . لقد
كان سيدها الخليفة المستضيء بأمر الله تقيا ورعا مستقيما السيرة
عادلا الا انه كان مستضعفا عاجزا عن الاضطلاع بامور الخلافة
مستكينا ، فكثرت الاضطرابات في عهده ، وتنافس الامراء
والوزراء في الاخذ بزمام السلطان . واستدعى ذلك احياء العصبية
المنهية ، وطمع الدولة السلجوقية في تجديد حكمها في العراق بعد
انقراضه ، وتنقص ملوك الاطراف وامراءها لاطراف العراق ثم انتهى
ذلك كله بموت هذا الامام واستخلاف ابنه الخليفة المهام الناصر
لدين الله بالتاريخ الذي ذكرناه قبل هذا - نعني سنة وفاته - .
وكان من المتوقع ان تكون الست بنفشة كسيدها تقية زاهدة
عابدة تصرف همها لأعمال البر والاحسان والآثار الصالحة ،

والافعال الخالدة ، وكان المستضيء بأمر الله جارية اخرى اسمها زمرد خاتون . وكانت المنافسة بينها طبيعية وكل منهما كانت تلقب بالجهة ، وهي كناية عن السيدة العظيمة من سيدات الخلفاء والسلطين .
 الا ان زمرد خاتون ولدت لسيدتها من الاولاد فصارت حرة بعد اعتاقها او ولادتها ، وتأثرت لما فضل عظيم بذلك . وكانت بنفسها حنبلية المذهب وزمرد شافعية المذهب ، وكانت على شافعيتهما تمطف على الحنابلة وتحسن اليهم وترعى مصالحهم طول خلافة زوجها المستضيء بأمر الله والمدة التي عاشتها من خلافة ابنها الخليفة الناصر لدين الله ، وهذا امر يدل على التسامح المذهبي النليل .

ومن اجل آثار الجهة بنفسه مدرسة كانت اتخذتها للحنابلة سنة ٥٧٠ ، في باب الشعير بباب الأزج^١ من بغداد . قال جمال الدين ابو الفرج ابن الجوزي في حوادث هذه السنة : وفي يوم الخميس خامس عشرين شعبان سلمت الى المدرسة التي كانت داراً لنظام الدين ابن ابي نصر (المظفر بن علي بن محمد) بن جبير ، وكانت قد وصلت ملكيتها ، الى الجهة المسماة بنفسه فجعلتها مدرسة وسلمتها الى ابي جعفر بن الصباغ ، فبقي المفتاح معه اياماً ثم استعادت منه المفتاح وسلمته الى من غير طلب كان مني ، وكتب في كتاب الوقف : انها وقف على اصحاب احمد (بن حنبل رضي الله عنه) وتقدم الى يوم الخميس المذكور بذكر الدرس في المدرسة ، فعرض

(١) باب الأزج اسم لمحلة كبيرة كانت تسمى بها المواضع التي تشمل محلة السيد سلطان علي ورأس الساقية حتى تربة الشيخ الجليل عبد القادر الجيلاني المعروف بالجيلاني ايضاً .

قاضي القضاة وحاجب الباب وفقهاء بغداد وخلعت علي خلعاً نفيسة ،
وخرج الدعاة بين يدي والخدم ، ووقف اهل بغداد من باب النوبي
الى باب المدرسة كما يكون في العيد واكثر . وكان على باب المدرسة
الوقف ، والزحام على الباب ، فلما جلست لالقاء الدرس عرض كتاب
الوقف على قاضي القضاة وهو حاضر مع الجماعة فقرأ عليهم وحكم
به وانفذه ، وذكرت بعد ذلك الدرس فالتفت يومئذ دروساً
كثيرة من الاصول والفروع وكان يوماً مشهوداً لم ير مثله .

وكان ابن الجوزي قد اشار الى هذه المدرسة في حوادث سنة
٥٤٢ هـ قال : « وعزل (نظام الدين المظفر بن علي بن محمد)
ابو نصر بن جبير في ربيع الاول عن الوزارة وسكن بالدار التي
بناها بشطىء دجلة بباب الازج وهي التي آل امرها الى ان
صارت ملكاً لجهة المستضيء بامر الله (بنفسه) فوقفها مدرسة
لاصحاب احمد بن حنبل ، وسلمتها اليّ ، فدرست فيها سنة سبعين
 وخمسة . » وأشار الى هذين الخبرين ابو المظفر يوسف المعروف
بسبط ابن الجوزي ، وقال زيادة على ما ذكره جده « وهي اليوم
(سنة ٦٥٤ هـ) تعرف بمدرسة ابن الجوزي ، وان بنفسه وقفت
على المدرسة قرية ، وان الذين اجتمعوا في الطرق يوم افتتاح
المدرسة ينيف عددهم على خمسين الف انسان . وأشار الى وقف القرية
على المدرسة تاج الدين بن الساعي وسيأتي النقل عنه .

وهذه المدرسة هي التي رأى الاديب الرحالة ابن جبير سنة
٥٨٠ هـ ابن الجوزي فيها ، وسمع دروسه ، وظن انها داره مع ان
كثيراً من مدرسي تلك العصور كانوا يسكنون في المدارس التي

يدرسون فيها . قال ابن جبير : « ثم شاهدنا صبيحة يوم السبت (١٣ صفر سنة ٥٨٠) ... مجلس الشيخ الفقيه الامام الاوحد جمال الدين ابي الفضائل (عبد الرحمن) بن علي الجوزي بازاء داره على الشط بالجانب الشرقي وفي آخره على اتصال من قصور الخليفة ومقره من باب البصلية^(١) آخر ابواب الجانب الشرقي وهو يجلس به كل يوم سبت ، فشاهدنا مجلس وجل ليس من عمرو ولا زيد وفي جوف الفراكل الصيد ، آية الزمان وقرّة عين الايمان رئيس الحنبلية ... ، ثم قال مكرراً وصف هذا المجلس العظيم « وحضرنا له مجلساً ثالثاً يوم السبت الثالث عشر لفر لفر بالموضع المذكور بازاء داره على الشط الشرقي ، فخذت معجزاته البانية مأخذها فشاهدنا من امره عجباً » .

وفي الجانب الشرقي اليوم قرب دجلة على مقربة من قصر النقيب ، تربة رجل كتب على بابها انه الشيخ ابو الفرج عبدالرحمن بن الجوزي المذكور ، وهذا اختلاق مسند الى جبر بن جبير في ظنه انه مدرسة الست بنفسه كانت داراً اصلية وملكاً لابن الجوزي ، والى انه دُفن في ذلك الموضع ، وهذا وهم تاريخي مبين ، لان مترجي ابن الجوزي اجمعوا على انه دفن بباب حرب في الجانب الغربي من بغداد .

وسميت هذه المدرسة ايضاً الشاطئية لكونها واقعة على شاطئ دجلة ، وهذا تسامح في التسمية لان عدة مدارس كانت على

(١) هو الباب الشرقي ، وكان يافياً الى عهد قريب فهدمته بلدية العاصمة وثرالت أثره من آثار المظف .

الشاطيء في ذلك العصر ؟ منها مدرسة ثقة الدولة الانباري ومدرسة
ابي النجيب السهروردي والمدرسة الموفقية ومدرسة عزالدين سعادة
بن عبدالله المستظري . وقد جاءت تسمية « الشاطئية » في سماع
نسخة من كتاب « الانساب لمنفعة في الخط المتأصلة في النقط
والضبط » لابي الفضل محمد بن طاهر المقدسي ، بخط ابن الجوزي
نفسه ، وهذا بعض نصه « كتبه عبدالرحمن بن علي بن محمد الجوزي ،
حامداً لله تعالى ومصلياً على رسوله محمد وآله ، وقع الفراغ منه
في ليلة الخميس ثالث عشر جمادى الآخرة من سنة ٥٧٥ بالمدرسة
الشاطئية من باب الازج والحمد لله » .

وفي هذه المدرسة امتحن ابن الجوزي - اعني اصابته محنة علي
حسب ما ذكر سبطه - وذلك في سنة ٥٩٠ ، لانه كان من
اعوان الوزير عبيد الله بن بونس الحنبلي ، وكان هذا الوزير عدواً
لابناء الشيخ الزاهد عبدالقادر الجيلي الحنبلي ، فلما قبض على الوزير
المذكور ساط ركن الدين عبدالسلام بن عبدالوهاب بن عبدالقادر
الجيلي على ابي الفرج بن الجوزي في السنة المذكورة ، وتولى هو
اعتقاله ، قال سبطه « وكان جدي يسكن بباب الازج بدار بنفش
وكان الزمان صيفاً وجدي جالس في السرداب يكتب وانا صبي
صغير فما احسنا الا بعبدالسلام واذا به قد هجم على جدي في
السرداب واسمعه غليظ الكلام ونخم على كتبه وداره وسبي عياله
وجرى عليهم ما لم يجر على اقل الناس ... »

وبعد هذه الحادثة اسند التدريس في مدرسة بنفش الى ركن
الدين عبدالسلام المذكور حفيد للشيخ العابد عبدالقادر الجيلي ،

فدرس فيها الفقه الحنبلي ، ودرس بعده في هذه المدرسة الشيخ
للعلامة عماد الدين ابوصالح نصر بن قايح الدين عبد الرزاق بن عبد
القادر الجيلي .

هذه خلاصة اخبار المدرسة البنفسية ، ويلتبس اسمها باسماء عدة مدارس
كانت ببغداد ، هي المدرسة التنشئية والمدرسة الثقتية والمدرسة المغيبية ، والظاهر
لنا ان اخبارها انقطعت دون كثير من مدارس بغداد في تلك العصور ،
فتخر مدرس - على حسب ما علمنا نحن من تاريخها - هو عماد الدين
ابو صالح نصر بن عبد الرزاق ، حفيد الشيخ الفقيه عبد القادر الجيلي
المذكور قبل هذا ، وقد توفي سنة ٦٣٣ هـ كما هو المذكور
في المراجع التي اشرنا اليها من قبل . واسوة الاحوال اثرأ في
مثل تلك المدرسة هو احتمال اجتراف دجلة لعمارتها لما اتها على الشط
والاستيلاء على وقفها ، فان زوال الوقف زوال المدرسة .

وامرت الست بنفشة امضاً في سنة ٥٧٠ بعد - ل جسر
لبغداد ، اذ لم يكن لها الا جسر واحد ، فمد هذا الجسر الجديد
من الدوايب بباب الغربية أي باب سوق المستنصر الحالي ، الى
رقة ابن دحروج بالجانب الغربي . ومن الذين كتبوا سيرة الخليفة
المستضيء بامر الله من اضاف نصب هذا الجسر اليه ، لأنه كان
سيدها وزوجها ، وهذا وهم وظلم فان الانفاق على صنع جسر
لا يسخر به الا النفوس الكريمة ولا يقوم به الا نفقات عظيمة ،
فيجب ان يكون الفضل لمنثته والذكر الحسن له وان ساعده
على ذلك فالفضل لمنثته .

وكان لهذه السيدة الاثر الحسن في جعل الخلافة للامام ابي العباس

احمد الناصر لدين الله ، وتنجية اخيه ابي منصور هاشم عنها . وذلك لان المستضيء بامر الله كان هو وجماعة من ارباب دولته يحشون الامير ابا العباس المذكور فاعتقله خوفاً منه . ولما احسن المستضيء بدنو الاجل اراد ان يعمد الى الامير ابي منصور هاشم ، فقالت له الست بنفسه : « الله الله ان تعدل عن ابي العباس » فكانت هذه هي الكلمة الراجعة الناجية ، فرعى الناصر لدين الله ذلك لها واحسن اليها اعظم الاحسان واتزها في الدار التي كانت بها والدته زمرد خاتون وسيأتي في الاخبار ان بنفسه كانت تسكن في درب الدواب .

وقد وهم الاديب الكبير العلامة صلاح الدين الصفدي في عده الست بنفسه ومجد الدين هبة الله بن صاحب من حزب ابي منصور هاشم ، فان الامر كان على ضد ذلك - بيناه - . وهم ايضاً في اعتداد ابنة الناصر لدين الله ابنة لابنه الامام الظاهر بامر الله ووزرائه وزراء له وفتوحه فتوحاً له .

اما الدار الضخمة العظيمة التي انزل الناصر لدين الله الست بنفسه فيها ، وكانت قبل ذلك لامة زمرد خاتون ، فهي دار سوق التمر ، وكانت من الغرب متصلة بباب الغربية ، اي باب سوق المستنصر الحالي ، ومن الشرق متصلة باليدرية وكانت عظمة مشرفة على مشرعة الابريين وهي مشرعة المصبغة الحالية ، وكان لها باب عال ودركاه اي وجه فخم ، وهي الدار التي جعلها الناصر لدين الله بعد ذلك مسكناً للامير جمال الدين قشتمر الناصري ، تشریفاً له واختصاصاً . وعلى ما ذكرنا يكون موضعها في موضع الخان

المجاور لدائرة البريد في شارع السموءل ، من بغداد في هذا الزمان .
وترجمة هذه السيدة الجليلة مستفيضة في عدة تراويخ ، فقد
ذكرها الاديب المؤرخ المحدث عز الدين بن الاثير ، قال : « وفيها
توفيت بنفثة جارية الخليفة المستضيء بأمر الله وكان كثير الميل
اليها والمحبة لها وكانت كثيرة المعروف والاحسان والصدقة » .
وقد بنت رباطاً « نكية » للنساء المتصوفات « الدرويشات » .

وقال السيوطي ، ناقلاً من تراويخ محب الدين محمد بن محمود
النجار المؤرخ ، « وينفث الرومية مولاة المستضيء بالله » ، كانت
صالحة كثيرة الخيرات والمبرات . قال ابن النجار : انها كانت
في عيد الفطر كل سنة تخرج زكاة الفطر صاعاً من تمر وتقول :
هذا ما فرضه علي الشرع وانا لا اقنع من مثلي « كذا » فتخرج
صاعاً من الذهب المين دنانير متفرقة على الفقراء » . وذكرها ابن
كثير في البداية والنهاية « ج ١٣ ص ٣٤ » بالثناء الحسن ، ولم
يكن احسانها مقصوداً على هذه الانواع المذكورة بل نعتها الى
بجامة العلماء وتطييب نفوس الفضلاء بمثل ما ذكره الامام ابن
الجوزي من اخبار خطبة ابنته رابعة وزفافها ، قال في حوادث
سنة ٥٧٢ هـ ما نصه « وزفت ابنتي رابعة ليلة الاربعاء ثلثي
عشر المحرم الى زوجها وكان زفافها في دار الجهة المعظمة في درب
الدواب وحضرت الجهة وذلك بعد ان جهزتها بمال كثير » وقال
السيوطي « وهذه رابعة هي والدتي زوجها ابن رشيد الطبري وهو اول
ازواجها ولم يطل عمره معها ثم زوجها جدي بوالدي بعد موت
ابن رشيد ، وقد سمعت الحديث ، وزفت الى ابن رشيد في

الحرم سنة ٥٧٢ في دار الجهة بنفسه جهة الخليفة وجهازها بمال عظيم ما قصد جدي بهذا الكلام إلا الاعلام بمكانته وعلو منزلته عند الخليفة ، وان احداً من ابناء جنسه لم يصل الى مرتبته غير مرة في مقاتلتنا .

قلت : ودررب الدواب المذكور غير مرة في مقاتلتنا كان في حريم دار الخلافة ، اي في موضع محلات النصارى للبوم . وذكرها تاج الدين بن الساعي قال : وكانت لها بر معروف وصدقه جارية وقفت مدوسة بباب الازج على دجلة على فقهاء الحنابلة ووقفت عليها قرية ، وذكر ما قدمنا ذكره ثم قال : « وخا بطريق مكة آثار جميلة » . وذكرها ابو المظفر سبط ابن الجوزي قال : « كانت كريمة صالحة كثيرة الصدقات والصلات عمرت الربط والمساجد والجسر ببغداد ، ونصفت باموال كثيرة على العلماء والفقراء والمساكين » . واعاد قوله ابو شامة في تاريخه ، وقال المؤرخ الكبير شمس الدين الذهبي : « كانت احب سراري المستضيء بامر الله اليه ... وكانت كثيرة الرغبة في افعال البر » . وكانت الى ما نقلنا من برها وتقواها ذات دعاية وروح خفيفة ، قال سبط بن الجوزي في ترجمة ابي الفتح صدقة بن الحسين المعروف بالناسخ وبابن الحداد الفقيه المؤرخ الحنبلي : « وكانت صدقة يحسد جدي وكانت بنفسه جارية الخليفة تعلم ذلك ، فكانت تغيظه : بعثت اليه يوماً خادماً ومعه طبق مغطي بمنديل ديبقي فوضعه بين يديه فظن ان فيه حلالة ، فكشفه فاذا بقدر من زجاج فيه ماء ، فقال للخادم : الجهة تقول لك هذا من بشر

وقعت فيه فأرة فانظر هل هو طاهر ام نجس ؟ فشم الجهة وقال :
الخلع والحلاوات والمال لابن الجوزي ، وصدقة يسأل عن الماء
النجس . فأبلغها الخادم « ذلك » فضحكت وبعثت له شيئاً .

توفيت الست بنفسه (رح) في التاسع والعشرين أو التاسع
عشر من شهر ربيع الاول سنة ٥٩٨ . ذكر ذلك ابن الساعي
والذهبي والسيوطي وابن النجار . قال سبط ابن الجوزي : « ولا
توفيت تولت امرها والدة الخليفة (الناصر لدين الله الجهة زمرد
خاتون) وجهازها احسن جهاز ودفنتها في تربتها المجاورة لمعروف
الكرخي وذلك في ربيع الاول ، وقال ابن الساعي : « وصلي
عليها بالجانب الغربي عند التربة المجاورة لقبر معروف الكرخي
- رح - ودقنت بها » .

والتربة التي ذكرها المؤرخان هذان هي المعروفة اليوم بقبة
الست زبيدة في الجانب الغربي عند قبر الشيخ التقي الزاهد معروف
الكرخي ، فهي تربة الجهة زمرد خاتون والدة الامام ابي العباس
احمد الناصر لدين الله الخليفة العباسي ، وقد دلت الاخبار على
انها امرت ببنائها قبل سنة ٥٩٨ التي دفنت فيها الست بنفسه
وبنت عندها مدرسة ورباطاً لها تاريخ وبحث مستقل .

« كناية المدرسة البنفسية »

قال ابو الفرج بن الجوزي في حوادث سنة ٥٧١ هـ : « وفي
رمضان كتب علي حائط المدرسة التي وقفها الجهة (بنفسه)
وسلمها اليّ ، بخط القطاع في الآجر :

وقفت هذه المدرسة الميمونة الجهة المعظمة الشريفة الرحيمة

بدار الرواشني في ايام سيدنا ومولانا الامام المستضيء بالله امير
المؤمنين على اصحاب الامام احمد بن حنبل وفوضت التدريس بها
الى ناصر السنة ابي الفتح ابن الجوزي .
هذا ما وقع اليينا من سيرة هذه السيدة النبيلة العظيمة الجليلة
وتاريخ آثارها وانها حرة ان تكون - كما قلنا - قدوة السيدات
الفاضلات .

السيدة زمرد خاتون

زوجة الخليفة المستضيء بأمر الله

السيدة زمرد خاتون ، كانت من سيدات دار الخلافة العباسية ببغداد ، وهي أم خليفة وزوجة خليفة من خلفائهم ، وتعرف اليوم بقبة قبرها ، بقبة الست زبيدة عند مدفن الشيخ الزاهد العابد معروف الكرخي ، في الجانب الغربي من بغداد ، وقد رمت القبة غير مرة كما هو ظاهر فيها . وآخر من رُميها الوالي كاظم باشا نسيب السلطان عبد الحميد العثماني الثاني .

ان هذه السيدة العظيمة الكريمة ، قد جهت اخبارها وآثارها ، كما أضل الناس اسمها ، فذسبوا قبرها الى غيرها من شيعرات بنات العباس . كانت هذه السيدة في اول امرها فتاة تركية بموكة ، جلبها الجلابون من بلاد الترك الشرقية فباعها النحاسون ببغداد ، وهيأت لها أسباب السعادة أن تكون مبيعة في دار الخلافة العباسية ، وجارية للامير أبي محمد الحسن بن يوسف العباسي ، انذي تولى الخلافة ولقب بالمستضيء بأمر الله سنة ٥٦٦ هـ ، وهي سنة وفاة أبيه المستنجد بالله . وكان له جارية اخرى اسمها بنفشة ولها شأن عظيم في التاريخ ، وقد اعقبتها الخليفة المستضيء بأمر الله ، فصارتا زوجتين له اسداهما ضرة الاخرى . ولقيت زمرد بالجبهة المعظمة ، فلم يحدث بينهما ما يحدث بين الضرات ، وذلك لسمو أنفسهما

وصحة ديانتها . وفي سنة ٥٥٢ هـ ولدت زمرد خاتون للمستضيء ابناً ،
فسماه بأحمد وكناه بأبي العباس . وهو الذي استخلف ولقب
بالناصر لدين الله . وكان الخليفة المستضيء بأمر الله تقياً زاهداً ،
ناسكاً عابداً ، نزعته منه أمور الخلافة وشؤون الدنيا فأقبل على
الآخرة ، وحذت حذوه زوجته زمرد خاتون وبنفسه ، واشتهرتا
بالصلاح والخير والنسك والعبادة . وكانت زمرد خاتون شافعية
المذهب وبنفسه حنبلية ، فبنت الأولى - أعني زمرد - مدرسة
للسافعية بجوار تربة الشيخ معروف الكرخي ، ورباطاً أي تكية
ومدفناً لنفسها ، وهو المدفن المعروف بقبر الست زبيدة - كما
ذكرناه في أول الحديث - ووقفت على الكل أوقافاً سنية دارة .
وفتحت هذه المدرسة للشافعية ، يوم الخميس التاسع والعشرين من
شوال سنة ٥٨٩ هـ ، وأمرت بأن يكون مدرساً فيها فخر الدين
أبو عبد الله محمد بن أبي علي بن أبي نصر النوقاني الشافعي المشهور
عند المشتغلين بتاريخ العراق . وأمرت أيضاً بأن تخلع عليه خلعة
جميلة وعمامة وطرحة ، والطرحة هي طيلسان المدرسين ، وأجرت
له جراية حسنة ومشاهرة كثيرة ، وسكن طلابه في المدرسة وسكن
هو في دار متصلة بها ، بنيت لأجله ، وكان ذلك في خلافة ابنها
الامام الناصر لدين الله علي ما هو واضح من التاريخ الذي ذكرناه
للافتتاح . وبنت أيضاً مسجداً في موضع الحظائر على دجلة ،
ويعرف اليوم بمسجد الخفافين جنوبي المدرسة المستنصرية . ومعلوم
انه بُني قبل هذه المدرسة ، ولم يبق اليوم من عمارته الأولى إلا
المنارة وهي أقدم المنارات ببغداد ، لأنها بنيت قبل انتهاء القرن

السادس للهجرة ، وعلى طرزها بنيت كل منائر بغداد ، من القرون الخالية بعد انشائها حتى اليوم . ووجدت بناء رباط كان قرب مشهد عبيد الله العلوي المعروف اليوم بابي رابعة شرقي الاعظمية . ولقد أجمع المؤرخون على اختلاف عصورهم على أنها كانت من أرغب النساء في فعل الخير ، واكثرهن له فعلاً . وكانت تبر العلماء وتفضل على الفقراء والمساكين ، وتنفق الإيتام وذوي الحاجات والفاقات ، وتتصدق بالصدقات الوافرة ، وتنفضل على أهل العلم والدين والصالح والمنقطعين . وكانت تمطف على الخبابة أيضاً فانها زوجت الشيخ عبد الغني ابن نقطة الحنبلي الزاهد المشهور ، بجارية من جوارها ونقلت معها جهازاً يساوي عشرة آلاف دينار . قال ابو المظفر يوسف المعروف بسبط بن الجوزي في تاريخه : كانت صاحبة كثيرة المعروف والصدقات دالة البر والصلات ، متفعدة لأرباب البيوت ، حجت وأنفقت ثلاثمائة ألف دينار - على ما بلغني - وكان معها نحو من ألفي جل ، وتصدقت على أهل الحرمين مكة والمدينة ، وأصلحت البرك والمصانع أي مخازن المياه ، وعمرت التربة عند قبر معروف الكرخي والمدرسة الى جانبها ، وأوقفت عليها الأوقاف . توفيت في جمادى الاولى من سنة ٥٩٩ ، وحزن ابنها الخليفة الناصر لدين الله عليها حزناً لم يحزنه ولد على والدته ، وفعل في حقها ما لم يفعله أحد ، وصلى هو عليها في صحن السلام ومشى بين يدي تابوتها إلى دجلة من ناحية قصر التاج ، ثم حملت في الشبابة نهراً ، والوزير نصير الدين ناصر بن مهدي العلوي قائم مشهود الوسط ، وأرباب الدولة قائلون في

السفن ، وصعدوا بتاجونها من دجلة الى القرية ، وأمر الخليفة الناصر أن يمشي الناس من دجلة الى تربتها المجاورة لمعروف الصكرخي والمسافة بعيدة ، وكان الوزير نصير الدين بن مهدي سميناً فكاد يهلك ، وقعد في الطريق نحواً من ثلاثين مرة ، وعمل العزاء لها شهراً كاملاً ، وأنشدت المراثي ، وختمت الختمات ، وتكلمت أنا في العزاء ، وكان قد وقع الثلج يوم وفاتها وزاد الماء في دجلة زيادة عظيمة ، وتكدر نهر عيسى والتوبة قريبة منه ... وفرق الخليفة بعد الشهر أميلاً كثيرة في الزوايا والربط والمدارس ، وخلع على الايمان ومن لم ينجع عليه أعطاء مائلاً ، وأمر بان يفرق جميع ما خلفته والدته زمرد خاتون من ذهب وفضة وحلي وجواهر وثياب ، في جواربها وماليكها ، فقسّم بينهم ، وحمل ما كان في خزائنها من الاشربة والمعاجين والعقاقير الى المارستان العضدي ، وكان بساري ألوف دنانير ، وحزن عليها أهل بغداد حزناً عظيماً لانها كانت محسنة الى الناس . (انتهى كلام سبط بن الجوزي) أما الشبارة التي حملت فيها جنازة زمرد خاتون فهي نوع من السفن منسطة الكبر كاليفت وأما محلة النثرية التي أصعدت الجنازة من مشرعتها فهي باب السيف وما حولها نحو الغرب ، وقد نقل قول سبط ابن الجوزي ، أبو شامة المؤرخ في تاريخه « ذيل الروضتين » ، والامام شمس الدين الذهبي في تاريخ الاسلام ، وزاد نقلاً عن ابن البزوري المؤرخ أن أرباب الدولة ظلوا يترددون الى مدفن زمرد خاتون شهراً كاملاً ، لا يسكن ثياباً بيضاً وهي ثياب العزاء . ولم يضرب طول الشهر في الدولة طبل ولا شهر

سيف ، ودام لبس ثياب العزاء سنة كاملة ، قال الامام الذهبي : وهذا أمر لم يعمل مثله لأحد ولا خليفة .. وقلت أنا : وهكذا بلغ الناصر لدين الله المثل الأعلى بين الخلفاء في كل الامور وهكذا فلتمكن محبة الولد لوالدته . وبما أثر من اخبار هذه الجبة المعظمة ، انها كانت تحب سماع وعظ الشيخ جمال الدين عبد الرحمن بن الجوزي ، شيخ الحنابلة في زمانه ، قال ابن جبير الرحالة الاديب في وصف مجلس وعظ الشيخ المذكور : « ثم شاهدنا مجلساً ثانياً له ... بباب بدر في ساحة قصور الخليفة ، ومناظره مشرفة عليه ، وهذا الموضع المذكور هو من حرم الخليفة ، وخصص ابن الجوزي بالوصول اليه والتكلم فيه ، ليسمع منه من تلك المناظر الخليفة ووالدته ومن حضر من الحرم ... » ، قال : « فصعد المنبر وأرخى طيلسانه عن رأسه تواضعاً لمحرمة المكان ... ثم صعد بخطبته الزهراء ... ثم اخذ في الشئ على الخليفة والدعاء له ولوالدته ، وكنى عنها بالستر الاشرف والجناب الأرف ، ثم سلك سبيله في الوعظ ... » وموضع باب بدر كان وراء جامع مرجان الحالي .

وكانت زمرد خاتون تقيم في دار عظيمة فخمة تعرف بدار سوق التمر ، وسوق التمر هو سوق السمور الحالي ، ومحل هذه الدار اليوم خان قريب من باب سوق المستنصر ، ثم تولت عن هذا القصر لضررتها السيدة بنفثة ، لانها اعانت الناصر لدين الله ابنها على تولي الخلافة ، وقد كادت تولى اخاه ابا منصور هاشماً ، وماتت السيدة بنفثة قبلها بعدة اشهر ، فتولت هي امرها وجهازها

الى آخرتها احسن جواز ، ودفنتها في تربتها تحت القبة التي ذكرنا
انها تعرف بقبة الست زبيدة ، ثم دفنت هي بعدها ، وهذا نوع
من الايثار عظيم عند الصالحين والصالحات . اما غيرهم وغيرهن
فيعجبون ويعجب كيف تبني السيدة قبرها في حياتها ؟ فان النفوس
لا تطوع بذلك .

وبعد اثنتي عشرة سنة من وفاة زمرد خاتون ، توفي حفيدها
ابو الحسن علي بن الخليفة الناصر لدين الله ، الملقب بالملك المعظم ولي عهد
الخليفة العباسية ونائب ابيه في الفتوة ، فدفن مع جدته زمرد
خاتون . قال الشيخ العلامة عز الدين بن الاثير في تاريخه : « ولما
توفي الملك المعظم ابو الحسن علي بن الناصر لدين الله ، اخرج
نهاراً ومشى جميع الناس بين يدي تابوته ، الى تربة جدته عند قبر
معروف الكرخي فدفن عندها ، ولما ادخل الدبوت أغلقت الابواب
وسمع الصراخ العظيم من داخل التربة ، فقبل ان ذلك صوت
الخليفة ، واما العامة ببغداد فانهم وجدوا عليه وجداً شديداً ،
ودامت المناحات عليه في اقطار بغداد ليلاً ونهاراً ولم يبق ببغداد
محلة الا وفيها النوح ولم تبق امرأة الا واظهرت الحزن ، وما
سمع ببغداد مثل ذلك في قديم الزمان وحديثه ، (هذا كلام
ابن الاثير) وهكذا فليكن حب الشعب للملوك العادلين والامراء
المتسطين .

وآخر من نعلها دفنت تحت هذه القبة ، عائشة خانم بنت مصطفى
باشا وكانت زوجة حسن باشا والي بغداد ، وذلك سنة ١١٣٩ هـ
أي سنة ١٧١٨ م ، ذكر ذلك الرحالة الاوروي نيبهر ونقل

ما كتب لعائشة خانم في باطن القبة ١ ، ونقله من رحلة نبيهير غيره وأشار اليه العلامة لسترنج في آخر كتابه المؤلف في خطط بغداد الموسوم بكتاب « بغداد في عهد الخلافة العباسية » ، ونفى كل النفي ان تكون القبة لقبر زبيدة زوجة هارون الرشيد ، ناقلاً من تاريخ عز الدين بن الاثير ان زبيدة مدفونة في مقابر قريش اي الكاظمية الحالية ، واطلق معه ، إلا انه لم يعرف ان هذه القبة قبة زمرد خاتون ، بل ذهبت به الظنون الى شيء آخر هو انما قبة عون ومعين التي ذكرها ابن جبير ، وقد فند الأستاذ الكبير ماسنيون قول لسترنج تفنبداً قوياً .

وقال الأستاذ العلامة السيد محمود شكوي الألوسي رحمه الله ، في كتابه « مساجد بغداد وآثارها » : « مسجد زبيدة أم جعفر ، هذا المسجد كان قرب مسجد الشيخ معروف الكرخي ، وقد اندرس سنة ١١٩٥ ، وكان واسعاً وجن البناء قوي الاركان ، ولما بنى سليمان باشا الكبير والي بغداد سور الجانب الشرقي ، استعملت انقاض المسجد في بناء السور ، ولم يبق اليوم سوى قبر زبيدة من ذلك المسجد ، وعليه قبة مخروطية الشكل من نوادر الفن العماري ، وهي نحو ميل الشيخ عمر السهروردي ، وكان تاريخ العمارة داخل المشهد بالحجر الكاشاني ، وقد اقتلعه من اقتلعه » .

(١) « هذا قبر المرحومة المفضولة الصالحة العفيفة الساعية الى الافعال الموصية والاعمال التي تستجلب الرضا الالهية عائشة خانم بنت المرحوم مصطفى باشا صاحب السلطان محمد خان عليه الرحمة والافران وزوجة الدستور المكرم والوزير الافخم والي بغداد دار السلام اني اخبرك حسن باشا ، يسر الله له الخير كما يحب ويرضى ويشاء توفيت في شهر رمضان سنة وعشرين ليلة القدر في سنة واحد وثلاثين ومائة والالف » .

ثم ذكر الكتابة التي يظن انها كانت في باطن القبة ، ونفى ايضاً
مثل لستونج ان تكون القبة لزبيدة زوجة الرشيد ، قال : « ولعل
التربة التي في قبر معروف لزبيدة اخرى ، اما زوجة هارون
الرشيد فقبرها في جوار قبر موسى بن جعفر كما يدل عليه ما
ذكره ابن الاثير » هذا بعض كلام السيد محمود شكري .

واوجه ما يقال في سبب هذا الاستبدال ، أن اسم زمرد
حطم حروفه الزمان ، فبقي منه الزاي والدا ل ، فظن الناس
ان هذين الحرفين هما من اسم « زبيدة » لا من اسم « زمرد » ،
فزمرد مبهولة التدريج عند الناس ، ولا يعرف تاريخها الا المختصون
بتاريخ العراق وخططه اخصاصاً قاناً .

السيدة سلجوقه خاتون

يظهر اسم « سلجوقه خاتون » غريباً اول وهلة ، وكان واجباً ان يكون مألوفاً مأنوساً ، إلا ان تاريخ العراق بمن فيه من عظماء وعظيمات ، لا يزال مستبهماً مستعجباً ، وهذه السيدة النبيلة بنت ملك واخت ملوك ، وزوجة امير ثم زوجة خليفة عظيم ، وتوفيت ببغداد ودفنت فيها ، على ما نحن ذاكرون في سياق سيرتها ، وطريف اخبارها ، وجليل آثارها .

وُلدت هذه السيدة العظيمة سنة ٥٥٤ هـ تقريباً في قونية من البلاد المعروفة يومئذ ببلاد الروم واليوم بالاناضول وتوكية ، في قصر ابيها الملك قليج ارسلان الصغير بن مسعود بن قليج ارسلان الكبير السلجوقي ملك قونية وما جاورها ، ونشئت هناك تنشئة ملوكية اسلامية ، وكانت بارعة الجمال فائقة الحصال ، شريفة النفس ، كريمة الاخلاق ، وكان لها من الاخوة سبعة ، او اكثر منهم ، لا نرى داعياً الى ذكر اسمائهم ولا الى ذكر مالهم ، وقد خطبها الى ابيها احد ملوك الجزيرة وهو نور الدين بن محمد بن قرا ارسلان بن دود بن مسكان بن ارتق ملك حصن كيفا التي عرفت في الاخير بحسن كيف ، ثم آمد المعروفة اليوم بدياربكر ، وكان هذا الملك من خلفاء السلطان صلاح الدين يوسف الايوبي ، فتزوجها نور الدين وأعطاه ابوها عدة حصون كانت تجاور مملكته

لتوسيع امارته ، ومكثت سلجوقه خاتون برهة في عاصمة زوجها
 حصن كيفا ، ثم أساء عشرتها ومعاملتها وأحب مغنية وشغفته حباً
 فتزوجها ومال اليها كل الميل ، فحكمت في بلاده وخزائنه وأمواله ،
 واعرض عن سلجوقه خاتون وتركها نسياً منسياً . فبلغ ذلك
 اباها قليج ارسلان ، فعزم على السير بجيش كثيف الى نور الدين
 محمد بن قرا ارسلان واخذ بلاده منه جزاء له بما صنع بابنته من
 سوء العشرة والاضرار عليها ، وهجرها هجراً متصلاً ، فكتب
 نور الدين الى السلطان صلاح الدين يستغيثه وينجي به ، وبطلب
 اليه منع السلطان قليج ارسلان من احتلال بلاده والاستيلاء
 عليها ، فأرسل صلاح الدين رسولاً الى قليج ارسلان ، يحذره عاقبة
 ما عزم عليه ويتهده بان يسير الى لقائه اذا تحرك هو نحو بلاد
 نور الدين ، فبعث اليه قليج ارسلان برسالة يقول فيها « انني كنت
 قد سمعت الى نور الدين عدة حصون تجاوز بلاده لما تزوج ابنتي
 سلجوقه خاتون ، فحيث آل الامر الى ما يعلمه صلاح الدين نفسه
 فأنا أريد ان يعيد إلي نور الدين ما اخذه مني . وترددت
 الرسل بينهما فلم تستقر الحال بالمراسلة ، فهاذن صلاح الدين الفرنج
 المعروفين بالصليبية وسار في عساكره سنة ٥٧٦ نحو بلاد الروم
 حتى وصل الى كعبان بين حلب وشمشاط قرب الفرات ، فأقام فيها
 نور الدين بن قرا ارسلان واقام عنده ، فلما سمع قليج ارسلان
 بقرب صلاح الدين منه ارسل اليه اكبر امرائه وقال له : « قل
 لصلاح الدين ان هذا الرجل فعل مع ابنتي كذا وكذا ولا بد
 من ان اقصد بلاده واعرفه بحل نفسه . فلما وصل الرسول

واجتمع بصلاح الدين وأدّى إليه رسالة ملكه امتنع صلاح
 الدين وقال له قل لصاحبك : « والله الذي لا إله إلا هو ، لئن لم
 يرجع لأسيرين» الى ملطية وبيني وبينها يومان ولا اتزل عن فرسي
 الا في البلد ، ثم اقصد جميع بلادهم وأخذها منه . فرأى الرسول
 امراً شديداً ، فقام من عنده ، وكان قد رأى عسكر صلاح الدين
 وما هو عليه من القوة والتجمل وكثرة السلاح والدواب وغير
 ذلك ، بما ليس عند قليج ارسلان ما يقاربه ، فعلم ان صلاح الدين
 ان قصدهم اخذ بلادهم ، ولكن هذا الرسول لم يئأس من النجاح
 بل ارسل الى صلاح الدين من الغد يطلب ان يجتمع به ثنية ،
 فأمر باحضاره فقال لصلاح الدين اريد ان اقول شيئاً من عندي
 ليس رسالة عن صاحبي واحب ان تنصني ، فقال له قل ، قال :
 يا مولانا أما هو فيصح بمثلك وانت من اعظم السلاطين واكبرهم
 شأناً ، ان تسمع الناس عنك انك صالحت الفرنج وتركيت الغزو
 ومصالح المملكة ، واعرضت عن كل ما فيه صلاح لك ولرعيك
 وللمسلمين عامة ، وجمعت العساكر من اطراف البلاد البعيدة
 والقريبة ، وخسرت انت وعساكرك الاموال العظيمة لأجل مغنية
 رقباء ، فما يكون عندك عند الله ثم عند الخليفة وملك الاسلام
 وكافة العالم ؟ واحسب ان أحداً لا يواجهك بمثل قولي ، ولكن ألا
 يعلم الناس ذلك ؟ ثم احسب ان قليج ارسلان مات وهذه ابنته
 ساجوقة خاتون قد ارسلتني اليك تستجيرك وتسألك ان تنصها
 من زوجها ، فان فعلت فهو الظن بك ان لا تردّها . فقال صلاح
 الدين له : والله الحق بيدك وان الامر لكما تقول ، ولكن هذا

الرجل دخل عليّ واستجار بي ، ويقبح بي توكه ، لككنك انت
اجتمع به ، واصلح الحال بينكم على ما تحبون وانا اعينكم عليه
واقبح فعله . ورعده صلاح الدين من نفسه بكل جميل . فاجتمع
الرسول بصاحب الحصن نور الدين وتردد القول بينهم ، فاستقرت
الحال على ان يخرج نور الدين المغنية من عصمته بعد سنة ، فان
لم يفعل ينزل صلاح الدين عن نصرته ويكون هو وابوها قليج
ارسلان عليه ، واصطالحوا على ذلك ، وعاد صلاح الدين الى بلاد الشام
ورجع نور الدين الى حصن كيفا فلما انقضت المدة اخرج نور الدين
المغنية من بلده فتوجهت الى بغداد واقامت بها الى آخر حياتها .

وفي سنة ٥٧٩ هـ حجت سلجوقه خاتون الى بيت الله الحرام في
موكب عظيم فخم وتجميل كثير وابية ماضية ، وكانت
في طريقها الى مكة قد مرت ببغداد وسافرت صحبة امير الحاج
العراقي ابي المنكرم طاشتكين بن عبدالله المستنجد من كبار امراء
الدولة العباسية ، وكان حجبها في خلافة امير المؤمنين ابي العباس
أحمد الناصر لدين الله العباسي ، وقد رآها الأديب الكبير الرحالة
الشهير ابن جبير الكنايني وذكر أن عمرها يومذاك نحو من خمس
وعشرين سنة ، وان لها كثيراً من افعال البر في طريق الحاج . منها
سقي الماء للسبيل ، على ثلاثين ناضجة من الابل ، وتفرقة الطعام على
ثلاثين ايضاً ، ومعها لا تختص به من كسوة وأزودة وغيرها نحو
مائة بعير . وذكر ان معها في الركب خاتونين أخريين ولكلها
كانت عظامهن ، ووصفها مرة قال : فجاءتنا خاتون المسعودية
المتوفة شبابا وملكاً ، وهي قد استقلت في هودج موضوع على

خشبتي معترضتين بين مطبتين ، الواحدة أمام الأخرى وعليها
الجلال المذهبة وهما تسيران بها سير النسيم ، مرة وليناً ، وقد
فتح لها امام المروج وخلفه بابان وهي ظاهرة في وسطه منتقبة ،
وعصابة ذهب على رأسها ، وأمامها رعين من فتيانها وجندها ،
وعن يمينها جنائب المطايا والمهاليج العتاق ، ووراءها ركب من
جوارها قد ركب المطايا والمهاليج على السروج المذهبة ، وعصن
رؤوسهن بالعصائب الذهبيات والنسيم يتلاعب بعذباتهن ، وهن يسرن
خلف سيدتهن سير السحاب ، ولها الرايات ، والطبول ، والبوقات
تضرب عند ركوبها وعند نزولها . وابصرنا من نخوة الملك النسائي
واحتفاله وقبة تمز الأرض هزاً ، وتسحب أذيال الدنيا عزا ، ويحق
ان يكون لها هذا الفخر ويخدمها العز فان مسافة مملكة أبيها نحو
الأربعة أشهر وصاحب القسطنطينية يؤدي إليه الجزية وهو من
العدل في رعيته على سيرة عجيبة من موالاة الجهاد على سنة مرضية ...

ووصف زيارتها الروضة النبوية المنورة بالمدينة قال : ومن
عجيب ما شاهدناه من الامور البديعة الداخلة لمدخل السمعة
والشهرة ، ان احدى الخوانين المذكورات وهي بنت الأمير مسعود
المتقدم ذكرها وذكر أبيها وصلت عشي يوم الخميس السادس للمحرم
ورابع يوم وصولنا المدينة ، الى مسجد رسول الله - ص - واكبة
في قبتها وحولها قباب كرائها وخدمها والقراء أمامها والفتيات
والصقالب بأيديهم مقامع الحديد يطوفون حولها ، ويدفعون الناس
إمامها ، الى ان وصلت الى باب المسجد المكرم فنزلت تحت ملحفه
مبسوطة عليها ، ومشت الى ان سلمت على النبي - ص - والحول

امامها والخدام يرفعون أصواتهم بالدعاء لها إشادة بذكرها ، ثم
 وصلت إلى الروضة الصغيرة التي بين القبر الكريم والمنبر ، فصلت
 فيها تحت الملاحفة والناس يتزاحون عليها ، والمقامع ندفعهم عنها
 ثم صلت في الخوض بازاء المنبر ثم مشت إلى الصفة الغربية من
 الروضة المكرمة فقعدت في الموضع الذي يقال انه كان مهبط
 جبريل - ع - وأدخي الستر عليها وقام فتبناها وصقالها وحجابها
 على رأسها خلف الستر تأمرهم بأمرها . واستجلبت معها إلى
 المسجد حين من المتاع للصدقة فما زالت في موضعها إلى الليل ، إلى
 أن قال : « أزيل الستر عنها وبقيت بين خدما وكرائمها متلعة في
 رداها ، فعاينا من أمرها في الشهرة الملوكة عجباً ، وذكر صفة
 دخولها الموصل قال : ودخلت خانون المسعودية تقود عسكر جوارها
 وامامها عسكر وجالها يطوفون بها ، وقد حلت قبها كلها سبائك
 ذهب مصوغة أهلة ودنانير ، سعة الأكف ، وسلاسل وغنايل بديعة
 الصفات ، فلا تكاد تبين من اللقبة موضعها ، ومطياتها تزحفان بها
 زحفا وضعب ذلك الحلي يسد المسمع ، ومطاياها مجللة الاعناق
 بالذهب ومراكب جوارها كذلك ، وبمجموع ذلك الذهب لا يحصى
 تقديره ، وكان مشهداً بهت الابصار وأحدث الاعتبار . وقد
 وصفها غير مرة بالعبادة والخير وإيثار أفعال البر من صدقات
 ونفقات في السبيل والمحبة للصالحين وزيارتهم متكررة لأجل الثواب .
 وقد ذاعت اخبار جمالها في العراق وغيرها من الاقطار ، وبلغت
 الامام الناصر لدين الله الخليفة العباسي ، ثم توفي عنها زوجها نور
 الدين محمد بن فرا اوسلان سنة ٥٨١ فارسل الخليفة الناصر لدين

الله بخطبها الى ابيها فكان ذلك تشريفاً له ولايته سلجوقه خاتون
 وأجابه الى توبيخها به شاكراً ، فارسل الناصر لدين الله لاحتضارها
 الشيخ أبو يعقوب يوسف بن أحمد الشيرازي ثم البغدادي المحدث
 الصوفي شيخ رباط أرجوان ، فجاء بها الى بغداد سنة ٥٨٢ ،
 ودخلت في عصمة الخليفة ، وشغف بها واغرم بحبها ، وحلت من
 قلبه المحل الاسمي ، وامرت أن يبنى لها رباط اي تكية ، وتربة
 اي مدفن وذلك يدل على صلاحها وعبادتها وتقواها ، فشرع في
 بنائها في الجانب الغربي من بغداد على دجلة في محلة باب البصرة ،
 ووالى الاشراف على ذلك الشيخ الفقيه الواعظ عيد الوهاب بن
 الشيخ عبد القادر الجيلي المعروف بالجبلاني الحنبلي ، ولكنها توفيت
 - رحمة الله عليها - قبل فراغ العمارة ، فدخل على الخليفة
 الناصر من الحزن عليها ما لا يوصف ، ووجد بها وجداً عظيماً ظهر
 للناس كلهم . وبنى ابواب قصرها حتى لا يرى ما يذكره اياها .
 وكان لا يتمالك عن البكاء اذا ذكرها احد ، واطهرت الدولة
 العباسية كلها حدادها عليها ، ولبس ارباب الدولة من الوزير وغيره
 الثياب البيض . وكان البياض علامة حزن العباسيين اذذاك ، وعمل
 لها عزاء عظيم ، ودفنت في تربتها في الجانب الغربي من بغداد .
 وكانت هي والرباط اعني التكية في الموضع المعروف بالحضر
 الياس في ايامنا . ثم جرفت دجلة هذين البنائين العظيمين ، وكان
 فتح الرباط والتربة سنة ٥٨٦ وحضره خلق عظيم ، وكان يومه عظيماً
 مشهوداً ، وجعل الناصر في تربتها خزانة كتب عظيمة حوت
 كثيراً من الكتب الجليلة المكتوبة بالخطوط المنسوبة . ومن رأى

هذه الخزانة واقتبس منها كمال الدين عمر بن العديم القاضي الاديب المشهور مؤلف دفع التجري عن ابي العلاء المعري ، فقد زارها سنة ٦٥٠ وتقل منها قصة الاعسر بن مهادش الكلاني وعشقه للصقيل بنت طراد الاسدية ، وراها معه ابو الحسن علي بن سعيد الأديب الجغرافي المؤرخ صاحب الممجب في اخبار المغرب وغيره من الكتب ، وصورة هذه العمارة واضحة في مصورة بغداد التي صورها الاستاذ مطرافي في عهد السلطان سليمان القانوني العثماني ، بعد فتحه بغداد سنة ٩٤٠ وآخر من رآها ووصفها نبيهر الرحالة الكبير المشهور ، فانه لما دخل بغداد في اواسط القرن الثاني عشر للهجرة اي اواسط القرن الثامن عشر ، رأى العمارة المذكورة ورأى في التكية جماعة من الصوفية البكتاشية ، ونقل ما بقي من الكتابة على جدرانها وفيها اسم قليج ارسلان السلجوقي ، إذن كان اسم سلجوقه خاتون قد عفا او تهدم لان الاصل « سلجوقه خاتون بنت قليج ارسلان » . ولقد حار جماعة من المستشرقين في سبب وجود اسم السلطان المذكور هناك مع انه حكم في قونية وبلاد الروم ، وذهبت بهم الظنون مذاهب شتى في كيفية بنائه لمثل تلك التكية . واذا كانوا كغيرهم لا يعرفون تاريخ صاحبة القبر والتكية بقوا في مناره ظنونهم ، اما اليوم فم يبق من تلك العمارة اي اثر كان ، فقد جرفتها دجلة - كما ذكرنا آنفاً .

ولسبط بن التعاويذي الشاعر المشهور قصيدة في رثاء سلجوقه خاتون مثبتة في ديوانه يقول فيها :

فيا قبر ما بين الصراة ودجلة الى نهر عيسى جادك الغيث من قبر

السيدة هاجر

زوجة المستنصر بالله وأُم المستعصم بالله

هذه سيرة مختصرة لسيدة جليلة ، من سيدات دار الخلافة العباسية ببغداد .

هذه السيدة الكريمة النقية ، هي هاجر زوجة المستنصر بالله ، وأُم المستعصم بالله . وكانت في أول أمرها جارية من الجواري ، فأولدها المستنصر بالله ولدين ذكرين هما الأمير أبو القاسم عبد العزيز ، والأمير أبو أحمد عبدالله الذي صار بعد وفاة أبيه المستنصر خليفة وأميراً للمؤمنين . أنها الى كونها زوجة خليفة وأُم خليفة ، كانت على قاعدة جميلة ، راعية في فعل الخيرات والمواصلة للفقراء بالبر والاحسان . ولقد أمرت ببناء رباط للصوفية بشارع ابن رزق الله بالجانب الغربي من بغداد ، وكان الرباط في شرقي قبر الشيخ الجليل معروف الكرخي . وأمرت أيضاً ببناء تربة لنفسها بجانب الرباط ، ثم توفيت سنة ٦٤٦ هـ قبل إتمامه ، فدفنت في تربتها تحت القبة ، وكان لها سبيل في طريق الحج ، ينفق فيه على فقراء الحجاج والمنقطعين في طريقه ويسقي العطاشى . وفي سنة ٦٥٠ هـ فتح هذا الرباط ، وحضر فتحه ابنها الخليفة المستعصم بالله ، ووزيره مؤيد الدين محمد بن العلقمي وأرباب الدولة كافة . وكان الخليفة المستعصم بالله قاعداً على سطح الرباط ، وعملت فيه دعوة عظيمة

وخلع على كل من تولى عمارة ، منهم الشيخ العلامة الأديب
 المؤرخ ظهير الدين علي بن محمد الكاظمي الأصل ثم البغدادي .
 وقد ذكر حكاية طريفة في بناء هذا الرباط ، قال في أحد تواريخه :
 كنت أتولى عمارة الرباط المستجد ، فجاءني شقاق يشق الصخر ،
 وقال لي : قد رأيت عجباً وينبغي أن تشاهده ، ففقت معه ،
 فأراني صخرة قد انفلقت عن موضع قد نعداه المنشار ، وفيه
 أوراق خضر ودودة تضطرب ، فأخذت الدودة والورق وجعلته
 في قرطاس وختمت عليه ، وحملته الى الشيخ صدر الدين علي بن
 النيار ، فحمله الى الخليفة المستعصم بالله ، فعجب من قدرة الله
 - عز وجل - ثم إن المستعصم بالله حضر وشاهد الصخرة ،
 ولم يكن عليها سبيل من ظاهرها ، وكان هذه المؤرخ من الثقات .

وكانت السيدة هاجر قد حجت في ابتداء خلافة ابنهما
 وذلك سنة ٦٤١ هـ وكان أمير الحاج أبو المياهم مجاهد الدين
 أيوب المستنصري أحد ممالك الدولة العباسية . وقبل أن
 يذهب الى مكة المكرمة نكح السنة خلع عليه في دار
 الخلافة العباسية ، وعبر الى الجانب الغربي من بغداد مع
 جنوده الذين هم برسم حمية الحجاج ، وكان فيهم أمير يعرف
 بحسن الدين قيران ، فنزل في تربة زمرد خانون المعروفة اليوم
 بالنسبة زبيدة ، وخرجت هاجر أم المستعصم بالله من دار الخلافة ،
 وانحدرت في دجلة في شبرة ابنها الخليفة المستعصم بالله ، والشبرة
 سفينة كالبحر ، ثم خرجت من دجلة عند قرية درزيجان ، وكانت
 على دجلة في الجانب الغربي ، قريبة من بغداد ، وخرج ابنها

المستعصم بالله على البر لبودعها وضرب له هناك مرادق ، فلما دخل
 السرادق نثر عليه شرف الدين اقبال الشرايى قائد جيوش الدولة
 العباسية ذهباً كثيراً ، ولم يكن المستعصم قبل ذلك قد سافر
 سفراً نزل فيه مخيماً ، ولما وصل الى الحلة مع والدته دخل داراً لهم
 على شاطئ الفرات ، فنثر عليه شرف الدين الشرايى ايضاً ذهباً
 كثيراً ، ثم توجه المستعصم الى الكوفة ودخل جامعها ، ثم قصد
 مشهد الامام علي - سلام الله عليه - فزاره ، وكان المزور له
 الشريف محمد بن كتيبة العلوي ، فلما توجه الحاج الى بيت الله
 الحرام ودع المستعصم بالله والدته هاجر وعاد الى بغداد .

ووصلت السيدة الى بيت الله الحرام وحجته ، ونصفت فيه
 بال كثير ثم عادت متوجهة الى بغداد في السنة القابلة - اعني
 سنة ٦٤٢ - ، وامر شرف الدين اقبال الشرايى وكيه عز الدين
 الحسين بن عبدوس ، بالمسير الى واقصة ، من طريق الحج ، بين العراق
 والحجاز ، ليلقى فيها والده الخليفة وهي عائدة من مكة ، وانفذ
 معه تسعين جملاً عليها تشريفات وحلواء وحوائج وغير ذلك ، ثم
 امر صدر الخزن - وكان صدر الخزن كوزير المال في الرتبة -
 ومشرفه عميد الدين منصور بن عباس الدجيلي بالتوجه ايضاً الى
 تلك المنزلة . وأمر بان يستصحبها معها ما اعداه من الاقامات ،
 والاقامات هي حوائج العيش للمافرين القادمين ، وذكر ان
 فخر الدين المبارك بن المحرمي ، صاحب الديوان - وكان صاحب
 الديوان كوزير الداخلية - ، حمل الى السيدة هاجر من البصرة
 حولاً على ستة عشر جملاً ، فيها حاوي واقراص ماء الليمون وماء

الليمون والخصرم وخل العنب من مصعد اي مقطر وغير مصعد ،
وماء الورد والخلاف وهو نوع من الصفصاف ، وقشور الطلع
وشربات وليمون اخضر وتوُّج وتفتح وكثيرى ، وخوخ ونارنج
ورمان وعنب وباذنجان ، ومع ذلك حصر بصرية وسجادة رفيعة ،
فوصلت الاوساق الى الشعبية فتسلمت .

وعزم المستعصم بالله على التوجه الى الكوفة لبقاء والدته ، فعرض
له مرض منعه من ذلك ، وحضر الامر الى ارباب الدولة العباسية كافة ،
بالحروج الى قرية فراشا من قرى نهر الملك ، وكانت بين الحلة وبغداد
والى بغداد اقرب ، لاستقبال والدته الخليفة ، فخرجوا ما عدا الوزير
نصير الدين احمد بن النافذ لعجزه عن الخروج بسبب مرضه ، فساروا الى
زريان ، وهي قرية كانت يازاء المدائن اي سلمان باك مسن الجانب
الغربي ، فوجدوا سرادقات السيدة هاجر وامير الحاج بها ، فكان كل من
ارباب الدولة ينزل على بعد من سرادق السيدة ويستأذن في ان
يحضر ، فيؤذن له فاذا حضر قبل الارض بباب السرادق ، فيخرج
امين الدين كافور الظاهري فيقول له : وقد عرفت خدمتك ، او
ما هذا معناه ، ويأذن له في العود . ثم نزلت السيدة بالليل في
شبابرة الخليفة واصعدت الى بغداد ، وذلك بعد ان خلعت على
امير الحاج ابي الميامين بيك الدويدار ، وأمرت له بخمسة عشر
الف دينار ، وخلعت على القائد حسن الدين فيران وأمرت له
بألف دينار .

ولما نزل الحاج بظاهر تربة زمرد خاتون - كما فعلوا في ذهابهم -
تفقد شرف الدين عبدالله بن ناج الدين بن النيسابور ، وهو وكيل

والدة الخليفة ، والعدل ضياء الدين عبد الوهاب بن سكيته وهو
الجازن ، وابن بكران وهو نائب الوكيل ، وضربت لهم خيمة
خلف تربة زمرد خاتون ، وخلصوا على كل من كانت في خدمة
السيدة في حجها من النواب والاتباع والفراسين ، والمحفدانية اي
النفخروانية والجمالين والسفائين والحدادة الذين كانوا يحدون الجمل ،
والساقة الذين كانوا يسوقونها والنفاطين والحراس .

ومن اخبار تربة السيدة هاجر ابن قائد الجيوش العباسية
شرف الدين اقبالاً الشراي ، دُفن بباب قبعتها على يمين الداخل ،
وذلك في سنة ٦٥٣ ، وكان من العارفين لغنون الحرب وارباب
الدهاء في القتال وقيادة الجيوش ، الا انه قصر في اختيار المستعصم
بالله وجعله خليفة ، وتنجيته اخيه الامير ابي القاسم عبد العزيز بن
المستنصر بالله ، وكان سوء اختياره هذا من اسباب سقوط الدولة
العباسية ، لأن حسن الاختيار في الدول الوراثية الحكم والسلطان
شرط في استقامة الدولة وسلامتها ، وبقائها وثباتها ، فان لم يكن
وجه الاختيار لكون الوارث الاقرب واحداً ، كان الحكم من
القضاء المحتوم والقدر المحتوم ، كما جرى في خلافة الظاهر بامر الله
بعد الناصر لدين الله ، فأدّى ذلك الى ضعف الدولة العباسية ،
والمحلاها ثم زوالها .

السيدة باب بشير

زوجة المستعصم بالله

هي السيدة باب بشير ، زوجة الخليفة الشهيد ، ابي عبد الله الملقب بالمستعصم بالله بن الخليفة المستنصر بالله ، وهي التي بنت المدرسة البشيرية بالجانب الغربي من بغداد ، ونحن ذاكرون تاريخها في سياق كلمتنا هذه ، والموضع الذي بنيت فيه .

من المعلوم المشهور أن الخليفة المستعصم بالله كان آخر الخلفاء العباسيين ببغداد ، وأن المغول المعروفين بالتارقتلوه ، وقرضوا الخلافة العباسية سنة ٦٥٦ هـ ١٢٥٨ م .

وكان المستعصم بالله قبل ان يدرك الخلافة جاريثان ، ولدت له احداهما ثلاثة بنين وابنة واحدة ، وولدت له الأخرى اربع بنات ، ولما افضت الخلافة اليه لم يتغير عليها ولا أغارهما بل راعاهما حفظاً لعهدهما ، ثم طلبت اليه ام البنين ان يعتقها من العبودية والرق ويتزوجها ، ففعل ذلك متبعاً آثار من تقدمه من خلفاء بني العباس .

ولما ماتت ام البنين اتخذ المستعصم حظية أخرى ، يظهر لنا انها باب بشير التي قصرنا حديثنا الليلة عليها ، فولدت له ولداً ذكراً سماه عمداً وكناه بأبي نصر ، ثم طلبت منه ان يعتقها ويتزوجها ، فأجابها الى ذلك .

ان التسمية بباب بشير تبدو لنا غريبة اول وهلة ، فاذا استقرينا اسماء النساء وكناهن في تلك الايام ، بانث التسمية مألوقة مأنوسة . فقد كانوا يكتنون عن السيدة العظيمة المتزوجة بالجبهة ، واشتهرت بنت للخليفة المستنجد بالله بحجرة عفيف ، وأمثال ذلك كثير في تاريخهم .

ولقد تركت هذه السيدة الكريمة العظيمة - اعني باب بشير - آثاراً جميلة ، ومآثر حسنة ، مقتدية بمن سبقها من امهات الخلفاء وزوجاتهم وحظاياهم وحسن الاقتداء دليل على جمال الابتداء ، ومن تلك الآثار : دار للقرآن الكريم ، ومدرسة للمذاهب الاربعة على قاعدة المدرسة المستنصرية ، فان المدارس كانت قبل المستنصرية طائفة - اعني ان كل مدرسة تخص بمذهب من المذاهب ، فبنى المستنصر سنة ٦٣١ المدرسة التي اضيفت الى اسمه ، وجعلها للمذاهب الاربعة : الشافعية والحنفية والمالكية والحنبلية ، فكان ذلك مشروعاً محموداً في التدريس ، وطريقة حسنة في تأسيس المدارس وذريعة من ذرائع النسخي والتألف والتصافي والتعارف . ومن اسرع في تقليد المستنصر بالله في ذلك العمل الصالح ، الملك الصالح نجم الدين ايوب بن الملك العادل الايوبي ملك مصر ، فقد بنى سنة ٦٣٩ وما بعدها مدرسة كبيرة في القاهرة بين القصرين ، ووقفها على المذاهب الاربعة فدرست فيها .

وفي سنة ٦٤٩ أمرت السيدة باب بشير بان تبنى لها مدرسة على هذه الطريقة المحمودة ، فاخط لها موضع تجاه محلة 'قطفتا' ، بالجانب الغربي من بغداد ، وهي المحلة التي كانت تحاذي قبر الشيخ الزاهد

معروف الكرخي من الشرق ، فالمدرسة كانت في شرقي القبر المذكور ولا أثر لها اليوم . وامتدت أيضاً أن تبنى لها دار للقرآن الكريم ، ففتحت هذه الدار في سلخ شعبان من سنة ٦٥٢ ، وكانت على شاطئ دجلة ، بجانب الغربي من بغداد ولم نتحقق موضعها ، واستديم بناء المدرسة ، فتوفيت هذه السيدة قبل تكامله ، وذلك في فاسح شوال من سنة ٦٥٢ ، فدفنت تحت قبة أعدتها لنفسها بجانب المدرسة ، وتوفي بعدها ابنها أبو نصر محمد بن المستعصم بالله ودفن عند قبرها تحت قبتها .

وفي سنة ٦٥٣ بعد وفاتها فتحت مدرستها المعروفة بالبشرية ، وكانت قد وقفت عليها وقوفاً كثيرة ، وكان افتتاحها في يوم الخميس الثالث والعشرين من جمادى الآخرة من السنة ، وحضر المدرسة الخليفة المستعصم بالله وأبنائه ، وجلسوا في وسطها ، وحضر الوزير مؤيد الدين محمد بن العلقمي وأرباب المناصب ومشايخ الربط والمدرسون ، وكان المدرسين فيها سراج الدين النهرواني (نسبة إلى نهر القلائين) المنقبة الشافعية ، ونور الدين محمد بن الغربي الحوازمي للحنفية ، وعلم الدين أحمد بن الشرماسي المصري المالكية ، وشرف الدين عبدالله بن يحيى الدين يوسف بن الجوزي للحنابلة ، وعملت فيها وليمة عظيمة ، وخلع على المدرسين المذكورين وعلى الناظر فيها ونواب العمارة ، وعلى القرائين وخدم قبة السيدة باب بشر ، وأنشدت أشعار كثيرة ، وكان يوم افتتاحها يوماً مشهوداً من أواخر الأيام العباسية .

ومن مدرسي هذه المدرسة المشهورين بعدئذ فخر الدين عبدالله

ابن عبد الجليل الطبراني الحنفي المتوفى سنة ٦٦٧ . قيل كان هذا المدرس في وقعة هولاء من يخرج الفقهاء من بغداد الى باب السور عند مخيم السلطان الجبار هولاء ليقتلوا هناك . وذلك له بئس الخبر ، وأقبح الاثر ، ومنهم نور الدين علي بن الاطاي الحنفي وتاج الدين عبد الوحيم بن بونس الموصلي الشافعي ، وصدر الدين محمد بن شيخ الاسلام الهروي ، ومجد الدين علي بن جعفر ، وجمال الدين عبدالله بن العاقولي المدفون في الحلة العاقولية في قبر مشهور بجوار مدرسة التفيس ، وهو من نسل النعمان بن المنذر ، وابن عبد الحقي عبد المؤمن مؤلف كتاب « مرصد الاطلاع على الامكنة والبقاع » وغيره من الكتب الحسنة ، ونور الدين ابو طاب عبد الرحمن بن عمر البصري ، مؤلف التفسير الموسوم « بجامع العلوم في تفسير كتاب الله الحلي القويم » وغيره من جليل الكتب .

وكان في هذه المدرسة كتب موقوفة عليها ، منها الكتاب الموسوم بالعيون والنكت ، وجد على الجبل الخامس منه نص وقفته ومنها وهذا ما وقفه وتصدق به الجهة الشريفة المكرمة ، المقدسة الزكية المعظمة ، السيدة الكبيرة الرضية الامية الرحيمة ، الرؤوفة النبوية الامامية للظاهرة البرة ، جهة سيدنا ومولانا الامام المفترض الطاعة على جميع الانام ، ابي احمد عبد الله ابن المعتصم بالله امير المؤمنين ، ثبت الله دولته وأعلى كلمته ، على طلاب العلم ، رغبة فيما عند الله من حسن الثواب ، وذخراً صالحاً ليوم الحساب ، وامرت ان يكون بالمدرسة الميمونة التي امرت بانشاها ، بظاهر محلة شارع ابن رزق الله ، بالجانب الغربي

من مدينة السلام ، وان يعار برهن ضامن للقيمة ، وكتب في شهر رمضان المبارك من سنة ٦٥٢ وحلى الله على سيدنا محمد وآله ، وهذا استدللنا على موضع الشارع المذكور .

اما دار القرآن التي امرت ببنائها ، فقد فنت في حياتها كما ذكرنا قبل هذا ، فمن تولى مشيختها سراج الدين ابو حفص عمر ابن علي القزويني ثم الواسطي ثم البغدادي المتوفى ببغداد سنة ٧٥٠ ، وقبره معروف حتى اليوم بقبر سراج الدين (على ما قاله فاضل معاصر) في محلة سراج الدين المنسوبة اليه قرب العوينة ، وكنا نظنه قبر رجل آخر ، فعدلنا عن ذلك الظن ، لرجحان القول الثاني ، ولكون المؤلف الذي اعتمدنا عليه اولاً ممن لا يعتمد عليهم في مثل هذه الامور الدقيقة . ومن حسن التوفيق لهذه السيدة الصالحة ، انها توفيت قبل سقوط الدولة العباسية بأربع سنوات ، وكان الموت وهو خير نزال على الحرم ، خيراً لها من مشاهدة العاقبة الفاجعة ، والمجيبة العظمى والكارثة الكبرى ، قتل زوجها الحليفة المستعصم بالله افطع قتلة ، واستنصل امراء بني العباس ونسائهم جميعاً اشنع استنصال ، تلك المذبحة امائلة الشيعة الفظيعة ، الوحشية التي امر بها الاعين الجبار هولاء كوخان ، فأتبت في مقبرة عبد العزيز بن جعفر الحلال المعروف اليوم بالشيخ الحلائي ، ففي هذه المقبرة سالت دماؤهم كالنهر ، وسقطت جثثهم هامدة مضرجة بالدماء ، ولم يرحم منهم شيخ ولا امرأة ، ولا صبي ولا طفل ولا عجوز ، ولا خادم ، وهو حدث تقشع منه الابدان ، على طول الازمان .

شمس الضحى زوجة ابي العباس

ابن المستعصم بالله

هذه السيدة شمس الضحى واسمها شاه لبنى هي بنت عبد الخالق ابن ملكشاه بن صلاح الدين يوسف بن ايوب الايوبية ، وعبد الخالق هو ابن اخي الملك الناصر صلاح الدين ابن ايوب ، تزوجها ابو العباس احمد بن الخليفة المستعصم بالله الشهيد ، وصارت من سيدات دار الخلافة العباسية ، ولم نجد فيما تحت ايدينا من التواريخ سنة ولادة شمس الضحى ، وانما نعلم ان زوجها أبا العباس ولد سنة احدى وثلاثين وسمائة للهجرة ، سنة افتتاح المدرسة المستنصرية في عهد جده المستنصر بالله ، وانها رزقت منه ثلاثة اولاد : ذكر واحد واثنين ، فالابن هو ابو الفضل محمد والپنتان هما رابعة وكان مولدها يوم عيد الاضحى من سنة ٦٥٥ وست الملوك ، وخطب لزوجها المذكور بولاية عهد الخلافة العباسية ، الا أن الاقدار وسوء الايالة والاختيار ، والتعصب المذهبي ، وغلبة الجهال على امور الدولة العباسية عجأت بسقوطها وهبوطها ، واستولى هولاكو خان على بغداد في اليوم الحادي والعشرين من المحرم من سنة ٦٥٦ هـ ، وخيم في شرقي الباب الشرقي من بغداد ، فخرج اليه الخليفة المستعصم بالله والوزير مؤيد الدين ابو طالب محمد بن العلقمي ، ومع الخليفة جمع كثير ، فلما صاروا الى ظاهر سور بغداد ،

منعوا أصحابه من الوصول معه ، زافردوا له خيمة فأسكن فيها ،
ثم خرج ابنه أبو العباس أحمد زوج شمس الضحى يوم الجمعة ثاني
صفر من سنة ٦٥٦ هـ ، ثم عاد الخليفة المستعصم بالله الى بغداد في
الرابع من صفر ، ومعه جماعة من أمراء المغول فأخرج لهم من
دار الخلافة كثيراً من الاموال ، والجواهر والحلي والزركش
والثياب وأواني الذهب والفضة والأعلاق النفيسة ، ثم عاد معهم
الى مخيم هولاءكو ظاهر السور في بقية ذلك اليوم . فأمر هولاءكو
اللعين بقتله ، فقتل يوم الاربعاء رابع عشر صفر ، ولم يبق دمه بل
جعل في غرارة اي شالية ورفس وديس حتى مات ، ودفن وعفي
اثر قبره . ثم قتل ابنه أبو العباس المذكور واخوه أبو الفضل
عبد الرحمن بن المستعصم بالله ، وأزيلت الدولة العباسية .
وكان سقوطها فاجعة عظيمة أليمة ، ومصيبة جد أليمة اصاب
الامة في صميمها وأصمت قلبها وأذهبت عزها ، وأهكت سلطانها .
لا جرم أن السيدة شمس الضحى شاه لبني زوجة ولي العهد
أبي العباس ، أمست نياماً من زوجها ذات أيتام ، والحرب مائة
مينة ، تترك النساء أيامى والاولاد يتامى ، هذا إلى كونها كابدت
أعظم الاهوال ، وقامت أفظع المصائب وشهدت أشد المشاهد
ترويعاً وتفجيعاً .

ولما ولي هولاءكو خان سنة ٦٥٧ بلاد العراق علاء الدين
عطا منك بن بهاء الدين الجويني ، ولقب بصاحب الديوان ، وكان
يدعي النسب الى الفضل بن الربيع حاجب ابي جعفر المنصور ،
خطب علاء الدين شمس الضحى وتزوجها ، وسيرة زوجها الثاني

طوية ، فانه تولى العراق من قبل الدولة الايلخانية الهولاكية
 زهاء اثنتين وعشرين سنة ، ولاية اختلط خيرها بشرها وتغمرها
 بضرها ، وليس هذا محل الحكم لها ولا الحكم عليها ، الا انه كان
 بحب الادب والعلم ويحيز عليها جوائز سنوية ، وهذا امر راجح في
 ميزان تقدم الامم ذوات الثقافات العوالي . وكان هو اديباً اريباً
 في الفارسية والعربية ، وله التاريخ المشهور الموسوم بجهان كشاي
 اي فاتح العالم ، يعني به الملك القاهر جنكيز خان . وكان علاء
 الدين كثير العمارة ، ومن عمارات عهده منارة جامع القصر
 المعروف اليوم بجامع سوق الغزل ، فانها تم بناؤها سنة ٦٧٨ هـ ،
 في سلطنة ابا قاتان بن هولاكو خان ، وقد مضى على بنائها ست
 وثمانون وستمائة سنة ، وتوفي علاء الدين سنة ٦٨١ هـ .

اما شمس الضحى شاه لبني فاتها احبت ان تبقي اثرأ جميلاً كريماً
 في الدنيا وفي التاريخ ، فأمرت ببناء مدرسة بجوار مشهد عبيد الله
 العلوي ، ويعرف بقبر النذور ايضاً . ووصفه صاحب المراصد بان
 بينه وبين سور بغداد - اي السور الباقي اثره شمالي القلعة -
 نصف فرسخ ، وهذا يوافق قبر ابي رابعة شرقي الاعظمية . وفي
 سنة ٦٧١ هـ تكاملت عمارة المدرسة المذكورة ، وصيبت « المدرسة
 العصمية » نسبة الى نعتها « العصمة » ، ووقفها على الطوائف الاربع
 الشافعية والحنفية والحنبلية والمالكية ، على نحو ما فعلت قبلها
 السيدة باب بشير زوجة المستعصم بالله صاحبة المدرسة البشيرية ،
 وفتحت المدرسة في تلك السنة ورتب بها من المدرسين القاضي
 عز الدين ابو العز احمد بن جعفر البصري للفقهاء الشافعي ، وعفيف

الدين ربيع بن محمد الكوفي للفقهاء الحنفي، وشرف الدين داود الجبلي للفقهاء الحنبلي، ومجد الدين شقير الراعظ للفقهاء المالكي، وخلع على جميع المدرسين وعملت فيها وليمة عظيمة، وجعلت النظر في المدرسة أي إدارة أمورها، كما تقول اليوم، إلى شهاب الدين علي ابن عبد الله صدر الوقوف ببغداد، أي مدير الأوقاف وهو الذي أشرف على بناء منارة سوق الغزل، وجعلت الإشراف عليه إلى كل من ولي قضاء القضاة ببغداد، وبنت إلى جانب المدرسة تربة لنفسها ورباطاً للصوفية، وجعلت في المدرسة خزانة كتب كما كانت عادتهم.

وكانت في سنة ٦٧٠ هـ، زوجت ابنتها رابعة بنت ولي العهد أبي العباس أحمد بن المنعم بالله، بشرف الدين هرون بن شمس الدين محمد الجويني، وهو ابن أخي زوجها الثاني علاء الدين عطا ملك، واشترطت عليه أن لا يشرب الخمر أبداً، فأجاب إلى ذلك، وعقد العقد وكتب كتاب الصداق على مائة ألف دينار من الذهب، العين الصداق، وكان الكاتب للعقد جاء الدين علي بن عيسى الأربلي الكردي كاتب الإنشاء بديوان بغداد، ومؤلف كشف الغمة في مناقب الأئمة.

وفي سنة ٦٧٨ هـ توفيت العصمة شمس الضحى شاه لبني ببغداد، ودفنت في التربة التي بنتها بجوار مدرستها العصمية. قال بعض المؤرخين في ترجمتها «أنها كانت كثيرة الصدقات والاحسان والمبرات»، وكانت تحب أهل بغداد وتوعى مصالحهم وتقوم في حوائجهم وتساعدهم، ولعمري إن سيرتها وآثارها تدل

على انها كانت سيدة عظيمة كريمة ذات خلق كريم وديانة صحيحة ،
وكان ذلك ظاهراً في افعالها ولا سيما اشتراطها على زوج ابنتها
رابعة أن لا يشرب الخمر ابداً .

وفي سنة ٦٨٥ هـ في جمادى الآخرة منها توفيت ابنتها رابعة
ببغداد ، ودفنت في تربة والدتها عند مشهد عبيد الله العلوي ،
الذي قلنا يظهر لنا انه كان عند قبر ابي رابعة شرقي الاعظمية .
ولعل هذا الاسم كان « ام رابعة » ثم صار ابا رابعة ، وكيفما
كان الامر فان اسم « رابعة » نفسها يدل على موضع القبر ، لانها
دفنت عند امها هناك ، وبعد وفاتها ورد الخبر ببغداد بأن السلطان
ارغون بن ابا قاخان بن هولاكو خان ، امر بقتل زوجها شرف
الدين هارون في حدود بلاد الروم ، وكان هذا السلطان المغولي
يغض بني الجويني اشد بغض فأراد استئصالهم ، وقتلهم حتى
اطفالهم . وكان لرابعة من شرف الدين المذكور ابنتان وابنة
واحدة ، فالابنتان هما المأمون عبد الله والأمين احمد والبنت
هي زبيدة .

أما المدرسة العصمتية فان اخبارها بعد ذلك العصر قليلة بل
نادرة بل عزيزة ، ففي سنة ٦٨٣ هـ اتخذت سجنًا لارباب الدولة
في العراق التابعين للسلطان احمد خان بن هولاكو خان ، وهم
شرف الدين هرون زوج زبيدة وشمس الدين زردبان نائبه في
بغداد ، وعز الدين المشارك في كتابة الديوان ، ونظام الدين
عبد الله بن قاضي البندينجين اي منسلي وذلك لان تولية السلطان
ارغون كانت كافية في اعتقالهم واهلاكهم بعد شهرهم على أقبح

الصور واسج الهيئات . وورد ذكرها في اخبار نور الدين عثمان
 ابن ابراهيم بن يعقوب بن عبد الملك الآمدي المالكي ، وكانت
 قد استتابه فاضي بغداد بدر الدين محمد بن علي الرقي الحنفي في
 الحكم والقضاء بالجانب الغربي من بغداد ، وجعل مدرسا في
 المدرسة العصمية ، وكان ورعا متدينا وتوفي سنة ٦٨٧ هـ .
 في سنة ٧٢٥ في عهد الملك بو سعيد بن محمد خرننده بن ارغون
 بن اباقا بن هو لاكو غرقت بغداد افطع الفرق وأهوله ، وانهارت
 اكثر عماراتها في الجانبين ، وصارت بغداد كالجزيرة وسط بحر ،
 فلما تهدم من عماراتها المدرسة العصمية ، وغرقت خزانة
 الكتب التي فيها ، وكانت تساوي اكثر من عشرة آلاف دينار ،
 هذا من حيث القيمة ، فإماء العلم الذي درس معها فلا يمكن احدا
 التعويض عنه . وفيل في هذا الفرق ان الرجل كان يقف على
 سور بغداد فلا يرى على قدر مد بصره الا ماء وماء .
 وغرق ناس كثير وهلكوا ، واشتد الخطب وامتنع النوم من
 الضججات ، والفديد والجلبة خوف الفرق ، وسار أهل بغداد في
 الاسواق مكشفة رؤوسهم كالزاهقة نفوسهم ، وعمائمهم في رقابهم
 وهم يتلون القرآن ويستغيثون الله ويودع بعضهم بعضا ايقاناً منهم
 بقرب هلاكهم ، وجاء ماء الفيضان بحيات عظيمة جدا ، ولما
 نضب الماء نبت في ارض بغداد عروق بطيخ شكله كشكل الخيار
 وطعمه فج ، ونبتت اشياء اخرى غريبة الشكل ، ولا شك في
 ان الماء هو الذي جاء يبذر تلك النباتات من الاصقاع الشمالية ،
 ولم نجد بعد هذا الفرق للمدرسة العصمية ذكرا ولا خبوا .

فهرست الكتاب

صفحة	
٣	مقدمة
٥	ام سارة المخزومية
١٣	زوجة ابي العباس السفاح اولى سيدات ائمة العباسي الحيزران زوجة المهدي
١٩	ام هرون الرشيد ريطة بنت السفاح
٢٥	زوجة الخليفة المهدي عليه بنت المهدي
٣٧	اخذ هرون الرشيد العباسة بنت المهدي
٤٤	السيدة ربيدة
٥٢	زوجة هرون الرشيد وأم الأمين السيدة بوران زوجة المأمون
٥٨	السيدة شجاع ام المتوكل على الله وخارق ام المستعين بالله
٦١	السيدة خارق
٦٤	السيدة فريدة صاحبة الواثق بالله زوجة المتوكل على الله
٧٠	السيدة قبيصة صاحبة المتوكل على الله وام المتز بالله
٨٢	فضل صاحبة المتوكل
٨٨	السيدة شغب ام المقتدر بالله

صفحة	
٩٤	السيدة قطر الندى
١٠٠	زوجة الخليفة المعتض بالله العباسي مخدجة خاتون السلجوقية
١٠٨	زوجة الخليفة القائم بالله الله السيدة بنت القائم بالله الله
١٣٢	زوجة السلطان طغرل بك السلجوقي السيدة قرعة العين أروجان
١٣٩	السيدة بنت ملكشاه السلجوقية زوجة الخليفة المقتدي بالله الله
١٤٦	السيدة بنت ملكشاه الثانية زوجة الخليفة المستظهر بالله العباسي
١٥٣	فاطمة خاتون بنت السلطان محمد السلجوقي
١٥٨	السيدة زبيدة بنت المقتضي لأمر الله الست ينفشة
١٦٣	السيدة زمرد خاتون
١٧٤	زوجة الخليفة المستضي بالله الله السيدة سلجوقه خاتون
١٨٢	السيدة هاجر
١٩٠	زوجة للنصر بالله وأم المستعصم بالله
١٩٥	السيدة باب بشر
٢٠٠	زوجة المستعصم بالله شمس الضحى
	زوجة أبي العباس بن المستعصم بالله

طفراني قاروت الحادي
 Search for T. *Qarut al-Hadi*
 Search for *Qarut al-Hadi*
 Search if *Qarut al-Hadi* was ever used

انتهى طبع هذا الكتاب على مطابع

دار النشر

للنشر والتوزيع والمطبع

بيروت - لبنان

في ١ شباط سنة ١٩٥٠

لمة صاحبة الو
 في الميراث كل علم

115030000

613101000

D
198.3
J38
1950

14 JUN 1987

